سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

شرح

لفضيلة الشَّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشَّيخ

لأصول الإيمان

للإمام المجدِّد

محمَّد بن عبد الوهَّاب

رحمه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٣)

الشَّيخ لم يراجع التَّفريع

قال الشَّيخ الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١- بَابٌ
مَعْرِفَةُ اللهِ ﷻ وَالإِيمَانُ بِهِ

[١] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ: «أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّـرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.(١)

هٰذا الكتاب كتاب «كِتَابُ أُصُولِ الْإِيمَانِ» جَمَعَ فيه الإمام المجدِّد رَحِمَهُ اللَّهُ الأحاديث الَّتي في الإيمان: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله.. وما يتَّصل بذلك من الأمور، فهو جمعُ أحاديثٍ متنوِّعة، أصولٌ في هٰذا المبحث العظيم؛ مبحث الإيمان.

والإيمانُ أركانه ستَّةٌ كما هو معلومٌ.

والرُّكن الأوَّل: هو **الإيمان بالله**.

والإيمان بالله ثلاثة أقسام:

إيمانٌ بربوبيَّة الله؛ بأنَّه واحدٌ جلَّ وعلا في ربوبيَّته لا شريك معه.

والثَّاني: **إيمانٌ بألوهيَّة الله** وأنَّه واحدٌ في إلهيَّته؛ يعني: في استحقاقه للعبادة، لا ندَّ له.

والثَّالث: **الإيمان بالأسماء والصِّفات** وأنَّه سبحانه واحدٌ في أسمائه وصفاته، لا مثيل له.

الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هنا يذكر من الأحاديث الآن ما يرجع إلىٰ كلِّ واحدةٍ من هٰذه لينبِّه علىٰ أصول الإيمان.

فذكر حديث أبي هريرة أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: (قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: «أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ») وهٰذا يفيد فوائد في الإيمان:

الفائدة الأولىٰ: توحيد الرُّبوبيَّة. إذْ قوله: «أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ» وذلك لكمال ربوبيَّته سبحانه وانفراده بها، فلكونه الرَّبَّ وحده هو أغنىٰ الشُّركاء عن الشِّرك، إذِ الإشراكُ به جلَّ وعلا باطلٌ لأنَّه هو الرَّبُّ وحده دونما سواه.

وقوله: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي»: هٰذا فيه توحيد الإلهيَّة. وهٰذا مبسوطٌ في شرح «كتاب التَّوحيد» وغيره.

المقصود التَّنبيه علىٰ أنَّ الحديث يدلُّ علىٰ نوعين من التَّوحيد، توحيد الرُّبوبيَّة وتوحيد الإلهيَّة. وبه يصلح الاستشهاد علىٰ تفسير الإيمان بالله يعني: بربوبيَّته وإلهيَّته.

... «الشُّرَكَاء» يعني الشُّركاء في العبادة، إذا كان فيه واحدٌ من الشُّركاء في العبادة أو في غيرها يستغني عن أن يكون له شريكٌ في صاحبه فالله جلَّ وعلا هو أغنىٰ الشُّركاء عن الشِّرك، ومعلومٌ أنَّ الكريم من النَّاس الأبيَّ السَّيِّد السُّلطان القويَّ إذا أحسَّ أنَّ فلانًا من النَّاس له ولغيره أبىٰ، ويريد أن يكون واحدًا

(١) «صحيح مسلم» حديث رقم: (٢٩٨٥).

لواحدٍ، مثل ما قال جلَّ وعلا: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾[الزُّمر:٢٩]، العبد لا يشترك فيه أكثر من واحدٍ، وإذا اشتركوا يصير فيه تضادٌّ، فيريد واحدٌ لواحدٍ.

فالله جلَّ وعلا أغنىٰ الشُّركاء عن الشِّرك، إذا كان فيه شركاء يُبغضون الشَّركة فالله جلَّ وعلا هو أغنىٰ الشُّركاء عن الشِّرك، إذا كان الشُّركاء في حال البشر يستغنون عن الشَّركة ويريدون أن يستغنوا عنها ولا يقبلوا بأن يكون هٰذا يتوجه للجميع أو يكون مواليًا للجميع، فالله جلَّ وعلا أغنىٰ الشُّركاء عن الشِّرك.

كذلك في العبادة فإنَّ توجُّه الواحد إلىٰ أكثر بحسب اعتقاد أهل الجاهليَّة أنَّ الآلهة المختلفة واحدٌ منها يَقبل والآخر يستغني، ولهٰذا صار لأهل مكَّة إلٰهٌ -لهم صنمٌ- ليس هو لأهل الطَّائف، وليس هو لأهل المدينة، فكلُّ واحدٍ له أصحابُه...

[٢] عَنْ أَبِي مُوسَىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ. (١)

هٰذا الحديث شروعٌ من الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان الصِّفات، وذكر أحاديث الصِّفات داخلٌ في الإيمان بالله؛ لأنَّ الإيمان بالله: إيمانٌ بالرُّبوبيَّة والألوهيَّة والأسماء والصِّفات. فكلُّ حديثٍ فيه ذكرٌ للأسماء والصِّفات للحقِّ جلَّ وعلا فهو يُساق في باب الإيمان بالله.

وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ أحاديث الصِّفات هي أحاديث الإيمان بالله جلَّ وعلا إذْ بمعرفة الحقِّ جلَّ وعلا والعلم بأسمائه وصفاته إيمانٌ به. فإيماننا بالحقِّ جلَّ وعلا إيمانٌ عن علمٍ بأسمائه وصفاته ونعوتِ جلَاله وكريم أفعاله ﷻ.

وقوله هنا: «إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ»، «لَا يَنَامُ» لكمال قيُّوميَّته وكمال حياته ﷻ. فهٰذا النَّفي مقصودٌ به كمالُ ضدِّه. علىٰ قاعدة: **أنَّ النَّفي المحض ليس كمالًا**. فإذا جاء نفيٌ في الكتاب والسُّنَّة فيُقصد به إثبات كمال الضِّدِّ، فضدُّ النَّوم: الحياة والقيُّوميَّة.

لهٰذا نقول: «إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ» فيها إثباتُ كمالِ حياة الله جلَّ وعلا وكمالِ قيُّوميَّته.

ولهٰذا في آية الكرسيِّ قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾[البقرة:٢٥٥]، فلكمال حياته سبحانه ولكمال قيُّوميَّته جلَّ وعلا ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ﴾ غفلةٌ ولا فتورٌ ولا إعراضٌ، ﴿وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ لا يشغله ﷻ عن قيُّوميَّته شأنٌ عن شأنٍ.

وقوله: «يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ» المقصود بـ«الْقِسْطِ» هنا: الميزان. لقوله جلَّ وعلا: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[الأنبياء:٤٧]، وظاهره: أنَّ الله جلَّ وعلا يخفِضُ الميزان ويرفعه كما يليق بجلَال الله جلَّ وعلا.

قوله: «لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» هٰذا تعليقٌ بكلِّ شيءٍ[بحدٍّ]؛ لأنَّ القسمةَ قسمان:

- الله جلَّ وعلا شيءٌ ﷻ.
- ومخلوقاته شيءٌ آخر.

وليس ثمَّ قسمٌ ثالثٌ.

الله جلَّ وعلا ومخلوقاته، فما هو ليس من الله جلَّ وعلا فهو مخلوقٌ: من العرش وحملته إلىٰ آخر ملكوت الله ﷻ. فلو كشف الحجابَ ﷻ لأحرقت سُبحات وجهه –نورٌ قويٌّ– ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه يعني: كلَّ الخلق؛ لأنَّ بصر الحقِّ ﷻ ليس له حدٌّ ولا نهايةٌ، متعلِّقٌ بجميع المخلوقات.

فقوله: «مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» يعني: كلَّ شيءٍ. وبصره وسِع المخلوقات جميعًا، بمعنىٰ: أحرق كلَّ شيءٍ تبارك ربُّنا وتعالىٰ وتقدَّس.

---

(١) «صحيح مسلم» حديث رقم (١٧٩).

[٣] وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «يَمِينُ اللهِ مَلْأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ[١] سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يُغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ وَالقِسْطُ بِيَدِهِ الْأُخْرَى، يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ» أَخْرَجَاهُ.[٢]

هٰذا فيه إثبات صفة اليد لله جلَّ وعلا؛ بل إثبات صفة اليدين للحقِّ تبارك وتعالىٰ. والحقُّ جلَّ وعلا نُثبت له هاتين الصِّفتين كما قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[المائدة:٦٤]، وقال ﷻ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[ص:٧٥]، وقال جلَّ وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾[يس]، وأشباهُ هٰذه الآيات والأحاديث الَّتي فيها إثباتُ صفة اليدين للحقِّ جلَّ وعلا.

وهٰذا من الإيمان، فهو سبحانه متَّصفٌ بذلك علىٰ ما يليق بجلاله وعظمته: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[الشُّورىٰ].

(وكلتا يدي الرَّحمٰن جلَّ وعلا يمينٌ) فهل يقال: إنَّ للرَّحمن جلَّ وعلا يمينًا وشمالًا؟ هٰذا فيه بحثٌ.

والَّذي في هٰذا الحديث أنَّ الله ﷻ سمَّىٰ يديه -يعني: وصف يديه- واحدةً باليمين، وقال في الثَّانية: «وَبِيَدِهِ الأُخْرَىٰ القِسْطُ يَخْفِضُهُ وَيَرْفَعُهُ»، و(كلتا يدي الرَّحمٰن يمينٌ) كما جاء في الحديث: «**إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ وَعَلَىٰ يَمِينِ الرَّحْمٰنِ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ**».[٣]

وقوله: «وكلتا يديه يمينٌ» قال العلماء معناه: أن يدي الرَّحمٰن ﷻ كلُّها يمينٌ، يعني في الخير وفي الإنفاق؛ ولأنَّ العرب تَجعلُ الشَّرفَ لليمنىٰ علىٰ اليد الأخرىٰ، وأنَّ اليد الأخرىٰ في الإنسان يعنىٰ اليسرىٰ: أقلُّ وأوضع من اليد اليمنىٰ، فاليد اليمنىٰ هي الشَّريفة والثَّانية ليست كذلك. فقولُ النَّبيِّ ﷺ: «وكلتا يديه يمينٌ» يعني: أنَّ يدي الرَّحمٰن جلَّ وعلا في الشَّرف والصِّفة سواءٌ؛ ليس ثَمَّ فضلٌ ليدٍ علىٰ أخرىٰ.

هٰذه الأخرىٰ هل يقال: إنَّها الشِّمال؟ جاءت في «صحيح مسلم» في حديثٍ،[٤] والحديث في إسناده ضعفٌ وساقه مسلمٌ رَحِمَهُ اللَّهُ في الشَّواهد، ولذلك أعلَّه طائفةٌ من أهل العلم في ذِكر التَّنصيص علىٰ ذكر الشِّمال، وقالوا: إنَّ ذكر الشِّمال فيه ليس محفوظًا، وأنَّ الصواب في الحديث: «**وَبِيَدِهِ الأُخْرَىٰ القِسْطُ**» وليس «**بِشِمَالِهِ**». وهٰذا ظاهرٌ من حيث الإسناد؛ فإنَّ مسلمًا رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ساقه في الشَّواهد، ومعلومٌ أنَّ سياق الحديث في الشَّواهد لا يعني تصحيح كلِّ كلمةٍ فيه. ولهٰذا ذهب كثيرٌ من أهل العلم إلىٰ عدم إثبات كلمة (الشِّمَالِ) في صفة اليد لله جلَّ وعلا.

وقال طائفةٌ من المحقِّقين من أهل العلم: تثبت اليمين والشِّمال، والشِّمال شريفةٌ يمينٌ هي كاليمين، والشِّمال ليس نقصًا لها؛ ولكن هي يمينٌ وشمالٌ مثل ما جاء في الحديث الَّذي في مسلمٍ ما دام أنَّ مسلمًا

---

(١) قال الشيخ صالح آل الشيخ: يعني: لَا تُنقِصُها نفقة.

(٢) «صحيح البخاري» حديث رقم: (٧٤١١)، و«صحيح مسلم» حديث رقم: (٩٩٣).

(٣) رواه مسلم في «صحيحه» برقم: (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) «صحيح مسلم» حديث رقم (٢٧٨٨) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رواه قد صحَّحه. ومال إلىٰ هٰذا: إمام الدَّعوة الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب في آخر كتابه «التَّوحيد»، فإنَّه ذكر في المسائل في آخر الكتاب فقال: التَّنصيص علىٰ الأخرىٰ بأنَّها الشِّمال.[١] وهٰذا يقول به طائفةٌ من أهل العلم المحقِّقين في هٰذا.[٢]

والمسألةُ تحتاجُ إلىٰ مزيد نظرٍ، والحديث -كما ذكرت لكم- في إسناده ضَعفٌ، ويكون ذكر الشِّمال فيه شاذًّا، وقد نصَّ علىٰ ذلك بعض أئمَّة الحديث كالبيهقيِّ[٣] وغيره.

نكتفي بهٰذا، وفَّق الله الجميعُ لما يحبُّ ويرضىٰ.

---

(١) جاء في «كتاب التوحيد» باب ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ المسألة **السَّادِسَة**: التَّصْرِيحُ بِتَسْمِيَتِهَا الشِّمَالِ.

(٢) وقال به عثمان بن سعيد الدارمي، وأبو يعلىٰ الفراء.

(٣)«الأسماء والصفات للبيهقي» تحت حديث رقم (٧١٨).

الدرس الثاني

[٤] وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ شَاتَيْنِ يَنْتَطِحَانِ فَقَالَ: «أَتَدْرِي فِيمَ يَنْتَطِحَانِ يَا أَبَا ذَرٍّ؟» قُلتُ: لَا. قَالَ: «وَلَكِنَّ اللهَ يَدْرِي وَسَيَحْكُمُ بَيْنَهُمَا» رَوَاهُ أَحْمَدُ. (١)

هٰذا في تتمَّة الكلام علىٰ الإيمان بالله جلَّ وعلا، وقد ذكرنا لك أنَّ الإيمان بالله ﷻ إيمانٌ بالرُّبوبيَّة والألوهيَّة والأسماء والصِّفات، وهٰذا ذِكرٌ لبعض الصِّفات.

وهنا قال: «وَلَكِنَّ اللهَ يَدْرِي» ودراية الله جلَّ وعلا بـ(فيما ينتطح الكبشان أو العنزان) يعني: علْمَه ﷻ بذلك. ومعلومٌ أنَّ **باب الإخبار أوسع من باب الوصف**، فإنَّ صفة (الدِّراية) لا يوصف الله جلَّ وعلا بها؛ لكن يُطلق علىٰ الله جلَّ وعلا من جهة الإخبار أنَّه ﷻ يدري بهٰذا الشَّيء؛ لأنَّها من فروع العلم.

فهناك صفاتٌ لها جنسٌ..، فالعلم جنسٌ تحته صفاتٌ، فجنس ما هو ثابتٌ يجوز إطلاقه علىٰ الله جلَّ وعلا من جهة الخبر.

(١) «مسند أحمد» حديث رقم (٢١٤٣٨-الرِّسالة).

[٥] وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾[النِّسَاءُ]، وَيَضَعُ إِبْهَامَيْهِ عَلَىٰ أُذُنَيْهِ وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَىٰ عَيْنَيْهِ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ حِبَّانَ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. (١)

هٰذا الحديث مشهورٌ من جهة دلالته علىٰ إثبات الصِّفة بالإشارة. وإثبات الصِّفة بالإشارة كان يفعله بعض السَّلف بأنَّه يشير إليها بيده؛ فيشير إلىٰ الأصابع بأصابعه، ويشير إلىٰ اليد بيده، ويشير إلىٰ السَّمع والبصر بهما، كما فعل هنا أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ ووضع يده هكذا.

وهٰذا عند أهل العلم معناه: **إثبات الصِّفة بمعناها المتعارف عليه عند الإنسان**؛ عند المخاطَب، ومعلومٌ أنَّ المسلم يثبت الصِّفة مع قطع المُماثلة علىٰ قاعدة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[الشُّورىٰ]، فإذا أشار إلىٰ عينه أو أشار إلىٰ سمعه فإنَّه لا يعني بذلك المُماثلة، وإنَّما يعني بها أنَّ العين هي ما تعلم أنَّها عينٌ، والله جلَّ وعلا له عينٌ سبحانه لا تشبه الأعين ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾، وكذلك له سمعٌ ليس كمثل سمع المخلوق.

فإذن الإشارة معناها: إثباتُ معنىٰ الصِّفة بما يعهده المخاطَب من معناها، فيُشير لأجل تحقيق ذلك.

وبعض أهل العلم قال: الإشارة لأجل إثبات الحقيقة. وهٰذا ليس بجيِّدٍ؛ لأنَّه يقتضي أنَّ تقسيم الكلام إلىٰ حقيقةٍ ومجازٍ موجودٌ عند الصَّحابة، وهٰذا ليس بصحيحٍ، فإنَّ الكلام عند الصَّحابة حقيقةٌ كلُّهُ؛ لأنَّ كلام العربيِّ حقيقةٌ وظاهرٌ، والمجاز المُدَّعىٰ نوعٌ من الحقيقة التَّركيبيَّة والظَّاهر التَّركيبيِّ.

فالمقصود هنا أنَّه:

إذا قيل لبيان الحقيقة، فإنَّه لبيان حقيقة المعنىٰ، فلا بأس.

وإذا ظُنَّ أنَّ الحقيقة هنا يعني: الحقيقة المقابِلة للمجاز، فهٰذا غلطٌ ولا يصحُّ أن يُنسب إلىٰ الصَّحابة؛ لأنَّه لا تقسيمَ للكلام عندهم إلىٰ حقيقةٍ ومجازٍ.

إذا تبيَّن هٰذا فلا يُناسب -عند النَّاس وعند العوَّام- أن يُشار بالأصابع أو يُشار باليد أو يُشار إلىٰ العين أو نحو ذلك؛ لأنَّ العامَّةَ قد تفهمُ من هٰذا التَّمثيل والتَّشبيه، ولهٰذا أنكروا علىٰ كثيرين ممَّن قال: إن الله يقبض السَّمٰوات بيده ولو أشار لا إراديًّا يُنكِر عليه العامَّة لعدم قبولهم مثل هٰذا.

وهٰذا أوجه من الإشارة لأنَّ الزَّمن مُختلفٌ.

... هٰذا الَّذي أشار هو الحَبر اليهوديُّ، ليس هو النَّبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام قال: إنَّ الله يضع السَّموات علىٰ دِهْ، والأرض علىٰ ده، والشَّجر علىٰ ده.. إلىٰ آخره، وفي بعضها أنَّه قال: علىٰ إصبعٍ وعلىٰ إصبعٍ عدَّ خمسةً، وفي بعضها ستَّةً، وفي بعضها أقلَّ، فضحك النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام تصديقًا لقول الحَبر، وهٰذا لا إشكال فيه؛ لأنَّه مثل ما ذكرنا؛ لأنَّه لأجلِ بيان المعنىٰ مع قطع المُماثلة.

---

(١) «سنن أبي داود» حديث رقم: (٤٧٢٨)، و«صحيح ابن حبان» حديث رقم (٢٦٥-التَّقريب)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣/ ٩٧٨)، صححه الحاكم (١/ ٢٤) ووافقه الذهبي.

[٦] وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ. لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي المَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللهُ. وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى» رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ. (١)

هٰذا في اختصاص الغيب بالله جلَّ وعلا، والغيْبُ نوعان:

- **غيْبٌ وقع وانقضىٰ، فغاب عن بعضٍ**، وهٰذا ليس هو ممَّا يختصُّ الله جلَّ وعلا به.
- وإنَّما ما يختصُّ الله جلَّ وعلا به هو النَّوع الثَّاني وهو **الغيب الَّذي سيأتي؛ الَّذي لم يقع بعدُ**، فهٰذا لله جلَّ وعلا.

الغيب الماضي علمه بعض النَّاس، رأته الجنُّ، لهٰذا يحصل من العرَّافين أنَّهم يستدلُّون علىٰ مكان المسروق مع أنَّه غيبٌ بالنِّسبة للنَّاس؛ لكن لا يدخل هٰذا في ادِّعاء الغيْبِ لأنَّهم تُخبرهم الجنُّ بمكانه، فهو ليس من الغيب الَّذي اختصَّ الله جلَّ وعلا به، والله ﷻ قال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[الأنعام:٥٩]، وهٰذا هو الغيب الَّذي يكون في المُستقبل والقدر القادم لا يعلمه علىٰ ما سيقع عليه -من هيئته وصفاته وزمانه ومكانه وقدره إلىٰ آخر ذلك- إلَّا الرَّبُّ ﷻ.

فالحديث فيه إثبات علم الرَّبِّ جلَّ وعلا بما سيكون.

وعلم الله جلَّ وعلا المختصُّ به في أشياءٍ حادثةٍ لا يعلمها إلَّا هو كعلم ما في الأرحام، ولا يعلم ما في الأرحام إلَّا الله جلَّ وعلا.

وعِلْمُ ما في الأرحام المختصُّ به الله جلَّ وعلا يشمل كلَّ ما في الأرحام من جنينٍ ومن حالته وحال الرَّحم وغيض الرَّحم وازدياده وإتيان الغذاء والدَّم وقلَّة ذلك وترقِّي الجنين في خلقه، يعني علىٰ هٰذه التَّفاصيل هٰذه لا يعلمها إلَّا الله جلَّ وعلا، فإنَّ الإنسان مهما وصل علمه فإنَّه لا يستطيع أن يعلم ذلك علىٰ وجه التَّفصيل في كلِّ ما يحصل؛ ولهٰذا كلمة (مَا) في آية (لقمان) في قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾[لقمان:٣٤] هٰذه عامَّةٌ، (مَا) بمعنىٰ الَّذي، والأسماء الموصولة كما هو معلومٌ تعمُّ ما كان في حيِّز صلتها، فقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ يعني: الَّذي هو كائنٌ في الأرحام، فكلُّ ما يكون في الرَّحم يعلمه سبحانه.

وأمَّا معرفة هل الجنين الَّذي في الرَّحم ذكرٌ أو أنثىٰ؟ فهٰذا يختصُّ بالله جلَّ وعلا فيما قبل نفخ الرُّوح، وأمَّا ما بعد نفخ الرُّوح فإنَّه يخرج عن العلم المختصِّ بالله جلَّ وعلا؛ لأنَّه قد ثبت في «صحيح مسلم»: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ النُّطْفَةَ إِذَا صَارَتْ فِي الرَّحِمِ أَتَىٰ المَلَكُ بَعْدَ أَرْبَعِينَ، قَالَ لَهُ اللهُ جلَّ وَعَلَا: اكْتُبْ**

(١) «صحيح البخاري» حديث رقم: (٤٦٩٧) عن ابن عمر، و«صحيح مسلم» حديث رقم (٩) في حديث جبريل عن أبي هريرة بنحوه.

رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ وَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَىٰ»،[1] وفي روايةٍ: «**يَقُولُ المَلَكُ: أَيْ رَبِّ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَيَأْمُرُ اللهُ ويَكْتُبُ المَلَكُ. ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَىٰ؟**»[2] فَيَأْمُرُ اللهُ وَيَكْتُبُ المَلَكُ فيعلم الملك بعد مضيِّ هٰذه المُدَّة هل هو ذكرٌ أم أنثىٰ؟

قال طائفةٌ من العلماء: كان بعض النَّاس يعلم إذا رأىٰ بطن المرأة ما فيها هل هو ذكرٌ أم أنثىٰ؟ إمَّا بدلائل وإمَّا بكشفٍ؛ يعني كشفٌ من باب الكرامات، أو بدلائل يستدلُّ بها إمَّا بشكل البطن أو الحركة أو غير ذلك.

المقصود: أنَّ ﴿مَافِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ عامَّةٌ في التَّفاصيل، ومسألة هل ما فيه ذكرٌ أم أنثىٰ هٰذه خاصَّةٌ ليست هي كلُّ ما يدلُّ عليه اختصاص الله بعلمه بما في الأرحام، ومعناها وضابطُها ما ذكرنا. والباقي واضحٌ إن شاء الله.

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه» برقم (٣٢٠٨)، و«صحيح مسلم» حديث رقم (٢٦٤٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. ولفظه: « إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ »

(٢) ومسلم (٢٦٤٤)، ولفظه: «فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَيُكْتَبَانِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَىٰ؟ فَيُكْتَبَانِ».

[٧] وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَىٰ رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَىٰ شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا وَقَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِهَا قَائِمَةٌ عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا فَقَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ» أَخْرَجَاهُ.[١]

هٰذا الحديث فيه فوائدُ كثيرةٌ نذكر منها فائدتين:

الأولىٰ: إثبات صفة الفرح لله جلَّ وعلا، والله تعالىٰ يفرح ويرضىٰ ويسخط ويغضب ويأبىٰ لا كأحدٍ من الورىٰ تعالىٰ، فَرَحُه بحقٍّ كما يليق بجلَاله وعظمته تعالىٰ.

والفائدة الثَّانية: أنَّ في آخر الحديث قال: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»: دلَّ علىٰ أنَّ الأخطاء المُكفِّرة إذا أتت علىٰ اللِّسان من غير قصدٍ إلىٰ هٰذا اللَّفظ؛ من غير قصدٍ إلىٰ إنشائه وإنَّما تقدَّم لفظٌ عند المتكلِّم أو تأخَّر فصار اللَّفظ كُفريًّا =أنَّ هٰذا من الخطأ المَعفُوِّ عنه لأنَّ الله تعالىٰ لا يؤاخذ إلَّا بما تعمَّد المرء إليه قلبُه؛ فقال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[البقرة:٢٢٥]، وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[الأحزاب:٥]. فالخطأ فيما لم يقصد إليه، ليس الجهل، هٰذا مَعفُوٌّ عنه.

نكتفي بهٰذا، سبحانك اللَّهمَّ وبحمدك نستغفرك ونتوب إليك.

(١) «صحيح البخاري» حديث رقم: (٥٩٥٠)، و«صحيح مسلم» حديث رقم: (٢٧٤٧).

الدرس الثالث

[٨] وَعَنْ أَبِي مُوسَىٰ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.(١)

الحمد لله ربِّ العالمين وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك الله، الملك الحقُّ المبين، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلىٰ يوم الدِّين.

أمَّا بعدُ..

فهٰذا كتاب الإيمان للشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ، من المعلوم أنَّ أوَّل أركان الإيمان الإيمان بالله: الإيمان بربوبيَّته وإلهيَّته وأسمائه وصفاته.

هٰذا الحديث من النَّوع الثَّالث وهو الإيمان بالأسماء والصِّفات، وذلك أنَّ فيه إثبات عددٍ من الصِّفات وأظهرها في الحديث صفة اليد لله جلَّ وعلا.

حديث أبي موسىٰ هٰذا قال: قال عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام: «إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» دالٌّ علىٰ إثبات صفة اليد للرَّحمن جلَّ وعلا، ووجه الدِّلالة أنَّه أضاف اليد إلىٰ ذاته العليَّة حيث قال: «يَبْسُطُ يَدَهُ»، ومن المُتقرِّر عند أهل العلم أنَّ الإضافة إلىٰ الله جلَّ وعلا نوعان:

إضافةُ مخلوقٍ إلىٰ خالقه.

وإضافةُ صفةٍ إلىٰ متَّصفٍ بها.

فإضافة المخلوق إلىٰ خالقه: كإضافة الرُّوح إلىٰ الله جلَّ وعلا في قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾[الحجر:٢٩]، وكقوله جلَّ وعلا: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾[الشَّمس]، ونحو ذلك كقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾[الإسراء:١]، فإضافة الرُّوح والنَّاقة والعبد إلىٰ الله جلَّ وعلا إضافة مخلوقٍ إلىٰ خالقه، وهٰذه الإضافة تقتضي التَّشريف لأنَّ تخصيص بعض المخلوقات بالإضافة إلىٰ الرَّبِّ جلَّ وعلا معناه: أنَّ هٰذه المخلوقات لها شأنٌ خاصٌّ وذلك تشريفٌ لها.

والنَّوع الثَّاني **إضافة الصِّفة إلىٰ متَّصفٍ بها وهو الله جلَّ وعلا**: وهٰذا ينضبط بكلِّ ما لا يقوم بنفسه من الأشياء سواءٌ كانت من الأعيان، أو من المعاني، فمن الأعيان اليد فإنَّها لا تقوم بنفسها، والوجه فإنَّه لا يقوم بنفسه؛ يعني لا يوجد وجهٌ بلا ذاتٍ ولا توجد يدٌ بلا ذاتٍ إلىٰ آخر أنواع ذلك، ومن المعاني: مثل الغضب والرِّضىٰ والرَّحمة إلىٰ غير ذلك.

فإذن هٰذا الحديث جارٍ مع القاعدة قوله عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام: «**إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ**» قوله «**يَبْسُطُ يَدَهُ**» هٰذه إضافة صفةٍ إلىٰ متَّصفٍ بها، فهٰذا يمنع أن تكون اليد مؤوَّلةً بمعنىٰ النِّعمة أو بمعنىٰ القُدرة وأشباهُ ذلك.

(١) «صحيح مسلم» حديث رقم: (٢٧٥٩).

فإنَّ **اليدَ في اللُّغة قد تأتي بمعنىٰ النِّعمة؛ لكن لا تُضاف**؛كقول العرب: لفلانٍ عليَّ يدٌ؛ يعني: نعمةٌ، لكن لا تقول العرب إذا أرادت النِّعمة: يدُ فلانٍ عليَّ، إنَّما تقول: لفلانٍ عليَّ يدٌ، بقطع الإضافة.

وحتَّىٰ هٰذا الإطلاق من العرب لأجلِ أنَّ وسيلةَ إيصال النِّعمة إلىٰ المُنْعم عليه بواسطة اليد. فربَّما دخلَ من إطلاق الشَّيء وإرادةِ لازمِه.

ومن المعلوم أنَّه في اللُّغة العربيَّة لا يمتنعُ إطلاقُ المُفرد علىٰ المُثنَّىٰ، ولا يمتنعُ إطلاقُ الجمع علىٰ المُفرد، ولا يمتنع إطلاق المُثنَّىٰ علىٰ الجمع، كلُّها سواءٌ، فإذا أُطلق المُفردُ فقد يُراد به المُفرد المُعيَّن وقد يُراد به الجنس، ولكن لمَّا سمعنا قول الله جلَّ وعلا: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[المائدة:٦٤]، علمنا أنَّ قوله: «يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ» يعنىٰ: يديه ﷻ.

[٩] وَلَهُمَا عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُدِمَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِسَبْيٍ هَوَازِنَ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَسْعَىٰ إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ فَأَخَذَتْهُ فَأَلْزَقَتْهُ بِبَطْنِهَا فَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَرَوْنَ هَٰذِهِ المَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟» قُلْنَا: لَا وَاللهِ! فَقَالَ: «اللهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَٰذِهِ بِوَلَدِهَا». (١)

هٰذا الحديثُ فيه إثباتُ صفة الرَّحمة لله جلَّ وعلا، وفيه امتناعُ تأويل صفة الرَّحمة بإرادة الإنعام أو الإحسان، لأنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام مثَّلَ -واللهُ ﷻ له المثلُ الأعلىٰ-، فلمَّا مثَّل عِظَمَ رحمةِ الله جلَّ وعلا برحمة هٰذه المرأة بولدِها علمَنا أنَّ المرادَ هنا الرَّحمةُ المعروفة المعهودة عند النَّاس الَّتي يجدها كلُّ إنسانٍ في نفسه يعرف معنىٰ الرَّحمة، والكلماتُ إنَّما هي للتَّعبير عن الأشياء، والرَّحمة معلومةٌ يعلمها المرء من نفسه لأنَّها فيه غريزةٌ، فلهٰذا قولُه: «اللهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَٰذِهِ بِوَلَدِهَا» يدلُّ علىٰ إثبات صفة الرَّحمة، وعلىٰ أنَّها صفةٌ لله جلَّ وعلا علىٰ ما يليق به ﷻ، وعلىٰ أنَّه يمتنعُ تفسير هٰذه بإرادة الإنعام؛ لأنَّ السِّياقَ والتَّمثيلَ يمنع ذلك.

(١) «صحيح البخاري» حديث رقم: (٥٩٩٩)، و«صحيح مسلم» حديث رقم: (٢٧٥٤).

[١٠] وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي» رَوَاهُ البُخَارِيُّ.(١)

كذلك هٰذا فيه صفة الرَّحمة لله جلَّ وعلا، وهٰذا الحديث فيه بحثٌ من جهة هٰذا الكتاب الَّذي هو فوق العرش، أن الله «كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ» وفي روايةٍ: «فَهُوَ عِنْدَهُ فِي عَرْشِهِ». وفي بعض الألفاظ: «[وَهُوَ وَضْعٌ عِنْدَهُ عَلَىٰ العَرْشِ]: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»،(٢) وهٰذا فيه بحثٌ من جهة هٰذا الكتاب الَّذي فيه هٰذه الكلمة «إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي» هل هو كتابٌ من اللَّوح المحفوظ فيكون في اللَّوح المحفوظ ذِكرُ صفاتِ الرَّبِّ جلَّ وعلا؟، أو هو كتابٌ مستقلٌّ جعله اللهُ فوق عرشه ليبيِّن عِظَم سبْقِ رحمتِه لغضبه؟ وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ الرَّحمة: صفةٌ ذاتيَّةٌ، وعلىٰ أنَّ الغضب: صفةٌ اختياريَّةٌ.

فالرَّحمة ملازمةٌ للرَّحمن جلَّ وعلا، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يزل رحيمًا فهو رحيمٌ لا تنفكُّ عنه الرَّحمة.

أمَّا الغضب فهو صفةٌ اختياريَّةٌ تقوم بالرَّحمٰن جلَّ وعلا إذا شاء؛ بمشيئته وقدرته، فيغضبُ في حينٍ ولا يغضب في حينٍ آخر.

أمَّا الرَّحمة فهو دائمًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رحيمٌ ولأجل رحمته قامت هٰذه المخلوقات، فقيامُ هٰذه المخلوقات وظهور النِّعم فيها كلُّها من آثار رحمة الرَّبِّ جلَّ وعلا.

وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ آثارَ الرَّحمةِ دائمةٌ، وعلىٰ أنَّ آثارَ الغضَبِ غير دائمةٍ.

لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾[طه] فجعله حالًا،﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ يعني: ليس دائمًا وإنَّما يحلُّ في حينٍ دون آخر.

كما جاء في حديث الشَّفاعة المعروف قال: «إِنَّ رَبِّي غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبْ بَعْدُ مِثْلَهُ»(٣) فدلَّ علىٰ قيام الغضب به جلَّ وعلا بمشيئتِه واختياره وقُدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إذن هناك فرقٌ كبيرٌ بين صفة الرَّحمة وصفة الغضب لله جلَّ وعلا:

فالرَّحمة ذاتيَّةٌ والغضب اختياريٌّ.

والرَّحمة آثارها دائمةٌ والغضب آثاره ليست دائمةً.

والرَّحمة من آثارها ما يتقلَّبُ فيه الخلق من النِّعم الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، مصالح أمور دنياهم وآخرتهم كلُّها من آثار الرَّحمة. وأمَّا الغضب فآثاره عقوبةٌ لمن يستحقُّ ذلك، وهٰذا مغلوبٌ بالرَّحمة «إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي» أو «سَبَقَتْ غَضَبِي»(٤).

... علىٰ هٰذا المقصود سقف المخلوقات؛ يعني المخلوقات الكبيرة: الجنَّة، النار، الهواء، الكرسيُّ

(١) «صحيح البخاري» حديث رقم: (٣١٩٤)، ورواه مسلم حديث رقم: (٢٧٥١).

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» برقم (٧٤٠٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) رواه البخاري برقم (٣٣٤٠)، ومسلم برقم (١٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) رواه ابن ماجه في «سننه» برقم (١٨٩)، وأحمد في «المسند » (٧٥٢٨ -الرسالة).

إلىٰ آخره.

... هٰذا من التَّفسير بالتَّضمُّن، التَّفسير بالتَّضمُّن صحيحٌ عند السلف، يعني يذكر بعض أفراد المعنىٰ، هٰذا صحيحٌ ليس تأويلا؛ لأنَّ الرَّحمة منها الرِّقَّة ومعلومٌ أنَّ ما لم يُرَ عينه فتفسيره صعبٌ، ولهٰذا تجد أنَّ تفسير المعاني أصعب من تفسير الأعيان، الأعيان قد تحدُّها تقول: هٰذا مسجدٌ، تحدُّه بهٰذه الحدود تصفه تحدُّه يعني تصفه، هٰذا كتابٌ تعرفه، تقول مثلًا: جبلٌ أبيضُ، تعرِّفه فيقوم لأنَّه عينٌ.

أمَّا المعاني فيصعب تعريفها بما يدلُّ عليها، كذلك ما لم يُرَ من المخلوقات الَّتي تُحسُّها، يعني في الهواء، الهواء تُحسُّه ترىٰ حركته وترىٰ آثاره؛ لكن صعب أنَّك تحدُّه يعني تُعرِّفه تعريفًا جامعًا مانعًا له مع أنَّك تُحسُّه وتتنفَّسُه وترىٰ آثاره، فالصِّفات النَّفسيَّة في الإنسان صعبٌ تعريفُها.

تقول: الرَّحمة إيش هي بالضَّبط؟ تُقرِّب.

الرِّقَّة ما هي؟ تُقرِّب.

الرَّأفة ما هي؟ تُقرِّب، الرَّأفة ما هي؟ الرَّأفة تُقرِّب، فالرَّأفة من الرَّحمة ، والرِّقَّة من الرَّحمة؛ لكنَّ الإنعام شيءٌ آخر، لأنَّ الإنعام إعطاءٌ، الرَّحمة في الإنسان نفسيَّةٌ والرِّقَّة نفسيَّةٌ الرَّأفة نفسيَّةٌ وهكذا، الإنعام لا، الإنعام إعطاءٌ، هٰذا شيءٌ آخر.

... لا يقبل منه التَّضمُّن يُعتبر تأويل إلَّا إذا كانت متضمَّنةً؛ يعني لو جاء مُفسِّرٌ وفسَّر الرَّحمة بالرِّقَّة ولو كان مُؤوَّلًا، نقول: هٰذا صحيحٌ هٰذا تفسيرٌ بالتَّضمُّن، لكن مثلًا في قول الله جلَّ وعلا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح:١٠]، ابن كثيرٍ يقول: هٰذا تشديدٌ في أمر نكث البيعة بإلزامهم بكذا وكذا إلىٰ آخره ، ما ذكر إثبات صفة اليد.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾[الملك] قال: ﴿بِيَدِهِ﴾ يعني تحت قهره وتصرُّفه. فهنا إذا كان إثبات اليد ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤]، ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾[ص:٧٥]، وأشباه ذلك أوَّل فنعلم هنا أنَّه مُؤوِّلٌ؛ لكن إذا أُثبت هناك نقول هنا فسَّرها باللَّازم؛ لأنَّه يلزم من كون المُلك بيده سبحانه أن يكون تحت قهره وتحت تصرُّفه، هٰذا التَّفسير باللَّازم، التَّفسير بالتَّضمُّن وباللَّازم قد يُقبَل وقد لا يُقبَل، وهٰذه مسألةٌ كبيرةٌ في التَّفسير في مسائل الصِّفات، لأنَّ التَّفسير ثلاثة أنواع:

تفسيرٌ **بالمُطابقة** وهٰذا الَّذي ينحىٰ إليه السَّلف.

وتفسيرٌ **بالتَّضمُّن** وقد ينحون إليه.

وتفسيرٌ **باللَّازم** وهو قليلٌ.

[١١] وَلَهُمَا عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الخَلَائِقُ حَتَّىٰ تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ». (١)

[١٢] وَلِمُسْلِمٍ مَعْنَاهُ مِنْ حَدِيثِ سَلْمَانَ وَفِيهِ: «كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ» وَفِيهِ: «فَإِذَا كَانَ يَومُ القِيَامَةِ كَمَّلَهَا بِهٰذِهِ الرَّحْمَةِ». (٢)

هٰذا الحديث كسابقيه في إثبات صفة الرَّحمة لله جلَّ وعلا؛ ولكنَّ فيه مزيد فائدةٍ وهي:

بيان أنَّ الصِّفة لله جلَّ وعلا لها آثارُها في الخلق، فرحمتُه ﷻ جعل جزءًا منها له أثرٌ في الأرض فبها يتراحم العباد، فجزءٌ من أجزاء رحمةِ الرَّحمٰن جلَّ وعلا جعلَها في عباده، فكلُّ ما تراه من التَّراحم هٰذا من آثار اتِّصاف الرَّحمٰن بالرَّحمة.

ويدلُّ هٰذا أيضًا علىٰ أنَّ الرَّحمةَ -كما ذكرنا- هي الرَّحمة المعهودة؛ لأنَّه جعل رحمة الرَّحمٰن منها جزءٌ يتراحم به الخلق، فدلَّ علىٰ أنَّ رحمة الرَّحمٰن من جنس رحمة المخلوق للمخلوق؛ يعني أنَّها الرَّحمة المعهودة وإن اختلفت في قدْرِها وصفتها؛ لأنَّ الصِّفات تبعٌ للذَّات، فالمخلوق يناسبه من هٰذا الوصف ما يلائم ذاتَه، والرَّحمٰنُ جلَّ وعلا له من هٰذه الصِّفة ومن غيرها كمال ذلك وشمولُه وإطلاقه.

نقف عند هٰذا.

---

(١) «صحيح البخاري» حديث رقم: (٦٠٠٠)، و«صحيح مسلم» حديث رقم: (٢٧٥٢).

(٢) «صحيح مسلم» حديث رقم (٢٧٥٣).

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

الدَّرس الرَّابع

[١٣] وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ ﷺ: «إِنَّ الكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً فِي الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الآخِرَةِ ويُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ طَاعَتِهِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ. (١)

[١٤] وَلَهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَىٰ عَنِ العَبْدِ يَأْكُلُ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا». (٢)

[١٥] وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ للهِ تَعَالَىٰ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَىٰ الْفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَىٰ الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ. (٣)

قَوْلُهُ: (لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا) فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ. (٤)

[١٦] وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدُبٍ مَرْفُوعًا: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ! فَقَالَ اللهُ عز وجل: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّىٰ عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ». (٥)

[١٧] وَلَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ العُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنِطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ». (٦)

[١٨] وَلِلْبُخَارِيِّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلاة وَالسَّلام: «الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ». (٧)

[١٩] وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه مَرْفُوعًا: «إِنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ، قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ العَطَشِ، فَنَزَعَتْ لَهُ مُوقَهَا فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ». (٨)

[٢٠] وَقَالَ: «دَخَلَتِ النَّارَ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ» قَالَ الزُّهْرِيُّ: لِئَلَّا يَتَّكِلَ أَحَدٌ وَلَا يَيْأَسَ أَحَدٌ. أَخْرَجَاهُ. (٩)

---

(١) «صحيح مسلم» حديث رقم: (٢٨٠٨).

(٢) «صحيح مسلم» حديث رقم: (٢٧٣٤).

(٣) «جامع الترمذي» حديث رقم: (٢٣١٢).

(٤) «صحيح البخاري» حديث رقم: (٤٦٢١)، «صحيح مسلم» حديث رقم (٢٣٥٩).

(٥) «صحيح مسلم» حديث رقم: (٢٦٢١).

(٦) «صحيح البخاري» حديث رقم: (٦٤٦٩)، «صحيح مسلم» حديث رقم (٢٧٥٥).

(٧) «صحيح البخاري» حديث رقم (٦١٢٣).

(٨) رواه البخاري برقم: (٣٤٦٧)، ومسلم برقم (٢٢٤٥) واللفظ له.

(٩) «صحيح البخاري» حديث رقم (٣٣١٨)، و«صحيح مسلم» حديث رقم (٢٢٤٢).

[٢١] وَعَنْهُ مَرْفُوعًا: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَىٰ الْجَنَّةِ بِالسَّلَاسِلِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ.(١)

[٢٢] وَعَنْ أَبِي مُوسَىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَمَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَىٰ أَذًىٰ يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ، يَدْعُونَ لَهُ الْوَلَدَ ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.(٢)

هٰذه الأحاديث من «كتاب أصول الإيمان» للإمام الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ كما ذكرنا لك فيها ذكر صفات الله تعالىٰ وذِكرُ الجنَّة والنَّار، فسبق أن ذُكرت بعض الصِّفات في الأحاديث كالرَّحمة واليد وغير ذلك، وهٰذه الأحاديث الَّتي ذكرها فيها ذِكرُ القَدَر وذِكر صفةِ المغفرة وذكر الجنَّة والنَّار.

فالحديث الأوَّل حديث أنسٍ: (أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ ﷺ «إِنَّ الكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً فِي الدُّنْيَا») فيها إثبات كمال عدل الله جلَّ وعلا وأنَّه لا يُضيع إحسانَ محسنٍ وعملَ عاملٍ حتَّىٰ الكافر؛ ولكنْ ثوابه يكون عليه في الدُّنيا وذلك لكمال صفاته سبحانه وكمال عدله. «إِنَّ الكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً فِي الدُّنْيَا، وَأَمَّا المُؤْمِنُ فَإِنَّ اللهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ طَاعَتِهِ»، يعني أنَّ الله ﷻ يثيبه علىٰ حسناته في الآخرة ويمنُّ عليه ويبتدئه برزقٍ في الدُّنيا وإحسانٍ إلىٰ المؤمن.

فالمؤمن والكافر وجميع الخلق قائمون مع رحمة الله جلَّ وعلا؛ إذْ رحمته وسِعت كلَّ شيءٍ، لهٰذا ذكر هٰذا الحديث بعد حديث الرَّحمة؛ لأنَّ العدل مع الكافر في أنَّه يُثاب علىٰ حسنته في الدُّنيا هٰذا من الرَّحمة به، كذلك كونه يُثابُ المؤمن علىٰ حسناته في الآخرة ويعطىٰ علىٰ أنواع الطَّاعات في الدُّنيا رزقًا وسعةً وصحَّةً إلىٰ آخره ابتداءً من الله جلَّ وعلا ومِنَّةً فإنَّ هٰذا أيضًا من آثار سعة رحمة الله جلَّ وعلا.

ثمَّ قال: (وَلَهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَىٰ عَنِ العَبْدِ يَأْكُلُ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا») وهٰذا الحديث فيه ذكرٌ لأصلٍ من أصول الإيمان بالصِّفات ألا وهو **الإيمان بالصِّفات الاختياريَّة**؛ لأنَّ الرِّضىٰ والغضب وأشباه هاتين الصِّفتين من الصِّفات الاختياريَّة، من الصِّفات الفعليَّة الَّتي يتَّصفُ اللهُ جلَّ وعلا بها بمشيئته وقدرته إذا شاء كيف شاء.

والأولىٰ صفة الرَّحمة هٰذه صفةٌ ذاتيَّةٌ، فالله جلَّ وعلا لا ينفكُّ عنه اتِّصافه بالرَّحمة؛ بل هو سبحانه رحيمٌ في كلِّ حالٍ، ولو لم يكن رحيمًا في آنٍ من الأوان لهلك خلقه أجمعون.

ولهٰذا عقَّب الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ بذكر الصِّفات الاختياريَّة علىٰ الصِّفات الذَّاتية؛ لأنَّ الصِّفاتِ الذَّاتيَّةَ أعظمُ، والصِّفات الاختياريَّة يتَّصف الله بها سبحانه في حالٍ دون حالٍ بمشيئته وقدرته.

«إِنَّ اللهَ لَيَرْضَىٰ عَنِ العَبْدِ يَأْكُلُ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا» وهٰذا دليلٌ علىٰ أنَّ الرِّضىٰ يكون حين الأكل وحين الشُّرب إذا حمد العبد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذلك.

بخلاف قول الأشاعرة قول المبتدعة: إنَّ الرِّضىٰ قديمٌ فيقولون: رضىٰ الله عن عبده المؤمن قديمٌ

---

(١) «صحيح البخاري» حديث رقم (٣٠١٠)، و«مسند أحمد» حديث رقم (٨٠١٣-الرسالة).

(٢) «صحيح البخاري» حديث رقم: (٦٠٩٩).

رضي وانتهىٰ رضاه. فإذا كان كافرًا في أوَّل عمره ثمَّ كان مكتوبًا له أن يؤمن فإنَّه مرضيٌّ عنه حتَّىٰ في حال كفره، فالصَّحابة في حال كفرهم مرضيٌّ عنهم ولو في حال عبادتهم أو عبادة بعضهم للأوثان، والمؤمن الَّذي يَختِم حياته – نسأل الله العافية والسَّلامة – بردَّةٍ فإنَّه مغضوبٌ عليه حتَّىٰ حين كان يُصلِّي.

وهٰذا باطلٌ من القول؛ لأنَّه في أساسه ناشئٌ عن نفي الصِّفات الاختياريَّة، والله ﷻ بيَّن في كتابه أن صفته الاختياريَّة تحلُّ بعد أن لم تكن حالَّةً كما قال سبحانه: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾[طه]، فيحلُّ بعد أن لم يكن حالًّا، وكما جاء في حديث الشَّفاعة المعروف قال: «إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ»[1] فدلَّ علىٰ أنَّ الغضبَ يتفاوتُ من جهة الصِّفة يعني بعض الغضب أهون من بعضٍ، وأيضًا يتفاوتُ من جهة الزَّمن يغضب في حالٍ دون حالٍ فيتَّصف بذلك سبحانه كيف شاء.

ثمَّ ساق بعد ذلك حديث أبي ذرٍّ: (قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ للهِ تَعَالَىٰ») الحديث. فيه عظمة الحقِّ جلَّ وعلا وعبوديَّة الملائكة له سبحانه، وأنَّ السَّماءَ مملوءةٌ بعُبَّاد الله جلَّ جلَاله؛ مملوءةٌ بالملائكة الَّذين هم ما بين رُكَّعٍ وسجودٍ وقيامٍ لله الحقّ ﷻ.

والحديث الَّذي بعده قال: (وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدُبٍ مَرْفُوعًا: «قَالَ رَجُلٌ وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ! فَقَالَ اللهُ ﷻ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّىٰ عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ».) هٰذا الحديث معلومٌ شرحُه وبيانُه في «كتاب التَّوحيد»، ونُنبِّه فيه إلىٰ أنَّ قول القائل: «لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ» هٰذا له نظائر، هنا قال: «لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ» يعني أنَّه تحكَّم في صفة الله جلَّ وعلا؛ يعني أنه قال: هٰذه الصفة لا تكون لفلان، وهٰذا يكون عند النَّاس في حديثهم في صفاتٍ أُخر. ومن أصول الإيمان عند أهل السُّنَّة توقيرُ الله جلَّ وعلا وتعظيمه والإنابة إليه والاستكانة له وعدم التَّألِّي عليه والقول عليه بلا علمٍ.

فمثلًا يقول النَّاس في ألفاظهم: (هٰذا ما يستاهل)، أو (حرامٌ أنَّ فلانًا يصيبه كذا)، أو (مثل هٰذا لا يُعاقب)، أو (هٰذا تنزل عليه العقوبة).. وأشباه هٰذه الألفاظ الَّتي فيها تحكُّمٌ في صفاتِ الله جلَّ وعلا.

فأيُّ صفةٍ أردتَ الكلام عليها فاستحضر الاضطراب والخوف من الله جلَّ وعلا، لا تتحكَّم في صفات الله جلَّ وعلا، تخبر عنها بشيءٍ ليس لك، مثل (هٰذا يعاقبه الله)، (هٰذا ستحلُّ عليه عقوبةٌ من الله جلَّ وعلا)، (أكيد ستأتيه العقوبة)، وأشباه ذلك ممَّا يستعمله الخاصَّة والعامَّة في ألفاظهم، وهٰذا ممَّا لا يجوز أن يستعمله النَّاس؛ بل يذكرون ما دلَّت عليه الأدلَّة من الرَّجاء للمُحسن والخوف علىٰ المُسيء، نخشىٰ أن تكون عقوبةٌ، نخشىٰ أن يحلّ علينا كذا، وأشباه هٰذه العبارات الَّتي فيها تعظيم أمر الله وتعظيم صفاته سبحانه.

قال: (وَلَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ

---

(١) سبق تخريجه (ص ١٥).

يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنِطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ».) هٰذا فيه ذكر صفتي العذاب والرَّحمة، وهما صفتان متقابلتان، وعذابه ﷻ لمن عصاه أو من كفر أو من نافق هٰذا لو اطَّلع عليه لوجد أنَّ الجنَّة لا يطمع فيها طامعٌ كمال قال ﷻ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾[غافر]، ولكنَّ رحمة الله سبقت غضبه، ولهٰذا في هٰذه الآية ذكر ثلاث صفاتٍ من صفات الرَّحمة وذكر صفة عقابٍ واحدةً؛ لأنَّ رحمته سبحانه غلبت عضبه:

فقال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ وهٰذه من فروع الرَّحمة.

ثم قال: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ وهٰذه عقوبته سبحانه.

ثمَّ ذكر فرعًا ثالثًا من فروع الرَّحمة، وهو قوله: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ يعني: ذي الإنعام والفضل والإحسان علىٰ خلقه أجمعين.

وهٰذا الحديث في معنىٰ ما ذكرنا.

قال: (وَلِلْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ») وإيراده لهٰذا الحديث في أصل الإيمان باليوم الآخر، والإيمان باليوم الآخر الَّذي هو أحد أركان الإيمان السِّتَّة إيمانٌ بالجنَّة والنَّار.

وحديث المرأة البغيِّ وحديث المرأة الَّتي دخلت النَّار بسبب هرَّةٍ هو في هٰذا المعنىٰ.

... فالمؤمن ما بين خوفٍ ورجاءٍ يعمل الأعمال الكثيرة من الخير ويعمل أعمالًا من السُّوء، فإذا هو غلَّب جانب الرَّجاء رأىٰ الخير فيه طاغٍ فقال: سيُغفر لي، فنبَّه عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّ امرأةً دخلت النَّار في هرَّةٍ بسبب أنَّها حبَسَتْها لا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض، لماذا تحبس الهرَّة؟ والهرَّة مثلها لا يُحبس، فماتت وهٰذا تعدِّي عليها بهٰذا السَّبب، فهٰذا يجعلُ المؤمنَ خائفًا (لئلَّا يتَّكل أحدٌ) علىٰ عمله الصَّالح ولئلَّا (ييأس أحدٌ) من المغفرة إذا أناب وأتاب، وتفسير الزُّهريِّ واضحٌ في هٰذا.

نكتفي بهٰذا القدْر.

الدَّرس الْخامس

[٢٣] وَلَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَىٰ: يَا جِبْرِيلُ! إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ؛ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَيُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الْأَرْضِ». (١)

[٢٤] وَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ نَظَرَ إِلَىٰ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هٰذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَىٰ صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه:١٣٠]. رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ. (٢)

الحديث الأوَّل فيه إثبات صفة المحبَّة لله جلَّ وعلا، لأنَّ هٰذا الكتاب – «كتاب أصول الإيمان» لإمام الدَّعوة رَحِمَهُ اللهُ– ذكر في أوَّله الإيمان بالله؛ صفات الرُّبوبيَّة والألوهيَّة والآن في الأسماء والصِّفات، فهنا ذكر صفة المحبَّة لله جلَّ وعلا: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَىٰ: يَا جِبْرِيلُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ؛ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ؛ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الْأَرْضِ».

ومحبَّة الله جلَّ وعلا لعبده صفةٌ اختياريَّةٌ متعلِّقةٌ بالحال عند أهل السُّنَّة ليست متعلِّقةً بالمآل.

وأهل السُّنَّة في صفة المحبَّة وصفة الرِّضىٰ وأشباه ذلك يعلِّقونها بالحال؛ يعني أنَّ الله يحبُّ من كان علىٰ الإيمان ولو كان سيؤول أمره إلىٰ غيره؛ لأنَّه وهو موحِّدٌ مؤمنٌ قام بقلبه إخلاص العبادة لله وتوجَّه إلىٰ الله فاستحقَّ علىٰ ذلك المحبَّةَ، ومحبَّةُ الله في حالها مقتضيةٌ آثارَها علىٰ العبد.

والمبتدعة يجعلون المحبَّة واحدةً أزليَّةً غير متغيِّرةً، فيقولون: إنَّ الله يحبُّ من علم موتَه علىٰ الإيمان ولو في حالِ كفره.

فعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في حال الجاهليَّة في حال كفره كان محبوبًا لله جلَّ وعلا وفي حال إيمانه محبوبًا لله جلَّ وعلا لأنَّه سبحانه علم أنَّه سيموت علىٰ الإيمان فأحبَّه من حين خرج من بطن أمِّه، وقولهم؛ لأنَّه ليس عندهم صفاتٌ اختياريَّةٌ ولا صفاتٌ تقوم بالرَّبِّ جلَّ وعلا بمشيئته واختياره سبحانه لانتفاء تنزيهٍ عندهم للقول بتجدُّد الصِّفات أو ما يسمُّونه بحلول الحوادث لله جلَّ وعلا.

فإثبات صفة المحبَّة لله جلَّ وعلا علىٰ ما يليق به سبحانه حقٌّ كما نطَقت بذلك النُّصوص، والمحبَّة معلومةَ المعنىٰ كما يليق بجلَاله وعظمته ويرضىٰ ويغضب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنَّ ذلك متعلِّقٌ بالحال ليس متعلِّقًا بالمآل عند أهل السُّنَّة، فيرضىٰ عن العبد في حال إيمانه ويحبُّ العبد في حال إيمانه، ويغضب عليه في حال كفره قبل إيمانه ويُبغِضه ولا يحبُّه في حال كفره قبل إيمانه أو لو ارتدَّ، فيجتمع في حقِّه أنَّه أُحبَّ في

(١) «صحيح البخاري» حديث رقم: (٧٤٨٥).

(٢) «صحيح البخاري» حديث رقم (٥٥٤)، و«صحيح مسلم» حديث رقم (٦٣٢).

حالٍ وأُبغض في حالٍ.

حتَّىٰ المؤمن الواحد يحبُّه الله ﷻ، إذا أحسن العمل ويُبغضه إذا أساء العمل، فإذا اجتمع في المؤمن إيمانٌ وفسقٌ يكون مؤمنًا بإيمانه فاسقًا بكبيرته، فيُحَبُّ علىٰ الإيمان ويُبغض علىٰ الفسق، يعني: أنَّ المحبَّة والبغض تتبعَّض ويكون في حالٍ دون حالٍ. وهٰذا هو مذهب أهل السُّنَّة والجماعة خلافًا لأهل الكلام والبدع الَّذين يقولون: إنَّ المحبَّة واحدةٌ. حتَّىٰ المؤمن في حال كفره قبل الإيمان محبوبٌ، وإذا آمن وعاشر كبيرةً فهو في حال معاشرته الكبيرة محبوبٌ إلىٰ آخر ذلك ممَّا لا يليق أن يُنسب أو يضاف إلىٰ الرَّبِّ جلَّ جلَاله.

وحديث «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ» هٰذا مرَّ معنا مرارًا «كَمَا تَرَوْنَ هَٰذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ» فمرَّ معنا تقريره؛ وأنَّ فيه إثبات الرُّؤية لله جلَّ وعلا يعني فيه إثبات رؤية المؤمنين لربِّهم جلَّ وعلا.

والرُّؤية تكون في العرصات وتكون في الجنَّة، في العرصات عامَّةٌ أوَّلًا للجميع، ثمَّ يُحجب عنها أهل النِّفاق يعني: من هٰذه الأمَّة، وأمَّا الكفَّار فهم لا يرون ربَّهم أصلًا لأنَّهم محجوبون عن الله كما قال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾[المطفِّفين]،(١) وأمَّا هٰذه الأمَّة المؤمنون منهم والمنافقون الرِّجال والنِّساء فإنَّهم يرون الله ﷻ ثمَّ يُحجب عنها أهلُ النِّفاق وتبقىٰ رؤية أهل الإيمان، ثمَّ تكون الرُّؤية الَّتي هي محلُّ اللَّذة والنَّعيم في جنَّة الخُلد.

... لأنَّها صفةٌ اختياريَّةٌ؛ لأنَّها صفةٌ اختياريَّةٌ سليمٌ، هنا قال: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ» يعني أنَّه يكون قبل ذلك لم يحبَّه « إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَىٰ »، ويدُّل علىٰ أنَّه ليس كلُّ مؤمنٍ له هٰذا الفضل؛ لأنَّه يحبُّه الله وينادي في السَّماء جبريل أن أحبَّه ويحبُّه أهل السَّماء ويوضع له القبول في الأرض، فهٰذا يدلُّ أنَّ المحبَّة متفاضلةٌ وعلىٰ أنَّ المحبَّة صفةٌ اختياريَّةٌ تقوم بالله بمشيئته سبحانه وقدرته، وأنَّه يحبُّ في حالٍ دون حالٍ كلُّ هٰذا واضحٌ من قوله: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ».

.... «يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الْأَرْضِ» يعني: يقبله أهل الإيمان ويحبُّونه ويميِّزونه علىٰ غيره ويتولَّونه، مثل ما حصل للصَّحابة رضوان الله عليهم فأهل الإيمان يحبُّونهم، ومثل سادات التَّابعين، ومثل الإمام أحمد والإمام الشَّافعيِّ ومالكٍ فهؤلاء متَّفقٌ عليهم.

يحبُّه أيضًا ويوضع له القبول يعني تُقبل محبَّته، وموالاته ونصرته، هٰذه مرتبةٌ عظيمةٌ لمن تحصل له.

(١) أما رؤية حساب وتقرير وتعريف فهي ثابتة للكفار، انظر تفصيل ذلك «شرح الطحاوية» للشيخ صالح آل الشيخ، ومذاهب أهل السنة في ذلك.

[٢٥] وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قَالَ: مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ عَبْدِي إِلَيَّ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.(١)

هٰذا الحديث أيضًا فيه إثبات صفة المحبَّة لله جلَّ وعلا «وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ» يعني: يُسَدَّد في سمعه، «وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ» يعني: يُسدَّد في بصره، «وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا» يعني: يُسدَّد في يده فلا يحصل منه بهٰذه الجوارح إلَّا ما يحبُّ الله جلَّ وعلا، فيُوَفَّق ويُعان فيها علىٰ فعل الخير وعلىٰ ترك الشَّرِّ من جهة سمعه وبصره ويده ورجله.

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام في آخر الحديث القدسيِّ: قال الله جلَّ جلَاله: «وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ» قوله: «تَرَدَّدْتُ» فيها ذكر التردُّد مضافًا إلىٰ الله جلَّ وعلا، وهل هو صفةٌ لله أم لا؟!

بعض أهل السُّنَّة لا يضيف التَّردُّد إلىٰ الله جلَّ وعلا صفةً؛ لأنَّه منقسمٌ إلىٰ محمودٍ ومذمومٍ، وإطلاق الوصف فيما ينقسم إلىٰ محمودٍ ومذمومٍ الأصل خلافه ولأنَّ الأصل ألَّا يضاف إلىٰ الله جلَّ وعلا إلَّا ما هو محمودٌ، والتَّردُّد قد يكون عن نقص علمٍ والله جلَّ وعلا مُنزَّهٌ عن ذلك.

ولهٰذا ذهب من ذهب من أهل العلم إلىٰ عدم إثبات صفة التَّردُّد إلىٰ الله جلَّ وعلا؛ لأنَّهم جعلوا منشأ التَّردُّد عن عدم علمٍ أو عن جهلٍ أو عن عدم قدرةٍ أو عن عدم قوَّةٍ علىٰ إنفاذ الشَّيء وأشباه ذلك= فمنعوا وصف الله جلَّ وعلا بالتَّردُّد.

والقول الثَّاني عند أهل السُّنَّة أنَّ التَّردُّد صفةٌ من صفات الله جلَّ وعلا وأنَّ تردُّده ﷻ بحقٍّ، وأنَّ حقيقة التَّردُّد ليس معناها أنَّها النَّشأة عن جهلٍ أو عن عدم قوَّةٍ أو قدرةٍ كما قاله الأوَّلون، بل حقيقة التَّردُّد أنَّه: تردُّد الإرادة في أيِّ الأمرين أصلح للعبد أو في أيِّ الأمرين أوفق للحكمة أو نحو ذلك أو تردُّد الإرادة في المصلحة المُقتضية لذلك.

وتردُّد الإرادة ليس ناشئًا عن الجهل وعدم العلم أو نحو ذلك فهٰذا مُنزَّهٌ عنه الرَّبُّ جلَّ وعلا وإنَّما هو ناشئٌ عن محبة الله لاختيار الأصلح لعبده، فلهٰذا وقع التَّردُّد بين الصَّالح والأصلح يعني: في الاختيار.

وإذا كان كذلك فإنَّ التَّردُّد علىٰ هٰذا يكون كمالًا؛ لأنَّه لم ينشأ عن جهلٍ ولا عن عدم قدرةٍ أو قوَّةٍ وإنَّما هو راجعٌ إلىٰ الحكمة ومقتضىٰ قدر الله وحكمة الله سبحانه.

---

(١) «صحيح البخاري» حديث رقم: (٦٥٠٢). وليس فيه: « وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ ».

وهٰذا الثَّاني هو قول شيخ الإسلام ابن تيميَّة[1] وعزاه إلىٰ السَّلف وإلىٰ مذهب سلف هٰذه الأمَّة.

الصِّفة الثَّالثة في الحديث الكراهة قال: «يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ» ووصف الله بأنَّه يكره جاء في القرآن والسُّنَّة في أحاديث كثيرةٍ مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٤٦﴾[التَّوبة]، فكُره الله جلَّ وعلا هٰذا يتعلَّق بالأعيان -أي الذَّوات- وبالصِّفات وهو صفةٌ اختياريَّةٌ، وهو هنا في الحديث يتعلَّق بالمساءة «وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ ذَلِكَ».

نكتفي بهٰذا، وهٰذا الدَّرس هو آخر الدُّروس فيما قبل الحجِّ، وإن شاء الله نكمل بعد الحجِّ يوم السَّبت عندنا.

أسأل الله لي ولكم حسن الختام والعمل الصَّالح، وأن يغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا، وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ نبيِّنا محمَّدٍ.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «التحفة العراقية» (ص٦٤): فَبيَّن أَنه يتَرَدَّد لِأَن التَّرَدُّد تعَارض إرادتين، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يحبُّ مَا يحب عَبده وَيكرهُ مَا يكرههُ، وَهُوَ يكره الْمَوْت فَهُوَ يكرههُ كَمَا قَالَ: «وَأَنا أكره مساءته» وَهُوَ سُبْحَانَهُ قد قضىٰ بِالْمَوْتِ فَهُوَ يُرِيد أَن يَمُوت، فَسمىٰ ذَلِك ترددا، ثمَّ بَين أَنه لَا بُد من وُقُوع ذَلِك.

الدرس السادس

[٢٦] وَعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. (١)

هٰذا الحديث فيه إثباتُ عددٍ من صفات الرَّبِّ جلَّ وعلا وأظهرها صفة النُّزول له جلَّ وعلا، والنُّزول لله جلَّ وعلا نقول فيه ما نقول في الاستواء: النُّزول معلومٌ أو غير مجهولٍ والكيف غير معقولٍ والسُّؤال عنه بدعةٌ، والإيمان به واجبٌ.

ونزول الرَّبِّ جلَّ وعلا إلىٰ سماء الدُّنيا جاء في بعض الرِّوايات أنَّه: «**فِي نِصْفِ اللَّيْلِ الآخِرِ**»، وجاء في بعضها: «**فِي ثُلُثِ اللَّيْلِ الآخِرِ**» - كما في الرِّواية الَّتي ساقها الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ - وجاء في بعض الرِّوايات: «**آخِرَ كُلِّ لَيْلَةٍ**» بلا ثلثٍ ولا نصفٍ.

وأهلُ العلم منهم من حمل هٰذا علىٰ الفضل والأفضل أو أنَّ الثُّلث الأخير آكد، وأنَّ النُّزول يبدأ في نصف اللَّيل الآخر.

ومنهم من حملها علىٰ أنَّ حساب نصف اللَّيل غير حساب ثلث اللَّيل الآخر، فإذا قيل: نصف اللَّيل فهو حساب ما بين غروب الشَّمس إلىٰ طلوع الفجر الثَّاني مقسومًا علىٰ اثنين، تضيفه علىٰ ساعة الغروب يعطيك ابتداء نصف اللَّيل.

وأمَّا ثلث اللَّيل الآخر: فيكون ما بين الغروب إلىٰ الإشراق والوقت مأخوذٌ الثُّلث الآخر منه، والوقت علىٰ هذين متقاربٌ، وشيخ الإسلام لمَّا قال هٰذا، قال: وهٰذا القول وجيهٌ. يعني أنَّ حساب نصف اللَّيل يكون غير حساب ثلث اللَّيل. (٢)

وعلىٰ العموم نقول: إنَّ الرِّوايات متَّفقةٌ في أنَّ النُّزول يكون في ثلث اللَّيل الآخر وهو الأكثر روايةً والأثبت - كما ساق الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ هنا - أو في نصف اللَّيل الآخر علىٰ اعتبارٍ. (٣)

النُّزول في صفة الله جلَّ وعلا لا نخوض فيه بأكثر ممَّا جاء فيه النَّصُّ، فمن خاض فيه بذكر مسائل مثل

---

(١) «صحيح البخاري» حديث رقم (١١٤٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٧٥٨).

(٢) قال شيخ الإسلام في «شرح حديث النزول» (ص١٠٨): فإن كان النبي ﷺ قد ذكر النزول أيضًا إذا مضىٰ ثلث الليل الأول وإذا انتصف الليل؛ فقوله حق وهو الصادق المصدوق، ويكون النزول أنواعًا ثلاثة: الأول إذا مضىٰ ثلث الليل الأول، ثم إذا انتصف وهو أبلغ، ثم إذا بقي ثلث الليل، وهو أبلغ الأنواع الثلاثة.

(٣) قال شيخ الإسلام في «شرح حديث النزول» (ص١٠٧): والنزول المذكور في الحديث النبوي علىٰ قائله أفضل الصلاة والسلام الذي اتفق عليه الشيخان: البخاري ومسلم، واتفق علماء الحديث علىٰ صحته= هو «إذا بقي ثلث الليل الآخر»، وأما رواية (النصف والثلثين) فانفرد بها مسلم في بعض طرقه، وقد قال الترمذي: إن أصح الروايات عن أبي هريرة: «إذا بقي ثلث الليل الآخر». وقد روي عن النبي ﷺ من رواية جماعة كثيرة من الصحابة كما ذكرنا قبل هذا؛ فهو حديث متواتر عند أهل العلم بالحديث، والذي لا شك فيه «إذا بقي ثلث الليل الآخر».

قولهم: هل يخلو منه العرش أو لا يخلو منه العرش؟ وهل إذا نزل إلىٰ سماء الدُّنيا يخلو منه ما فوق السَّماء السَّابعة؟ وأشباه ذلك كلُّ هٰذه مباحث باطلةٌ لأنَّها مبنيَّةٌ علىٰ تشبيه النُّزول بنزول المخلوق، فالله جلَّ وعلا لا نعلم كيفيَّة اتِّصافه بصفاته، فهو سبحانه أجلّ وأعظم من أن نعلم بكيفية اتِّصافه بصفاته.

فإذن إثبات صفة النُّزول إثبات صفةٍ لا إثبات كيفيَّةٍ ولا نخوض بأكثر من ذلك، الأحاديث في النُّزول قريبةٌ من التَّواتر من كثرتها.

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام هنا: «يَنزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ» مرتبة الدَّعوة أوَّلًا لأنَّها أعمُّ، والسُّؤال بعدها لأنَّه أخصُّ، والاستغفار الأخير لأنَّه خاصُّ الأخصِّ.

لأنَّ الدَّاعي قد يكون عابدًا وقد يكون سائلًا، وإجابة الدَّاعي قد تكون إثابة الدَّاعي بالثَّواب أو قد تكون إعطاء السَّائل، لذلك لمَّا بدأ بالعامِّ قال: « مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ » يدخل في ذلك أهل الصَّلاة وأهل تلاوة القرآن وأهل الذِّكر في آخر اللَّيل فيعطيهم ربُّ العالمين أجرهم بغير حسابٍ.

ثمَّ السُّؤال « مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ » يعني من يسأل مسألةً خاصَّةً وهي بعض الدُّعاء.

ثمَّ قال: « مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي » السُّؤال قد يكون سؤال دنيا أو سؤال استغفارٍ يعني عامٌّ ثمَّ خصَّه بالاستغفار في آخرها.

وهٰذا فيه -كما ذكرت لك-: إثبات صفة الكلام لله جلَّ وعلا، وفيه: إثبات صفة المغفرة له سبحانه والإجابة والإعطاء، وهٰذا فيه الرَّدُّ علىٰ من أبطل فائدة الدُّعاء وفائدة السُّؤال وفائدة الاستغفار وفائدة العبادة في التَّأثير علىٰ القدَر، كما هو قول طائفةٍ من الصُّوفيَّة في زعمهم أنَّ الأمور مُقدَّرةٌ ولا حاجةَ للدُّعاءِ لتحصيلها، وهٰذا باطلٌ بل الأمور مقرونةٌ في القدر وفي الكتاب السَّابق بأسبابها والدُّعاء والسُّؤال من جملة تلك الأسباب.

[٢٧] وَعَنْ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ إِلَّا رَدَاءُ الكِبْرِيَاءِ عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ». رَوَاهُ البُخَارِيُّ.[1]

قوله عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام هنا: (جَنَّتَانِ....وَجَنَّتَانِ...) هٰذا كالتَّفسير لقول الله جلَّ وعلا: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾[الرَّحمٰن]. ثمَّ قال بعدها: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ [الرَّحمٰن] فهٰذا تفسيرٌ للجنَّتين والجنَّتين. وفيه إثبات صفة الكبرياء لله جلَّ وعلا.

والرِّداء والإزار الَّذي جاء في الحديث الَّذي رواه مسلمٌ: «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالعِزَّةُ إِزَارِي مَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ**»[2] الرِّداء والإزار: ما يكون ملابسًا للموصوف لا ينفكُّ عنه ويَحجب صفتَه عن الرَّائي.

فالإزار بالنِّسبة للإنسان يحجب الصِّفة يعني بعض الصِّفات الَّتي فيه صفة رجليه وصفة ساقه وصفة حقويه إلىٰ آخر ذلك وسَوءته، والرِّداء أيضًا يحجب بعض الصِّفات.

فلا يتصوَّر من مجيء الرِّداء والإزار لوازم ذلك من أنَّ الإزار لا يكون إلَّا علىٰ حقوين وعلىٰ جَنْبٍ، وأنَّ الرِّداء كذلك لا يكون إلَّا علىٰ منكبين كما التزمه طائفةٌ من غلاة الحنابلة فأثبتوا عددًا من الصِّفات بمثل هٰذه اللَّوازم، هٰذا باطلٌ حتَّىٰ من جهة اللُّغة.

فالإزار والرِّداء هٰذان اسمان لما يَحجب رؤية الرَّائي إلىٰ صفات المرئيِّ، لهٰذا هنا قال: «وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ إِلَّا رَدَاءُ الكِبْرِيَاءِ» فدلَّ علىٰ أنَّ الكبرياء هي الرِّداء، فالَّذي حجب رؤية الرَّائين إلىٰ صفة الرَّبِّ جلَّ وعلا إلىٰ وجهه الكريم هو الرِّداء، وكذلك العزَّة حجبت أن يُرىٰ صفة الرَّبِّ جلَّ وعلا.

المقصود من ذلك أنَّ هٰذا معنىٰ قوله (الرِّداء) هنا وكذلك قوله (**الرِّدَاءُ وَالإِزَارُ**) في غيرها، وهٰذا موطنٌ تحتاجه لأنَّ كثيرًا من الشُّرَّاح لم يحسن هٰذا المقام.

... المقصود: في الجنَّة، لأنَّهم لا يرون ربَّهم في الجنَّة دائمًا، لأنَّهم يرونه بعض الوقت، ما يرونه دائمًا، يرون ربَّهم جلَّ وعلا بكرةً وعشيًّا ﷻ، أيَّام الأعياد أعياد الجنَّة إلىٰ آخر ذلك.

(١) «صحيح البخاري» حديث رقم (٤٨٧٨).

(٢) «صحيح مسلم» حديث رقم (٢٦٢٠) من حديث أبي هريرة وغيره.

٢- بَابٌ

[١] **قَوْلُ اللهِ تَعَالَى:** ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾[سبأ]

[٢] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الأَنْصَارِ أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ فَقَالَ: «مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا؟» قَالُوا: كُنَّا نَقُولُ وُلِدَ اللَّيْلَةَ عَظِيمٌ أَوْ مَاتَ عَظِيمٌ، فَقَالَ: «إِنَّهَا لَمْ تُرْمَ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ رَبَّنَا ﷻ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا سَبَّحَتْ حَمَلَةُ الْعَرْشِ حَتَّىٰ يُسَبِّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّىٰ يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ، فَيَسْتَخْبِرُ أَهْلُ السَّمَوَاتِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّىٰ يَبْلُغَ الخَبَرُ أَهْلَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَتَخْطَفُ الجِنُّ السَّمْعَ فَيُلْقُونَهُ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَهُوَ الْحَقُّ وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ وَيَزِيدُونَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ.(١)

[٣] وَعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ أَخَذَتِ السَّمٰوٰتُ مِنْهُ رَجْفَةٌ -أَوْ قَالَ: رِعْدَةٌ شَدِيدَةٌ- خَوْفًا مِنَ اللهِ ﷻ فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ صَعِقُوا -أَوْ قَالَ: خَرُّوا للهِ سُجَّدًا- فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلام فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرَائِيلُ عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ قَالَ لَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرَائِيلُ؟ فَيَقُولُ: قَالَ الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرَائِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ ﷻ» رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ خُزَيْمَةَ وَالطَّبَرَانِيُّ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَاللَّفْظُ لَهُ.(٢)

هٰذان الحديثان في بابٍ واحدٍ هما دالَّان علىٰ إثبات عددٍ من صفات الرَّبِّ جلَّ وعلا ومن نعته الحسن ﷻ.

فمنها: صفة العلوِّ لله جلَّ وعلا.

ومنها: صفة الكلام له جلَّ وعلا.

ومرَّ معكم تفصيل الكلام علىٰ الحديث الأوَّل في «شرح كتاب التَّوحيد».

والمقصود من إيراده من الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ أنَّ ذلك من الإيمان إيمانٌ بالله بعلوِّه بصفاته بكلامه جلَّ وعلا، كذلك فيه الإيمان بالملائكة، وهٰذا كلُّه من أصول الإيمان.

بقي الكلام علىٰ مسألةٍ فيه وهي من المسائل المهمَّة: وهي أنَّ صفة كلام الرَّبِّ جلَّ وعلا -في ظاهر الحديث الَّذي سمعتم- قال فيها: «إِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ أَخَذَتِ السَّمٰوٰتُ مِنْهُ رَجْفَةٌ -أَوْ قَالَ: رِعْدَةٌ شَدِيدَةٌ- خَوْفًا مِنَ اللهِ ﷻ فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ صَعِقُوا» هٰذا مرَّ معكم أنَّ سماع

---

(١) «صحيح مسلم» حديث رقم (٢٢٢٩)، و«جامع الترمذي» حديث رقم (٣٢٢٤)، و«السنن الكبرىٰ» للنسائي حديث رقم (١١٢٠٨).

(٢) «التوحيد» لابن خزيمة، حديث رقم (٢٠٦)، و«تفسير ابن جرير» (٢/ ٦٣)، وضعفه الألباني في «السنة» لابن أبي عاصم حديث رقم: (٥١٥).

الملائكة للصَّوت وُصِف بأنَّه كجرِّ السِّلسلة علىٰ الصَّفْوان -يعني علىٰ الصَّخر-، وهٰذا جعله بعض النَّاس صفةً للكلام، وظاهر الحديث كما هو دالٌّ عليه الحديث هٰذا أيضًا أنَّه وصفٌ للسَّماع لا وصفٌ للكلام،[1] فكلام الله جلَّ وعلا ثابتٌ في الصِّفة - كما هو معلومٌ - ولكنَّ صفة كلامه جلَّ وعلا لم يثبت فيها شيءٌ من جهة التَّفصيل إلَّا ما جاء في الصَّحيح أَنَّهُ جلَّ وَعَلَا : «**يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ، فَيَنْفُذُهُمْ كَلَامُهُ** ﷻ». [2]

وهٰذا الحديث حديث النَّوَّاس قال فيه: «إِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ أَخَذَتِ السَّمٰوَاتُ مِنْهُ رِجْفَةٌ -أَوْ قَالَ: رِعْدَةٌ شَدِيدَةٌ- خَوْفًا مِنَ اللهِ ﷻ فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ صَعِقُوا» يعني: أنَّ السَّمٰوات تأخذها الرَّعدة أو الخوف من كلام الله جلَّ وعلا.

قصدي من ذلك أنَّ صفة الكلام غلا فيها طائفةٌ من المنتسبين للإمام أحمد ولغيره من أهل السُّنَّة فجعلوا صفة كلام الله جلَّ وعلا بما في هٰذه الأحاديث الَّتي فيها تكلُّم الله جلَّ وعلا بالوحي وأنَّ صفة كلامه كجرِّ السِّلسلة أو أنَّ كلامَه كما جاء في رواياتٍ أخرىٰ لا تحضرني الآن مثل ما ذكرها أبو يعلىٰ في «إبطال التَّأويلات» وغيره، فهٰذا ينبغي أن يُترك لا يقال به، وإنَّما يُؤخذ بما دلَّ عليه النَّصُّ الَّذي لا يحتمل التَّأويل؛ لأنَّ صفة الكلام الواردة في الأحاديث إنَّما هي كما ذكرنا محتملةٌ لأنْ تكون صفةً للسَّماع؛ يعني لما سُمِع لهٰذا جاء هنا: «أَخَذَتِ السَّمٰوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةٌ -أَوْ قَالَ: رِعْدَةٌ شَدِيدَةٌ-» السَّموات إذا رعدت سيسمع إذا سمع أهل السَّموات ذلك صعقوا، فيسمعها جبريل فيقول: ماذا قال ربُّكم؟ قال: الحقَّ؛ يعني: أنَّ هٰذا محتملٌ أن يكون بعد إرادة الكلام، أو أنَّه وصْفٌ لما سُمِع من حال السَّمٰوات أو ما سُمِع من ذلك، أمَّا وصف كلام الله جلَّ وعلا فهٰذا لا يُقال فيه بشيءٍ إلَّا ما ثبت في الحديث: «**أَنَّهُ يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ**».

علىٰ كلِّ حالٍ هٰذه كلمةٌ تحتاج إلىٰ مزيد تحريرٍ وتفصيلٍ ربَّما نذكرُها لكم مرَّةً أخرىٰ إن شاء الله.

---

(١) كما في حديث «سترون ربكم كما ترون البدر ليلة التمام» فقوله: (كما) تشبيه للرؤية بالرؤية وليس تشبيها للمرئي بالمرئي. انظر «شرح الواسطية» للشيخ صالح آل الشيخ.

(٢) «مسند أحمد» (تحقيق أحمد شاكر وحمزة الزين) (ح١٥٩٨٤). والبخاري في «الأدب المفرد». استشهد به البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[سبإ:٢٣].

٣- بَابٌ

[١] **قَوْلُ اللهِ تَعَالَى:** ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّمَر]

[٢] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «يَقْبِضُ اللهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ. (١)

[٣] وَلَهُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَقْبِضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَرَاضِينَ، وَتَكُونُ السَّمَوَاتُ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ». (٢)

[٤] وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمِنْبَرِ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّمَر]، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ هَكَذَا بِيَدِهِ يُحَرِّكُهَا وَيُقْبِلُ بِهَا وَيُدْبِرُ يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ: أَنَا الْجَبَّارُ أَنَا الْمُتَكَبِّرُ أَنَا الْعَزِيزُ أَنَا الْكَرِيمُ. فَرَجَفَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ الْمِنْبَرُ حَتَّى قُلْنَا لَيَخِرَّنَّ بِهِ. رَوَاهُ أَحْمَدُ. (٣)

[٥] وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مِقْسَمٍ أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا كَيْفَ يَحْكِي عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «يَأْخُذُ اللهُ سَمَاوَاتِهِ وَأَرَاضِيهِ بِيَدِهِ فَيَقْبِضُهُمَا، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ» حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ إِلَى أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ حَتَّى إِنِّي أَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ. (٤)

هٰذا الباب (**باب قوله تعالى:** ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾) معناه أيضًا ذكره الإمام رحمه الله في آخر «كتاب التَّوحيد».

ومناسبة هٰذا الباب لـ«كتاب أصول الإيمان» أنَّ الإيمان بالله الَّذي هو أعظم أركان الإيمان -كما هو معلومٌ أركان الإيمان ستَّةٌ: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشرِّه من الله تعالىٰ.

والإيمان بالله يشمل ثلاثة أنواعٍ: الإيمان بالله ربًّا، والإيمان بالله إلٰهًا، والإيمان بأسماء الله وصفاته وأفعاله؛ يعني أنَّ الإيمان بالله يشمل أنواع التَّوحيد الثَّلاثة، فلا يكون المرء مؤمنًا بالله حقَّ الإيمان حتَّىٰ يوحِّد اللهَ في الإلهيَّة وفي الرُّبوبيَّة وفي الأسماء والصِّفات.

هٰذا الباب في توحيد الرُّبوبيَّة، وفيه أيضًا ذكر بعض صفات الله جلَّ وعلا وبعض أسماء الله جلَّ وعلا.

قوله جلَّ وعلا: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ هٰذه من الآيات العظيمة الَّتي تكرَّرت في غير موضعٍ من

---

(١) «صحيح البخاري» حديث رقم: (٧٣٨٢)، ورواه مسلم في «صحيحه» برقم: (٢٧٨٧).

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» برقم: (٧٤١٢)، ومسلم برقم: (٢٧٨٨).

(٣) «مسند أحمد» حديث رقم: (٥٤١٤- الرسالة).

(٤) «صحيح مسلم» حديث رقم: (٢٧٨٨).

القرآن مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١] الآية في سورة الأنعام، وكقوله في آخر الزُّمر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ الَّتي ساقها الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله جلَّ وعلا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ يعني أنَّه ما من أحدٍ سيبلغ قدر الله حقَّ قدره، لا بدَّ أن يكون ثَمَّ نقصٌ عمَّا هو حقٌّ لله جلَّ وعلا في عظمَتِه؛ لأنَّ ذلك -يعني بلوغ الحقِّ في القدر- مبنيٌّ علىٰ العلم التَّامِّ بالله جلَّ وعلا وبما هو عليه سبحانه في أسمائه وصفاته وأفعاله وربوبيَّته.. إلىٰ آخره.

وهٰذا العلم إنَّما كمُل الكمال البشري في الأنبياء والرُّسل عليهم صلوات الله وسلامه، فهُم أعظم الخلق تعظيمًا لله جلَّ وعلا وأعظم الخلق قدْرًا لله جلَّ وعلا حقَّ قدره، والله ﷻ قدْرُه أعظم ولا يعلم ذلك إلَّا هو ﷻ.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ معناها: وما عظَّموا الله حقَّ تعظيمه، فمن عبد غيرَ الله ما عظَّم الله حقَّ تعظيمه، من ألحد في أسمائه وصفاته ما عظَّمَ الله حقَّ تعظيمه، من أنكر الرِّسالةَ وأنكر إنزالَ الكتاب ما عظَّم الله حقَّ تعظيمه وما علم صفة الله جلَّ وعلا ولم يعظِّمه كما ينبغي لجلَال وجهه وعظيم سلطانه.

فالمسألة عظيمةٌ جدًّا وإذا تأمَّلت في صفةٍ من الصِّفات وهو أنَّ الله ﷻ هو العظيم جلَّ وعلا وهو الواسع ﷻ، تأمَّلْ كيف أنَّ الأرض -كما ذكر الله جلَّ وعلا هنا- قبضة الله ﷻ علىٰ كبرها عندك، وأنَّ السَّمٰوات علىٰ اتِّساعها وكِبرها وعِظمها وتباعد ما بينها أنَّها مطويَّاتٌ بيمين الرَّحمٰن جلَّ وعلا، وأنَّ السَّمٰوَاتِ السَّبعَ بعضها فوق بعضٍ إلىٰ أن تكون السَّمٰوات علىٰ عظمها وكبرها تحت الكرسيِّ، وأنَّها بالنِّسبة إلىٰ الكرسيِّ كدراهم سبعةٍ أُلقيت في ترسٍ، وأنَّ الكرسيَّ هو موضع قدمي الرَّبِّ جلَّ وعلا، وأنَّ فوقه العرش، وفوق العرش ربُّ العالمين سبحانه، وأنَّ الكرسيَّ الَّذي السَّمٰوات كسبعة دراهم فيه بالنِّسبة إلىٰ العرش كحلقةٍ ألقيت في فلاةٍ من الأرض، والله جلَّ وعلا مستوٍ علىٰ عرشه وعرشه لا يحيط به ﷻ، علمتَ عِظم الله جلَّ وعلا وعظم صفاته وأنَّ الإنسان جُبِلَ علىٰ أن يكون ظلومًا جهولًا، لا بدَّ أن يكون ظلومًا؛ يغفل عن تعظيم الله وعن قدره حقَّ قدره سبحانه وأن يكون جهولًا بصفات الله جلَّ وعلا وبأسمائه، ولو نال من ذلك ما نال فهو مقصِّرٌ؛ لأنَّ عظم الله جلَّ وعلا وعظم قدره لا يحيط به محيطٌ.

وهٰذا معنىٰ كون الله جلَّ وعلا محيط، وكونه سبحانه واسع، وكونه سبحانه العظيم، وكونه سبحانه الجليل ونحو ذلك من أسماء العظمة والجلال.

فإذن من تأمَّل صفات الله جلَّ وعلا ومن تأمَّل الرُّبوبيَّة وتأمَّل عظم الله وأسماءه كالجليل والعظيم والواسع والمحيط.. وأشباه ذلك علم أنَّ العباد ما قدروا الله حقَّ قدره، وأنَّ العبد إنَّما يعظِّم بتوحيد الله بأنواعه الثَّلاثة الرُّبوبيَّة والألوهيَّة والأسماء والصِّفات، وأنَّ توحيد الرُّبوبيَّة مهمٌّ لمن كمَّله، وتوحيد الأسماء والصِّفات مهمٌّ لمن كمَّله، وتوحيد العبادة هو المهمُّ لمن عبدَ الله جلَّ وعلا وذلك لأنَّه هو رسالة الأنبياء والمرسلين.

وإذن الإيمان بالله حقَّ قدره والتَّأمُّل في ذلك ووعظ القلب بذلك، والتَّفكُّر في ذلك، هٰذا يورث

الإيمان، ولهٰذا جعله شيخ الإسلام في هٰذا الكتاب من أصول الإيمان، فمن أصول الإيمان: الإيمان بتوحيد الرُّبوبيَّة وتوحيد الأسماء والصِّفات، ومن أصول الإيمان التَّفكُّر أيضًا في عظمة الله جلَّ وعلا وعظمة ربوبيَّته وجلَاله وما يُجريه في خلقه ﷻ، وقد أمر الله بذلك في مواضع من القرآن وأمر به النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام في مواضعَ أيضًا.

فإذن لا بدَّ للعبد من التَّفكُّر في عظمةِ الله جلَّ وعلا وعظمةِ صفاته، وكيف أنَّك إذا تأمَّلت تركيبَ السَّمٰوات بعضها علىٰ بعضٍ وعظم السَّمٰوات وعظم الأرض بالنِّسبة لك أنت، ثمَّ عِظم السَّمٰوات بالنِّسبة للأرض، ثمَّ عظم الكرسيِّ بالنِّسبة للسَّموات، ثمَّ عظم العرش، تتصاغر وتتصاغر حتَّىٰ توجب علىٰ نفسك تعظيم الله جلَّ وعلا حقَّ تعظيمه، وتوجب علىٰ نفسك الذُّلَّ؛ لأنَّ العبد لا ينفكُّ إذا آمن بهٰذا حقيقةً أن يكون أذلَّ وأن لا يترفَّع ولا يتكبَّر لأنَّه يعلم حقيقة نفسه وحقيقة خَلقه ومقداره، ثمَّ هو يعظِّم الله جل وعلا حقَّ تعظيمه.

وأصل الإيمان التَّذلُّل لله بعد الإيمان بربوبيَّته سبحانه وأسمائه وصفاته وألوهيَّته، التَّذلُّل، فكلَّما كان العبد أكثر ذلًّا وتعظيمًا لله جلَّ وعلا وخشوعًا في القلب كلَّما كان أكثر إيمانًا وأعظم مقامًا عند الله جلَّ وعلا: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحجرات:١٣].

[٦] وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَىٰ يَا بَنِي تَمِيمٍ» قَالُوا: قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا، قَالَ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَىٰ يَا أَهْلَ الْيَمَنِ» قَالُوا: قَدْ قَبِلْنَا فَأَخبِرْنَا عَنْ أَوَّلِ هٰذَا الْأَمْرِ؟ قَالَ: «كَانَ اللهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ذِكْرَ كُلِّ شَيْءٍ» قَالَ: فَأَتَانِي آتٍ فَقَالَ: يَا عِمْرَانُ انْحَلَّتْ نَاقَتُكَ مِنْ عِقَالِهَا، قَالَ: فَخَرَجْتُ فِي إِثْرِهَا فَلَا أَدْرِي مَا كَانَ بَعْدِي.[1]

الله المستعان، الله المستعان، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هٰذا الحديث فيه من الفوائد ما فيه من الدِّلالة علىٰ الإيمان والتَّوحيد لكن في قوله: (انْحَلَّتْ نَاقَتِي، ذَهَبْتُ) فيه شاهدٌ علىٰ أنَّ صاحب المقام العالي والفضل هٰذا أحد الصَّحابة قد يكون عنده في بعض الأحوال إيثارٌ للمفضول علىٰ الفاضل، النَّاقة لن تذهب؛ ولكن سيتعب في البحث عنها، وهي سترجع أو يمكن البحث عنها وأن يحصل عليها بسرعةٍ؛ لكن ربَّما ناله شيءٌ من التَّعب فالحرص علىٰ ذلك جعله يترك هٰذا الأمر العظيم الَّذي قال فيه النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام: «اقْبَلُوا الْبُشْرَىٰ يَا بَنِي تَمِيمٍ» وهٰذا أمرٌ عظيمٌ.

ولذلك لا يُنتقَد المرء إذا ترك الفاضل إلىٰ المفضول بعض الأحيان؛ لأنَّ هٰذا قد يحصل من طبيعة البشر أنَّهم يحصل عندهم شيءٌ من ذلك، ترك العلم إلىٰ ما هو أدنىٰ منه، أو يعني إذا كان في بعض الأحيان فقد يحصل للمرء نوع تقصيرٍ في مثل هٰذه الأشياء، أو إيثارٌ لما هو أدنىٰ وتركُ ما هو أفضل.

(١) «صحيح البخاري» حديث رقم: (٣١٩٠)، وعزاه أيضا لمسلم ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٤٣٧).

[٧] وَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ جَهِدَتِ الْأَنْفُسُ وَضَاعَتِ الْعِيَالُ، وَنُهِكَتِ الْأَمْوَالُ وَهَلَكَتِ الْأَنْعَامُ فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَىٰ اللهِ وَبِاللهِ عَلَيْكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟» وَسَبَّحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّىٰ عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا اللهُ؟! إِنَّ عَرْشَهُ عَلَىٰ سَمَاوَاتِهِ لَهَكَذَا» وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عَلَيْهِ «وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.(١)

هٰذا الحديث إسناده فيه ضعفٌ قد تكلَّم عليه عددٌ من أهل العلم، لكن ما زال علماء السُّنَّة يتتابعون علىٰ إيراده، فما خلا مصنِّفٌ في السُّنَّة من إيراد هٰذا الحديث، وذلك لِدلالته علىٰ أمرين معروفين في كلام أهل السُّنَّة:

الأوَّل: علوُّ الله جلَّ وعلا. وهٰذا أمرٌ متواترٌ، وأدلَّته كثيرةٌ في الكتاب والسُّنَّة.

الثَّاني: أنَّ العرش فوق السَّمٰوات. وهٰذا أيضًا ثابتٌ عندهم وأنَّ العرش ليس في داخل السَّمٰوات، وهٰذا فيه ردٌّ علىٰ من زعم من الفلاسفة أو المعتزلة أو غيرهم أنَّ العرش له صفةٌ أخرىٰ.

وهٰذا فيه أيضًا تنبيهٌ علىٰ أنَّ العرش له أركانٌ لأنَّه قال: «عَلَىٰ سَمَاوَاتِهِ هَكَذَا» وأشار بيده مثل القبَّة.

فيه ردٌّ علىٰ بعض الطَّوائف الضَّالَّة في هٰذا الباب.

المقصود أنَّ الحديث أهل السُّنَّة متَّفقون بلا خلافٍ بينهم علىٰ إيراده في الأدلَّة، وضعفُ إسناده لا يعني عدم إيراده في ذلك لأنَّه اشتمل علىٰ أمرين، وهما علوُّ الله جلَّ وعلا وأنَّ العرش فوق السَّمٰوات.

والأمر الثَّالث الَّذي اشتمل عليه هٰذا الحديث: هو أنَّ العرش يئطُّ، وهٰذا لم يأتِ إلَّا في هٰذا الحديث، وقد أُيِّد من حيث المعنىٰ من قوله جلَّ وعلا: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾[الشُّورىٰ:٥]، ويدلُّ عليه أيضًا قوله جلَّ وعلا: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ۝١٨﴾[المزَّمِّل].

لهٰذا يورد أهل السُّنَّة بالاتِّفاق هٰذا الحديث، ولا ينظرون إلىٰ ما في إسناده من الضَّعف أو الجهالة.

... هٰذا كلامٌ لبعض المتأخِّرين أنَّ الحديث الضَّعيف لا يُعمل به في باب العقائد ولا يُعمل به في الفقه، هٰذا كلامٌ للمتأخِّرين، أمَّا السَّلف والأئمَّة فمنهجهم:

أنَّ الحديث الضَّعيف لا يُستدلُّ به في أصلٍ من الأصول، بل إمَّا في تأييده أو في فرعٍ من الفروع، هٰذه عبارة شيخ الإسلام بنصِّها قال: **أهل الحديث لا يستدلُّون بحديثٍ ضعيفٍ في أصلٍ من الأصول؛ بل إمَّا في تأييده أو في فرعٍ من الفروع**.(٢)

يعني: أنَّ أهل الحديث يستدلُّون بالحديث الضَّعيف في الفقهيَّات، وهٰذا منهجٌ معروفٌ، فالأئمَّة مالكٌ

(١) «سنن أبي داود» حديث رقم: (٤٧٢٦).

(٢) قال شيخ الإسلام في «مجموع فتاويه» (ج٤/ ص٢٥): وأهل الحديث لا يستدلُّون بحديثٍ ضعيفٍ في نقض أصلٍ عظيمٍ من أصول الشَّريعة بل إمَّا في تأييده وإمَّا في فرعٍ من الفروع.

والشَّافعيُّ وأحمد ومن صنَّف في السُّنن يحتجُّون بأحاديث ضعيفةٍ علىٰ السُّنَّة؛ لأنَّ الحديث الضَّعيف عندهم خيرٌ من الرَّأي.

وأمَّا في العقيدة فإذا كان الحديث الضَّعيف أصلًا لم ترد العقيدة إلَّا في هٰذا الحديث فإنَّه لا يُعتمد عليه، لأنَّه لا يُستدلُّ بحديثٍ في أصلٍ من الأصول وتُبنىٰ عليه عقيدةٌ؛ بل لا بدَّ أن يكون الحديث صحيحًا.

وفي الحسن خلافٌ، والصَّواب أنَّ الحسن مثل الحديث الصَّحيح في الاحتجاج به.

والقسم الثَّاني: أن يورد الحديث الضَّعيف في تأييد ما دلَّت عليه النُّصوص وفي الشَّواهد، فهٰذا كلُّ عمل أئمَّة السُّنَّة علىٰ ذلك.

فلو نظرت في «كتاب العرش» لابن أبي شيبة لوجدت أنَّ ثلثه أسانيده صحيحةٌ والباقي وهو أكثر من ستِّين إسنادًا ضعيفةٌ؛ لكن لأنَّها في أصلٍ ثابتٍ اُستدلَّ به.

وهٰذا عندهم له أيضًا أصلٌ وهو: أنَّ الحديث إذا كان ضعيفًا واشتمل علىٰ أشياء منها ما يُؤيِّد الأصل ومنها ما هو جديدٌ فإنَّهم يستدلُّون به في التَّأييد لما ثبت في الأصل، وأمَّا ما انفرد به الحديث الضَّعيف من الاعتقاد أو من الأمر الغيبيِّ فإنَّهم لا يُثبتونه.

مثل هٰذا الحديث فإنَّه اشتمل علىٰ أشياء ثابتةٍ، اشتمل علىٰ أشياء مؤيِّدةٍ للنُّصوص فلا بأس بإيراده وما دلَّ عليه، واشتمل علىٰ ذكر الأطيط وهو لم يرد إلَّا في هٰذا، لذلك نقول: لا نثبت الأطيط لأجل أنَّه ما ورد إلَّا في هٰذا الحديث. ونجعل الأطيط في معنىٰ قول الله جلَّ وعلا: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦٓ﴾[المزَّمِّل:١٨]، ومعنىٰ قول الله جلَّ وعلا: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾[الشُّورىٰ:٥] الآية في أوَّل الشُّورىٰ. ظاهرٌ؟

المتأخِّرون وخاصَّةً لمَّا نشأت مدرسة أهل الحديث في الهند في القرن الثَّالث عشر بالغوا في نفي الاستدلال بالحديث الضَّعيف، ثمَّ ورد هٰذا إلىٰ البلاد الإسلاميَّة الأخرىٰ، وكثُر حتَّىٰ ظُنَّ أنَّ هٰذا هو المنهج الصَّحيح، هٰذا ليس بمنهجٍ وهو مخالفٌ لطريقة أهل العلم المتقدِّمة، وطريقتهم هي ما ذكرتُ لك من التَّفصيل.

فيُنتبه لهٰذا ويعتبر منهج حتَّىٰ ما يضلِّل المتأخِّرون أئمَّتهم وسابقيهم.

هٰذا بلاءٌ، لأجل هٰذا الأصل الَّذي ليس بأصلٍ، وهو أنَّهم قالوا: لا يحتجُّ بالحديث الضَّعيف، ظنَّ الظَّانُّ أنَّ معناه: أنَّ الحديث الضَّعيف كالموضوع لا قيمة له ألبتَّة، والاستشهاد به أو الاستدلال به دليلُ ضعف المتكلِّم علميًّا إلىٰ آخره، هٰذا ليس بجيِّدٍ.

نعم ينبغي علىٰ من استشهد بحديثٍ ضعيفٍ أن يبيِّن ضعفه إذا كان ضعفه غيرَ مُحتمَلٍ؛ يعني: لا يقرب من التَّحسين وأشباه ذلك، فيبيِّن ضعفه ثمَّ يذكر ما فيه من الفوائد بحسب القواعد الَّتي ذكرتُ لك.

أنت لو رأيت كتب أهل العلم لوجدت أنَّهم يستشهدون بأحاديث كما ذكرنا لك، اعتبر هٰذا أو استقرئ هٰذا بما في كتب أهل الحديث المتقدِّمة والمتوسِّطة إلىٰ قرابة هٰذه أواخر الأزمان لوجدت هٰذا

هو المنهج الَّذي عندهم، كتب التَّفسير، كتب الحديث، كتب الفقه، كتب الرَّقائق، كلُّها علىٰ هٰذا المنوال.

[٨] وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ ﷻ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ؛ أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ». (١)

[٩] وَفِي رِوَايَةٍ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ، وَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ. (٢)

قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «قَالَ اللهُ ﷻ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ» إلىٰ آخره، هٰذان الحديثان فيهما: عِظم صبر الله جلَّ وعلا علىٰ خطايا عباده وعلىٰ ما ينسِبونه إليه جلَّ وعلا، ومن أسماء الله جلَّ وعلا: الصَّبور(٣)، وهو أنَّه عظيمُ الصَّبر علىٰ ما يكون من فعل عبادِه ومن مجاهرتهم في حقِّ الله جلَّ وعلا بالشِّرك وبغيره.

وتكذيب الله جلَّ وعلا فيما أخبر أو فيما جاء به رسلُه عليهم الصَّلاة والسَّلام لا شكَّ أنَّ هٰذا من أعظم عدم قَدْرِ الله جلَّ وعلا حقَّ قدره، وذكر مثال ذلك بقوله: «أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ» وهٰذا مثالٌ مما فيه تكذيب الرَّبِّ جلَّ وعلا، وإلَّا فأنواع التَّكذيب كثيرةٌ، «وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا» وادِّعاء الصَّاحبة مع الله جلَّ وعلا أو لله جلَّ وعلا وادِّعاء الولد لله ﷻ هٰذا شتمٌ؛ لأنَّ حقيقة الشَّتم والسَّبِّ أنَّه التَّنقُّص، وعزو الصَّاحبة لله وإضافة الولد إلىٰ الله جلَّ وعلا هٰذا فيه إثبات النَّقص له سبحانه؛ لأنَّ الله سبحانه غنيٌّ عن العالمين وغنيٌّ عن أن يتَّخذ صاحبةً ولا ولدًا كما قال سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ۝٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ۝٩٥﴾ [مريم].

فمن أعظم السَّبِّ أن يُجعل لله الصَّاحبة أو يُجعل له الولد أو أن يُجعل له شريكٌ ﷻ في الرُّبوبيَّة أو في الألوهيَّة؛ لأنَّ اتِّخاذ الشَّريك مع الله جلَّ وعلا سبٌّ له سبحانه، فكلُّ من أشرك بالله جلَّ وعلا إلهًا آخر عبد الأصنام أو عبد الأوثان أو عبد الأولياء أو عبد الصَّالحين، أو ادَّعىٰ مع الله جلَّ وعلا إلهًا آخر علىٰ أصناف الآلهة، فهٰذا قد سبَّ الله جلَّ وعلا أعظم مسبَّةٍ؛ ولهٰذا يجد المؤمن في قلبه البُغض للمشرك؛ لأنَّ المشرك سبَّ الله ﷻ ولأنَّ المشرك شتم الله جلَّ وعلا، ولو شتم أحدٌ من النَّاس فلانًا لأبغضه ولو سبَّه لأبغضه، فكيف بمن يسبُّ الرَّبَّ جلَّ وعلا، ولو أخذ فلانٌ يسبُّ أبا الرَّجل ويسبُّ آباءه وأجداده أو يسبُّ نفسه ونحو ذلك ويشتمها ويتنقَّصها بأنواع النَّقائص لصار مُبغَضًا إليه، ولربَّما قامت أشياء عظيمةٌ

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه» برقم: (٤٩٧٤).

(٢) «صحيح البخاري» حديث رقم: (٤٤٨٢).

(٣) عدَّه من جملة الأسماء الحسنىٰ من أهل العلم: الخطابي، وابن منده، والحليمي، والبيهقي، وابن العربي، والقرطبي، وابن القيم، وغيرهم ينظر «معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنىٰ» محمد خليفة التميمي (ص٢٣٢).

بين السَّابِّ والمسبوب والشَّاتم والمشتوم، وذلك لما جرت عليه النُّفوس من الاعتداد بحقِّها.

فكيف بسبِّ الله جلَّ وعلا، ولهٰذا المشرك يُبغَض ولو كانت حاله في الدُّنيا ما هي، أو كانت حسناته الدُّنيويَّة في أيِّ شأنٍ يُبغَض لما اشتمل عليه صدرُه واشتملت عليه روحه من مسبَّة الله جلَّ وعلا ومن بغضائه.

والله جلَّ وعلا صبورٌ يسمع أذىٰ العباد، ويرىٰ شتمهم ويسمع شتمهم، ويرىٰ سبَّهم والله جلَّ وعلا صابرٌ عليهم كما قال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة].

لهٰذا بغض المشرك قائمٌ علىٰ بغض من سبَّ الله جلَّ وعلا وشتمه، وبغض المبتدع قائمٌ علىٰ بغض من ادَّعىٰ أنَّ محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام لم يُكمل لنا البلاغ كما قال الإمام مالكٌ: ما أحدث أحدٌ بدعةً إلَّا وقد زعم أنَّ محمَّدًا خان الرِّسالة. هٰذا ولا شكَّ مبناه عظيمٌ في التَّوحيد والسُّنَّة.

فإذن مسألة بغض المشرك وبغض أهل البدع وكراهة أولئك ليست مسألة أهواءٍ، هي مسألة أنَّهم عادوا الله جلَّ وعلا وعادوا رسوله ﷺ وإن ادَّعوا أنَّهم يحبُّونه، ففي الحقيقة من ابتدع ودعا إلىٰ البدعة فهو عدوٌّ رسول الله ﷺ؛ لأنَّ الله سبحانه قال لنبيِّه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾[المائدة:٣] ومن أتىٰ بشيءٍ جديدٍ فقد ادَّعىٰ أنَّه لم يتمَّ لنا الدِّين.

...«سُبْحَانِي» يعني أنزِّه نفسي، سبحان مصدر سبَّح يسبِّح سبحانًا وتسبيحًا؛ يعني تنزيهًا لنفسي عن كلِّ أنواع النَّقائص، لأنَّ السَّبَّ التَّعرُّض للنَّقائص، فقولك: سبحان الله؛ يعني تنزيهًا لله جلَّ وعلا عن جميع صفات النَّقص، قول الله جلَّ وعلا: «سُبْحَانِي» يعني تنزيهًا لنفسي عن كلِّ أنواع النَّقص كما قال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾[الإسراء].

.. الصَّبور من أسماء الله.

[١٠] وَلَهُمَا عَنْهُ أَيْضًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ». (١)

[سبُّ الدَّهر راجعٌ إلىٰ سبِّ الله جلَّ وعلا] بالوسيلة لأنَّه إن سبَّ الدَّهر فسبُّ الدَّهر راجعٌ إلىٰ سبِّ مُقلِّب الدَّهر، فقوله سبحانه: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ» يعني: سبَّ من لا يملك شيئًا من هو مدبِّرٌ فيرجع السَّبُّ إلىٰ من دبَّره، فإذا سبَّ الدَّهر فقد سبَّ الله جلَّ وعلا، يعني: شتم الدَّهر وصف الدَّهر بالنَّقائص، قال: هٰذه الأيَّام إنَّما هي خبط عشواء، مثلًا، قال: هٰذه السِّنون تأتي وتذهب دون حكمةٍ، مثلًا، أو يقول: الأيَّام تأخذ وتعطي عمياء فيما تأخذ وتُعطي وتُميت بعمًىٰ. ونحو ذلك ممَّا فيه سبٌّ وانتقاصٌ، وهٰذا سبٌّ لله جلَّ وعلا في المآل: لأنَّ الدَّهر مخلوقٌ يقلِّبه الله جلَّ وعلا كيف يشاء.

وقوله: «وَأَنَا الدَّهْرُ» ليس فيه أنَّ الدَّهر من أسماء الله جلَّ وعلا ولكن بوسيلة قوله: «يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ» يعني: إذا سبَّ الدَّهر وهو لا يستحقُّ هٰذا السَّبَّ لكونه مُدبَّرًا «فَأَنَا الدَّهْرُ» لأنَّ المسبَّة إذن وقعت علىٰ الله جلَّ وعلا والإيذاء وقع علىٰ الله جلَّ وعلا.

وينبغي أن يُعلم أنَّ وصف الأيَّام بالسُّوء أو بالنَّحس أو بالسَّواد أو بالظُّلمة ونحو ذلك ممَّا فيه إضافةٌ للعبد أنَّ هٰذا ليس من سبِّ الدَّهر، كما يُقال مثلًا: هٰذا يوم نحسٍ، أو هٰذا يومٌ أسود، وهٰذه أيَّامٌ مظلمةٌ أو سنةٌ مظلمةٌ وأشباه ذلك، هٰذا وصفٌ وليس من السَّبِّ، إنَّما وصفٌ لتلك الأيَّام بالإضافة إلىٰ من حصل له فيها أشياء سيِّئةٌ وهٰذا كما قال جلَّ وعلا: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾[القمر:١٩]، وكما قال جلَّ وعلا: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾[فصلت:١٦].

ووصف الأيَّام بالنَّحس والسُّوء أو الإظلام أو يومٌ أسود أو نحو ذلك بقصد أنَّه بالنِّسبة للقائل هو كذلك، أي حصل له فيه سوءٌ فهٰذا لا بأس به لأنَّ الشَّرَّ ليس إلىٰ الله جلَّ وعلا، وإنَّما هو قد يُضاف إلىٰ العبد فيكون يوم نحسٍ بالنِّسبة للعبد، يوم سوءٍ بالنِّسبة للعبد وهكذا.

نكتفي بهٰذا.

(١) «صحيح البخاري» حديث رقم: (٤٨٢٦)، و«صحيح مسلم» حديث رقم: (٢٢٤٦).

الدرس السابع

٤- بَابُ

الإيمَانُ بِالْقَدَرِ

[١] وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾[الأنبياء].

[٢] وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾[الأحزاب].

[٣] وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[الصَّافَّات].

[٤] وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[القمر].

[٥] وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفِ سَنَةٍ. قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ» الْحَدِيثُ.(١)

هٰذا الباب من «كتاب أصول الإيمان» فيه ذكر الإيمان بالقدر، والإيمان بالقدر ركنٌ من أركان الإيمان الَّتي دلَّ عليها حديث جبريل المعروف حين سأل النَّبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام عن الإيمان فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ».(٢) فالإيمان بالقدر واجبٌ وفرضٌ وركنٌ من أركان الإيمان لا يصحُّ أحدٌ حتَّىٰ يؤمن بالقدر.

وأدلَّة ذلك كثيرةٌ في القرآن، قال جلَّ وعلا: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾[الأحزاب]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[القمر]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾[الفرقان]، فقال أيضًا: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[الصَّافَّات]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾[الأنبياء]، وقال أيضًا: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾[الحجُّ]، وقال أيضًا: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[التَّكوير]. هٰذه الأدلَّة تدلُّ علىٰ أنَّ الأشياء بقدرٍ.

والإيمان بالقدر معناه: **اعتقادُ أنَّ الله جلَّ وعلا قدَّر الأشياء بمقاديرها -بهيئاتها وصفاتها ووقت وقوعها وتفاصيل ذلك- قبل أن يخلقَ السَّمٰوات والأرض، وأنَّه سبحانه يخلقها إذا شاء، وأنَّه هو الخالق وحده، وأنَّ ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.**

وهٰذه الجملة يمكن أن تفصَّل بتعريف القدر وذِكر مراتب القدر، وهٰذه قد بيَّناها لكم علىٰ وجه التَّفصيل في «شرح الواسطيَّة» وفي مواضع متنوِّعةٍ.

ولا شكَّ أنَّ الاهتمام بركن الإيمان بالقدر لطالب العلم لا بدَّ منه، وأنَّه من المهمَّات لأنَّه لا تتَّضح له كثيرٌ من المسائل ولا معنىٰ كثيرٍ من الآيات إلَّا بمعرفة تفصيل كلام أهل السُّنَّة والجماعة في مسائل

---

(١) «صحيح مسلم» حديث رقم: (٢٦٥٣).

(٢) حديث جبريل رواه مسلم في «صحيحه» برقم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

القدر.

قوله هنا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ يعني في القدر السَّابق؛ يعني في الكتاب السَّابق، ﴿سَبَقَتۡ﴾ يعني في الكتاب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقۡدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ يعني: أمر الله الَّذي يقع ويأمر به ليحدث في ملكوته ويخلق ما يشاء بقوله (كن) فيكون، كان قدرًا مقدورًا ليس أُنُفًا ولا مُبتدأً من غير تقديرٍ سابقٍ؛ بل الله سبحانه علِم ما سيكون وما اختار أن يكون وما أراد أن يكون وكتب ذلك في اللَّوح المحفوظ.

قال: (وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[الصافات:٩٦].)، ﴿مَا﴾ في هٰذه الآية لها تفسيران:

الأوَّل: أن تكون ﴿مَا﴾ اسم موصولٍ يعني (الَّذي) ومعنىٰ الآية حينئذٍ: والله خلقكم والَّذي تعملونه.

الوجه الثَّاني: أن تكون ﴿مَا﴾ مصدريَّةً، تقدير الكلام: والله خلقكم وعملكم، وهٰذا وجه الاستشهاد: أنَّ عمل العامل المُكلَّف خَلْقُ الله جلَّ وعلا، فكما أنَّ الله خلق المُكلَّف فقد خلق عمله ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ يعني: وعملكم.

قال: (وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿٤٩﴾﴾[القمر].) وقوله هنا: ﴿كُلَّ شَيۡءٍ﴾ يعني من المخلوقات، كلُّ شيءٍ خلقه الله جلَّ وعلا جعل له قدَرًا.

ثمَّ ساق حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما الَّذي رواه مسلمٌ في الصَّحيح قال عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام: «إِنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَواتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفِ سَنَةٍ. قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ» هٰذا الحديث دلَّ علىٰ أنَّ التَّقدير سبق خلق السَّمٰوات والأرض، وأنَّ هٰذا التَّقدير بمعنىٰ: الكتابة، «قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ» يعني: كتب مقادير الخلائق، لأنَّ المرتبة السَّابقة للقدر هي: (مرتبة العلم والكتابة) هٰذه المرتبة السَّابقة، والعلم – علم الله جلَّ وعلا بالأشياء أوَّلٌ أزليٌّ لا يقدَّر بخلق السَّمٰوات والأرض بخمسين ألف سنةٍ، وإنَّما الَّذي كان قبل خلق السَّمٰوات والأرض بخمسين ألف سنةٍ هٰذا هو الكتابة أمَّا العلم سابقٌ.

لذلك نقول: إنَّ مراتب الإيمان بالقدر أربعةٌ: مرتبتان سابقةٌ قديمةٌ، ومرتبتان واقعةٌ أو حاليَّةٌ.(١)

---

(١) جاء في «شرح كتاب التوحيد» للشيخ صالح آل الشيخ المراتب الأربع:

الأُولىٰ والثَّانيةُ تسبِقُ وُقوعَ المُقدَّرِ:

- الإيمانُ بالعلمِ السَّابقِ.
- الإيمانُ بكتابةِ اللهِ جلَّ وعلا لعُمومِ الأشياءِ.

والثالثة والرابعة تقارِنُ وُقوعَ المُقدَّرِ:

- الإيمان بعُمومِ المَشيئةِ.

=

فـ(كلامي هٰذا) من جهة التَّقدير القديم السَّابق؛ فإنَّ الله عَلِم وعِلْمُه أزليٌّ أوَّلٌ بمقامي هٰذا، وقراءتي وكتب ذلك في اللَّوح المحفوظ قبل خلْق السَّمٰوات والأرض بخمسين ألف سنةٍ.

فلمَّا جاء الإيقاع؛ إيقاع المُقدَّر وقضاء المُقدَّر في ذلك جاءت مرتبتان متعلِّقةٌ بالواقع:

وهي مرتبة: أنَّ الله سبحانه خالقُ كلِّ شيءٍ ومنه عملي هٰذا وكلامي وقراءتي ومكثي وجلوسي إلىٰ آخره هٰذا كلُّه مخلوقٌ نفذ به القدر وصار الإيمان به من الإيمان بالقدر لأنَّه لم ينفذ القدر إلَّا بذلك، فخلْق الله جلَّ وعلا لهٰذا العمل وهٰذه القراءة وهٰذا الشَّرح حاليٌّ حين وقعت.

ثمَّ إنَّ الله سبحانه لم يقع ذلك الشَّيء -لم تقع هٰذه القراءة- إلَّا بمشيئته سبحانه، لا بمشيئة العبد، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ومشيئتي ومشيئة كلِّ مكلَّفٍ داخلةٌ في مشيئة الله جلَّ وعلا، فإذا شاء العبد فإنَّه لا يكون ما شاءه العبد إلَّا إذا أذن الله جلَّ وعلا به.

ولهٰذا فرَّق طائفةٌ من أهل العلم بين القضاء والقدر، فقالوا: القدر والقضاء يختلفان في المرتبتين الحاليَّتين.

وبعضهم قال: القدر هو القضاء لأنَّ المرتبتين: مرتبة عموم الخلق والمشيئة هٰذه من القدر وهي القضاء.

فطائفةٌ من أهل العلم قالوا: القدر والقضاء بمعنًىٰ واحدٍ، لأنَّ القضاء من القدر والإيمان بالقدر بأربع مراتب، ومرتبتان هما القضاء.

وقال آخرون: يُفَرَّق إذا ذُكر القضاء والقدر بين القضاء والقدر لأنَّ القضاء هو: ما وقع وقُضِي من القدر، والقدر أعمُّ يشمل ما قُضي وما لم يُقضَ.

فالقضاء هو: ما قُضِي وانتهىٰ من القدر، وهٰذا أولىٰ وهو المتَّجه بدِلالة اللَّفظ وبدِلالة الكتاب والسُّنَّة، قال سبحانه: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾[طه:٧٢] وقال جلَّ وعلا: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ﴾[سبأ:١٤]، وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**لَا يَقْضِي اللهُ لِعَبْدِهِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ**».

سؤال: هل مرتبة الكتابة سابقةٌ للعلم والمشيئة؟

الجواب: لا، العلم ثمَّ الكتابة؛ كتابة الله مقادير الأشياء أو قدر الأشياء في اللَّوح المحفوظ قبل خلق السَّموات والأرض بخمسين ألف سنةٍ.

سؤال: المشيئة هل هي أزليَّةٌ؟

الجواب: لا، المشيئة متعلِّقةٌ ما شاء الله كان، يعني حين يشاء الله جلَّ وعلا ذلك يكون.

سؤال: من باب تعلُّقها بالله جلَّ وعلا.

الجواب: يعني من حيث المقدور المُعيَّن، يعني من حيث قراءتي هٰذه مشيئة الله جلَّ وعلا صفةٌ ذاتيَّةٌ، =

- الإيمانُ بأنَّ الله جلَّ وعلا خالقُ كلِّ شيءٍ للأعيانِ وللصِّفاتِ الَّتي تقومُ بالأعيانِ، فالأعيانُ مِثلُ الذَّواتِ، والصِّفاتِ مثل أفعالُ العِبادِ.

ما يشاء، لكن من حيث تعلُّقها بهٰذا المخلوق الآن الَّذي هو قراءتي، هٰذه مشيئةٌ توجَّهت لذلك، إرادة كونيَّةٌ توجَّهت لذلك، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾[النَّحل]، لذلك نقول: الإرادة الكونيَّة هي المشيئة، وأمَّا علم الله جلَّ وعلا بأنَّ الشَّيء يقع إذا أراد إذا شاء، يقول: ستقع هٰذه القراءة فعلم الله جلَّ وعلا يعلم أنَّ هٰذه ستقع بمشيئته سبحانه في الوقت المُحدَّد وفي الزَّمان المُحدَّد وفي المكان المُحدَّد.

والله المستعان، ﷻ ما أعظم علمه وما أعظم قدرته.

سؤال: هل أفراد القدر هي القضاء باعتبار وقوعها؟

الجواب: أفراد المقدور إذا وقعت هي القضاء، لا نقول: باعتبار وقوعها، باعتبار وقوعها ممكن تعتبرها قبل أن تقع، هي كلُّها واقعةٌ؛ يعني أننا نقول: القضاء هو القدر.

نكتفي بهٰذا القدر، نسأل الله لكم التَّوفيق والإعانة.

سؤال: بالنسبة للصلاة للمسافر، الجماعة في سفره، هل تجب عليه الصلاة في المساجد، إذا سمع الأذان؟ هناك دليل «من سمع النداء فليجب».

الجواب: «من سمع النداء» يعني من أهل الحضر، النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- في مكة وفي منىٰ كل الناس يصلون لحالهم، لأنهم مسافرين، في مكة ما كان يصلي في الحرم، ولا كانت جماعة واحدة، الحجاج في منىٰ كل واحد يصلي في مكانه، النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صلىٰ بالناس في موقع مسجد الخيف، وأتاه مرة رجلان بعد صلاة الفجر فلم يصليا معه، فقال: «لم لم تصليا ألستما رجلين مسلمين؟» قالوا: يا رسول الله، صلينا في رحالنا، فقال: «إذا صليتما في رحالكما ثم أدركتما الصلاة صلوا مع الناس تكن لكم نافلة»، لم يقل: لا تصلوا في الرحال.

المسافر تجب عليه الجماعة مثل وجوبها علىٰ الحاضر مع الاستطاعة؛ إذا وجد جماعة، وأما إجابة النداء ففيها حرج كبير، المسافر يمر ببلد يسمع النداء ما له عذر وتلزمه، أو له حاجة يأتي يوم أو يومين، لا دليل. وحديث منىٰ، وحديث النبي ﷺ في مكة ما كان يصلي في الحرم في المسجد.

[٦] وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَىٰ كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ قَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»، ثُمَّ قَرَأَ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [اللَّيل]، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.(١)

هٰذا الحديث فيه دليلٌ علىٰ مرتبة الكتابة من مراتب الإيمان بالقدر، وأنَّ الله جلَّ وعلا كتب ما الخلق عاملون، وأنَّ كلَّ شيءٍ عنده مكتوبٌ ﷻ، وفيه دليلٌ علىٰ أنَّ ذاك الكتاب كاشفٌ وليس مُجبِرًا، وأنَّ الله سبحانه هو الَّذي ييسر للعباد أعمالهم بما فعلوا وبما عمِلوا، فمن سعىٰ في الخير يُسِّر لأن يكون من أهل الجنَّة، ومن عمِل الشَّرَّ خُذِل ويُسِّر للعسرىٰ والعياذ بالله .

فعند أهل السُّنَّة والجماعة: أنَّ ذِكر الكتاب السَّابق وذِكر قبْض الله جلَّ وعلا قبضةً إلىٰ النَّار وقبضةً إلىٰ الجنَّة ونحو ذلك، هٰذا كاشفٌ لعلم الله جلَّ وعلا الَّذي لا تغيبُ عنه غائبةٌ لا في الحال ولا في الاستقبال، فالله جلَّ وعلا يعلم ما كان وما هو كائنٌ وما يكون إلىٰ قيام السَّاعة وما بعد ذلك، ويعلم شأن ما لم يكن لو كان كيف يكون ﷻ.

وهٰذا له نظائر كثيرةٌ في القرآن ممَّا يذكره الله جلَّ جلَاله عن نفسه في التَّفريق بين علمه الكاشف وكتابه الكاشف، وما بين ما يُجريه الله جلَّ وعلا في خلقه خلقًا وأمرًا كونيًّا كما في قوله مثلًا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة:١٤٣]، الله ﷻ يعلم ذلك؛ يعلم من سيتَّبع ممَّن ينقلب علىٰ عقبيه، لكن قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ يعني إلَّا ليظهر علمُنَا، كذلك الكتاب كُتِب وفيه ما سيظهر فيه علمُ الله جلَّ جلَاله، فالملائكة تأخذ من الكتاب بوحي الله جلَّ وعلا ويكون في أيديها صُحُف تفصيل لما في اللَّوح المحفوظ من الكتاب السَّابق.

فإذن هٰذا الحديث ليس فيه جبْرٌ ولا منحَىٰ لأهل الجبر سواءٌ من الجبريَّة الغلاة أو من الجبريَّة المتوسِّطة الَّذين هم الأشاعرة والماتُريديَّة وأشباه هؤلاء.

فأهل السُّنَّة والجماعة ليسوا بأهل جبْرٍ في القدر؛ بل يقولون باختيار العبد بما أعطاه الله جلَّ وعلا من قُدرةٍ وإرادةٍ، والله سبحانه خالق كلِّ شيءٍ وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

... المكتوب في اللَّوح المحفوظ هٰذا لا يتغيَّر، وأمَّا المكتوب في صحف الملائكة هٰذا يتغيَّر، يعني أنَّ الله جلَّ وعلا يوحي للملائكة بما في اللَّوح المحفوظ من كذا وكذا، والملائكة تفعل ذلك في ملكوت الله جلَّ جلَاله بما قدَّر، وقد يكون في اللَّوح المحفوظ معلَّقٌ بأشياء، يعني مثل أن يكون معلَّقًا بالدُّعاء عندها يحصل له كذا وكذا في اللَّوح المحفوظ؛ لكن في صحف الملائكة مثلًا يكون إنَّه سيموت، وفي اللَّوح المحفوظ أنَّه سيدعو وسيُصرف عنه، أو يكون معلَّقًا: إن دعا فسيكشف عنه أو يؤخَّر أجله وإن لم يدعُ

(١) «صحيح البخاري» حديث رقم: (١٣٦٢)، و«صحيح مسلم» حديث رقم: (٢٦٤٧).

فإنَّه سيقع فيه أجله، فكلُّ شيءٍ مكتوبٌ، فما في صحف الملائكة قابلٌ للتَّغيير، ما في صحف الملائكة من التَّقدير السَّنويِّ والتَّقدير اليوميِّ هٰذا قابلٌ للتَّغيير، أمَّا ما في اللَّوح المحفوظ فهو ليس بقابل للتَّغيير.

وهٰذا هو أحد معاني قول الله جلَّ وعلا في آخر سورة الرَّعد: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾، قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ﴾ يعني: ممَّا في صحف الملائكة، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ اللَّوح المحفوظ الَّذي فيه لا يتغيَّر ولا يتبدَّل.

وهٰذا هو معنىٰ ما جاء في الأحاديث الَّتي فيها تعليق التَّغيير، كقوله في الحديث: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»[1] الأجل والعمر محدودٌ مكتوبٌ، يعني التَّقدير الَّذي لا يتغيَّر الَّذي هو الأجل، وأمَّا العُمُر «**وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ**» فيطال عمره كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾[فاطر: ١١] فتكون هٰذه أسبابًا، ما في صحف الملائكة يتغيَّر، فالله جلَّ وعلا يوحي إليهم أن انسأوا أجلَ عبدي أو عمر عبدي.

... الكتابة في اللَّوح المحفوظ، الإيمان بالقدر كما ذكرنا لك علىٰ أربع مراتب:

مرتبتان سابقتان قبل وقوع المُقدَّر سابقةٌ قبل خلق المخلوقات؛ يعني قبل وقوع المُقدَّر من حيث جنس المُقدَّرات، ليس من حيث واقع فلانٍ أو ما سيحصل للأفراد، سابقةٌ لوقوع المُقدَّرات وهي علم الله الأوَّل والأزليُّ، والكتابة العامَّة الَّتي هي في اللَّوح المحفوظ – الكتابة التَّفصيليَّة العامَّة لكلِّ شيءٍ – هٰذه سابقةٌ.

أمَّا ما في صحف الملائكة فهٰذه الإيمان بها واجبٌ وهي من فروع مرتبة الكتابة في اللَّوح المحفوظ؛ لأنَّها تفصيلٌ لما في اللَّوح المحفوظ، يعني: تقدير المُتعلِّق بفلانٍ من النَّاس مع الملك المختص بالأرحام، التَّقدير السَّنويُّ مع الملك المختصِّ بذلك، التَّقدير السَّنويُّ الَّذي يكون في ليلة القدر، التَّقدير اليوميُّ يكون مع الملك المختصِّ، هٰذه تفاصيل، التَّقدير السَّنويُّ في كتابٍ، التَّقدير اليوميُّ أيضًا مع ما في صحف الملائكة وهكذا، فثمَّ أشياءٌ تفصيليَّةٌ.

الكتابة في اللَّوح المحفوظ هٰذه عامَّة، أخصُّ منها التَّقدير العمريُّ الَّذي يكتبه الملك حين نفخ الرُّوح كما في الحديث: «**قَالَ: اكْتُبْ، قَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ**» الحديث الَّذي رواه مسلمٌ المعروف،[2] هٰذه كتابةٌ خاصَّةٌ بالفرد بالمُعيَّن وهي جزءٌ أو تفصيلٌ لما في اللَّوح المحفوظ، إيش معنىٰ تفصيل؟ ليس معناه أنَّ في اللَّوح المحفوظ مُجملٌ وهٰذا أكثر تفصيلًا لا، وإنَّما المقصود: أنَّها تخصيصٌ لما في اللَّوح المحفوظ يعني أنَّها مُتعلِّقةٌ بواحدٍ مُعيَّنٍ وذاك للجميع فيكون مُتعلِّقًا بهٰذا الملك بهٰذا الشَّخص المُعيَّن –هٰذا التَّقدير العمريُّ–، أخصُّ منه بالنِّسبة للفرد التَّقدير السَّنويُّ، وأخصُّ من التَّقدير السَّنويِّ بالنِّسبة للفرد: التَّقدير اليوميُّ، والتَّقدير السَّنويُّ أيضًا يكون عامًّا

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٠٦٧)، ومسلم برقم (٢٥٥٧) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه (ص١٠)، وهٰذا لفظ ابن ماجه حديث رقم (٧٦).

بالنِّسبة للمخلوقات المُكلَّفة وبالنِّسبة لما في اللَّوح المحفوظ هو المرتبة الثَّانية باعتبار التَّعلُّق العامِّ. واضحٌ.

... ما فيه إشكال كلُّها كاشفةٌ، إيش معنىٰ كاشفةٌ؟ يعني العبد غير مُلزمٍ وغير مجبر، الكتاب لا يُجبر واضحٌ، الواحدة تؤول للأخرىٰ، فنقول: الآن سؤالك لهٰذا أنت سألتَ باختيارك وإرادتك وقدرتك فعندك قدرةٌ وإرادةٌ سألت هٰذا السُّؤال، لكن هل أنت مجبرٌ عليه أم لا؟ لا، لماذا؟ لأنَّك أترىٰ أنَّه ممكن تسكت وممكن تسأل، أنت فكرت وقلت: أسأل ممكن أنَّك تسأل.

فعلم الله جلَّ وعلا السَّابق الأزليُّ علم سبحانه أنَّك ستسأل، فعلمه به وبك ليس إجبارًا لك أن تسأل؛ ولكن هو يعلم أنَّك ستختار السُّؤال ولا تختار السُّكوت، واضحٌ.

ما علمه من فعلك كتبه وهٰذه الكتابة أخذتها الملائكة في التَّقدير في ما في صحفها، لهٰذا نقول: إنَّه كاشفٌ وليس مجبرًا الكتاب، العبد مختارٌ يفعل ما يشاء، ولذلك يقع الحساب ويقع التَّكليف لأنَّ العبد مختارٌ.

هنا نأتي إلىٰ مسألةٍ ثانيةٍ: هل الاختيار مُطلقٌ أم الاختيار مُقيَّدٌ؟ وهنا يأتي الفرق ما بين مذهب أهل السُّنَّة ومذهب الجبريَّة.

الجواب: الاختيار ليس مُطلقًا، وذلك أنَّ الله جلَّ وعلا من شاء هدايته أعانه علىٰ الاختيار ويسَّر له سبيل اليُسرىٰ ومن شاء إضلاله لم يُعنْه وخذله ووكَّله إلىٰ نفسه.

فإذن هنا نزيد شيئًا وهو يشتبه بالجبر وهو مسألة التَّوفيق والخذلان، فالله جلَّ وعلا يخصُّ بعض عباده بالتَّوفيق، يعينهم علىٰ الخير ويصرفُ قلوبَهم عن الشَّرِّ – وهٰذا يلحظه كلُّ واحدٍ منَّا في نفسه أنَّه مُعانٌ – فتحسُّ أنَّ ثمَّ إعانةً وفتحًا لأبواب الخير وصدًّا لأبواب الشَّرِّ وهٰذا يُسمَّىٰ التَّوفيق، وأمَّا الخذلان فأن يَكِل الله العبدَ لنفسه فيسلبه الإعانة فلا يعينه، وهٰذا عدلٌ منه جلَّ وعلا فكلُّ واحدٍ مختارٌ افعل ما تشاء، فخصَّ الله بعض خلقه بالإعانة وحرم آخرين من ذلك، وهٰذا عدلٌ منه جلَّ وعلا؛ لأنَّه لا يظلمه سبحانه واختصاصٌ واختيارٌ.

... مثلا سؤالك الآن جوابي فيه إعانةٌ لك علىٰ الفهم، لو ما أجبتك يلزمني؟ ما يلزمني، أنت سألت فأجبتك، سألني عبد المنعم فما أجبته، ما يلزمني الجواب، واضحٌ؛ لأنَّه ليس للمخلوق ليس للطَّالب حقٌّ علىٰ المُعلِّم حقٌّ واجبٌ، ليس للمخلوق حقٌّ علىٰ الله جلَّ وعلا واجبٌ في أن يعين فلانًا واجبٌ أن يعين الله جلَّ وعلا جميع الخلق هٰذا ليس حقًّا، الله سبحانه هو الَّذي خلق يتصرَّف في ملكه كيف يشاء، إذن العبد عنده إرادةٌ وقدرةٌ –لاحظ تسلسل مذهب أهل السُّنَّة في القدر–.

فعل العبد يلحظ هو من نفسه، كلُّ واحدٍ يلحظ من نفسه أنَّه عنده إرادةٌ وعنده قدرةٌ، قدرته إذا كانت عامَّةً ما ثمَّ عوائق فإنَّها لا تتمُّ إلَّا بالإرادة، إرادته تارةً تكون جازمةً؛ أفعل كذا فيتحقَّق المقصود فيتحقَّق الشَّيء.

مثلًا أنا إرادتي عندي قدرةٌ أحضر الدَّرس وإرادتي كانت جازمةً أن أحضر فحضرت، هنا حصل

الشَّيء، حصل بإيش؟ حصل بقدرتي وإرادتي، فكانت القدرة تامَّةً ما فيها هوادٌ وإرادتي كانت جازمةً ما عندي تردُّدٌ فحصل المقصود.

هنا إذا كانت الإرادة هٰذه توجَّهت إلىٰ شيءٍ آخر فما حضر، فإذن هنا صار الحضور الَّذي هو هٰذه القربة إلىٰ الله جلَّ وعلا غير مكتوبةٍ لأنَّ ما فيه إرادة.

هنا يأتي مسألة التَّوفيق الإعانة هٰذه الإرادة لما توجَّهت -لاحظ- الإرادة والقدرة موجودةٌ، القدرة لها صوارف كثيرةٌ جدًّا يجيئك وجعٌ في بطنك..، العوائق كثيرةٌ الَّتي تعيق القدرة أن تكون تامَّةً، أيضًا والإرادة وخواطر النَّفس كثيرةٌ جدًّا الإرادات الَّتي تهجم علىٰ العبد.

فالله جلَّ وعلا هو الَّذي خلق الإرادة واضحٌ، وهو الَّذي خلق القدرة، لذلك فعلك منه جلَّ وعلا لأنَّ أسبابه هو الَّذي خلقه انتهينا من هٰذه الخطوة.

تأتي الثَّانية: إرادتك الَّتي تحدَّدت في شيءٍ دون غيره هٰذه لا بدَّ لها إعانةٌ؛ لأنَّ واحد اثنين ثلاثة أربعة؛ الشَّواغل، كذلك القدرة صرف الأشياء ليست إليك، فلذلك توجُّهك إلىٰ هٰذا الشَّيء هٰذا من الله جلَّ وعلا توفيقًا هٰذا في الطَّاعات، قدرتك علىٰ ترك المعصية عندك قدرةٌ علىٰ فعل المعصية وقدرةٌ علىٰ ترك المعصية، عندك إرادةٌ علىٰ الفعل وإرادةٌ علىٰ التَّرك.

هنا تلحظ يجيئك بعض النَّاس نفسه مطمئنَّةٌ ما لها نزعٌ إلىٰ الذُّنوب والمعاصي وآخر نفسه مُتردِّدةٌ، هنا يلحظ أنَّه يختار ويفعل أو لا يفعل، يفعل أو لا يفعل ثمَّ يلحظ المطيع أنَّه أُعِين فجأةً، يلحظها من نفسه، فصُرف الآن اللَّحظة هٰذه من التَّوفيق للعبد أُعين بشيءٍ يصرفه عن شرٍّ، هو بدأ بإرادته بدأ باختياره، ولهٰذا جاء أنَّ الَّذي يسعىٰ في العمل فإنَّه يُحاسب ليأخذ أسبابه؛ يعني قدرة وأرادَ وتوجَّه، أمَّا المخذول فهو الَّذي يُسلَب الإعانة ما يُعان في شيءٍ خلاص أنت ونفسك فتتردَّد عنده الأشياء يأتيه الشَّيطان فيغلبه، تأتيه النَّفس تغلبه، وليس له من الله عونٌ؛ فتجني عليه اختياراته واجتهاداته.

فإذن حصيلة الكلام أنَّ الجبريَّة يقولون: أنَّ الكتاب السَّابق يدلُّ علىٰ الجبر وعلم الله السَّابق يدلُّ علىٰ الجبر؛ يعني القدر يدل علىٰ الجبر.

وعندنا: القدر -العلم والكتابة- كاشفةٌ بمعنىٰ أنَّها غير مجبِرةٍ أي أنَّ الله جلَّ وعلا انكشفت له الأمور وهي ليست بخفيَّةٍ عنه وهو علىٰ كلِّ شيءٍ شهيدٌ، فلهٰذا لا يُجبر أحدًا فالعبد يختار؛ لكن يُعين من يشاء ويصرف الإعانة عمَّن يشاء، يهدي من يشاء ويُضلُّ من يشاء ﷻ.

التَّوفيق؛ أمَّا الجبرية الغُلاة ما يحضرني، الجهميَّة ما يحضرني تعريفهم، وأمَّا عند الأشاعرة الَّذين هم الجبريَّة المُتوسِّطة الَّذين يقولون بالكسب التَّوفيق عندهم: خَلْق القدرة علىٰ الطَّاعة، هٰذا تعريف التَّوفيق عندهم، غير تعريف التَّوفيق عند أهل السُّنَّة والجماعة، ليس الإعانة، خلق القدرة علىٰ الطَّاعة هٰذا هو التَّوفيق عندهم. الإرادة والقدرة، الإرادة ما لها دخلٌ في التَّوفيق فيها، الإرادة هو يَفعل ويُفعل به ما يَفعل، لكنَّ التَّوفيق خلق القدرة علىٰ الطَّاعة لأنَّه محلٌّ، هو محلٌّ للطَّاعة، فخلق القدرة علىٰ الطَّاعة توفيق، وخلق القدرة علىٰ المعصية الخذلان.

فعندهم أنَّ العبد مثل السِّكِّين، العمل مثلًا قطع خبزٍ -هم يمثِّلونه كذا- السِّكِّين هي الآلة آلة القطع والحامل للسِّكِّين هو الَّذي سيفعل، هم يقولون: العبد كالآلة في قدرة الله جلَّ وعلا -واضحٌ؟-، فالسِّكِّين لها قدرة علىٰ القطع لكن ليس لها إرادةٌ، فهنا حينما خُلِقَت القدرة علىٰ القطع أو يعني هنا لما حرَّك الماسك السِّكِّين الَّتي هي خلق القدرة بالقطع، لمَّا حرَّكها هنا بدأ القطع؛ لكن في الواقع السِّكِّين لا إرادة لها.

فإذن عندهم في الواقع العبد مثل السِّكِّين، لهٰذا دائمًا يُعبِّر الجبريَّة من المفسِّرين وغيرهم (يخلق عنده)، دائمًا يستعملون لفظ العنديَّة لا يستعملون لفظ (به) الَّتي هي السَّببيَّة.

فلهٰذا تتنبَّه: مسألة القدر والمذاهب فيه خاصَّةً تدقيقاته، والحمد لله النُّصوص في ذلك واضحةٌ مؤتلفةٌ بيِّنةٌ لا إشكال فيها، ومذهب أهل السُّنَّة والجماعة واضحٌ وهو مذهبٌ صافٍ واضحٌ وفهمهم للأدلَّة في القدر لا إشكال فيه تجدها متناسقةً؛ متناسقةً مع النُّصوص ومتناسقةً أيضًا مع العقل بما يدلُّ عليه؛ لأنَّ مسألة القدر ضلَّ فيها الأكثرون، نسأل الله العافية والسَّلامة.

... (هديناه) يعني دللناه علىٰ طريق الخير وطريق الشَّرِّ، الهداية قد تكون فطريَّةً في بعض الأشياء، وقد تكون رساليَّةً فيما فيه التَّكليف إلىٰ آخره.

[٧] وَعَنْ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ الْجُهَنِيِّ قَالَ: سُئِلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ هٰذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[الأعراف:١٧٢]، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنْهَا فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ يَمُوتَ عَلَىٰ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُدْخِلُهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّىٰ يَمُوتَ عَلَىٰ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدْخِلُهُ النَّارَ» رَوَاهُ مَالِكٌ وَالْحَاكِمُ وَقَالَ: عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ.(١) وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنْ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ نُعَيْمِ بْنِ رَبِيعَةَ عَنْ عُمَرَ.(٢)

هٰذا الحديث من الأحاديث المُشكِلة الَّتي غلَّط فيها المُحقِّقون من أهل العلم الرُّواة في إدخالهم الاستخراج في الآية.

والصَّحيح: أنَّ استخراج ذرِّيَّة آدم هٰذا حقٌّ وميثاقٌ كما جاء في هٰذا الحديث، وأنَّه استخرج من ظهر آدم ذرِّيَّته، وأنَّه أشهدهم جلَّ وعلا وجعلهم فريقين إلىٰ الجنَّة وإلىٰ النَّار، وأنَّهم كانوا كأمثال الذَّرِّ إلىٰ آخر ما جاء في الأحاديث الصَّحيحة.

فالميثاق حقٌّ والإيمان به واجبٌ.

لكن جعل الميثاق تفسيرًا لقول الله جلَّ وعلا في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾[الأعراف:١٧٢]، هٰذا فيه نظرٌ عند المُحقِّقين من أهل العلم ويجعلون الأحاديث مثل هٰذا الحديث أنَّه دخل علىٰ الرُّواة وجعلوا حديثًا في حديثٍ، وأنَّ مسألة أخذ الميثاق في آية الأعراف غير أخذ الميثاق من ذرِّيَّة آدم من ظهره.

والفرق في هٰذا يمكن أن نُفصِّله إن شاء الله تعالىٰ في «شرح الطَّحاوية» في الأسبوع القادم عند قول الطَّحاويِّ رَحِمَهُ اللهُ: (والميثاقُ الَّذي أخَذَهُ الله تعالَىٰ مِنْ آدمَ وذُرِّيَّتِهِ حَقٌّ.)

لكنَّ المقصود هنا أنَّ الآية...

ثمَّ قال: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ الأخذ كان من الظُّهور ظهور بني آدم جميعًا، ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ يعني: ذراري كلِّ بني آدم من ظهورهم. ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ كما سيأتي تفصيله.

المسألة الثَّانية في هٰذا الحديث: أنَّ الله جلَّ وعلا قسم خلقه لمَّا استخرج الذُّرِّيَّة من ظهر آدم إلىٰ طائفةٍ في الجنَّة وطائفةٍ في النَّار، وهٰذا بما علمه جلَّ وعلا من حالهم، وأنَّ منهم من هو في الجنَّة باختياره وعمله، ومنهم من هو في النَّار باختياره وعمله، والله سبحانه يُضِلُّ من يشاء ويهدي من يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(١) «موطأ مالك» كتاب القدر (٢/ ٨٩٨-٨٩٩)، ومن طريقه رواه أبو داود في «سننه» رقم: (٤٧٠٣)، والترمذي في «جامعه» رقم: (٣٠٧٥)، و«مستدرك الحاكم» (١/ ٢٧).

(٢) «سنن أبي داود» حديث رقم: (٤٧٠٤).

[٨] وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُويَه[١] حَدَّثَنَا بَقِيَّةُ بْنُ الْوَلِيدِ، أَخْبَرَنِي الزُّبَيْدِيُّ مُحَمَّدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَنْ رَاشِدِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ هِشَامِ بْنِ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ أَنَّ رَجلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَتُبْتَدَأُ الْأَعْمَالُ أَمْ قَدْ قُضِيَ الْقَضَاءُ؟ فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ لَمَّا أَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ ظَهْرِهِ أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ثُمَّ أَفَاضَ بِهِمْ فِي كَفَّيْهِ، فَقَالَ: هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَهَؤُلَاءِ لِلنَّارِ، فَأَهْلُ الْجَنَّةِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ». [٢]

هٰذا في معنىٰ الأحاديث السَّابقة، نكتفي بهٰذا.

(١) قال الشيخ صالح آل الشيخ: رَاهُويَه أحسن، رَاهَوَيْه يجوز؛ لكنَّ الدَّارج عند أهل الحديث في قراءاتهم رَاهُويَه.

(٢) رواه البخاري في «تاريخه الكبير» (٨/ ١٩١-١٩٢).

الدَّرسُ الثَّامن

[٩] وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ الْمَلَكَ، بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: فَيَكْتُبُ عَمَلَهُ، وَأَجَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ؛ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. (١)

هٰذا الحديث حديثٌ جليلٌ عظيمٌ مهيبٌ يرويه عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام والمراد منه في هٰذا الموطن ذكر القدر وهو قوله هنا: «ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ الْمَلَكَ، بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: فَيَكْتُبُ عَمَلَهُ، وَأَجَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ» يعني: وهل هو شقيٌّ أو سعيدٌ، هٰذه الكتابة مرتبةٌ من مراتب القدر.

والكتابة - كما ذكرنا لكم فيما سلف - أنواعٌ:

منها الكتابة العامَّة المُفصَّلة لكلِّ شيءٍ في اللَّوح المحفوظ، وهٰذه هي الَّتي جاءت في قول الله جلَّ وعلا: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾[الحجُّ]، وفي قوله جلَّ جلاله: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾[القمر]، ونحو ذلك من الآيات، وفي قوله عليه الصَّلاة والسَّلام في الحديث المتَّفق عليه: «**إِنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفِ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ**»(٢) يعني: كتبها. هٰذه كتابةٌ عامَّةٌ مفصَّلةٌ لكلِّ شيءٍ.

تلي هٰذه الكتابة كتاباتٌ عامَّةٌ في أنحاءٍ منها:

الكتابة العُمْريَّة يعني: لكلِّ شخصٍ أو لكلِّ إنسانٍ كتابةٌ خاصَّةٌ به عامَّةٌ بما سيؤول إليه أمره، وهٰذه هي الكتابة في الرَّحم؛ يعني حين يكون المخلوق جنينًا قبل أن تُنفخ فيه الرُّوح يكتب هٰذه الأربع كلماتٍ؛ يكتب رزقه، ويكتب أجلَه ويكتب عمله ويكتب هل هو شقيٌّ أو سعيدٌ، وهٰذا بما تؤول إليه الحال، يعني: يكتب رزقه علىٰ وجه الإجمال ويكتب عمله هل هو عمله صالحٌ أم لا؟ ويكتب أجلَه إلىٰ أين سينتهي؟ ثمَّ هل هو شقيٌّ أم سعيدٌ؟ لذلك هٰذه الكتابة ليست تفصيليَّةً.

وهناك كتاباتٌ أخر تفصيليَّةٌ:

الكتابة السَّنويَّة الَّتي تكون في ليلة القدر وتكون تفصيلًا لما يكون في هٰذه السَّنة بخصوصها لهٰذا المُعيَّن، وقد يكون في هٰذه السَّنة ما يخالف ما هو مكتوبٌ حين كان في الرَّحم، يعني يكون في هٰذه السَّنة - نسأل الله العافية - مُسلمًا ويُكتب في الرَّحم شقيًّا لأنَّه سيؤول أمره إلىٰ رِدَّةٍ وكفرٍ، وهٰذا هو معنىٰ قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «فوالله الَّذِي لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ؛ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا

---

(١) «صحيح البخاري» حديث رقم: (٣٢٠٨)، و«صحيح مسلم» حديث رقم: (٢٦٤٣).

(٢) سبق تخريجه (ص ٤٠).

إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا» إلىٰ آخره، وهٰذا معنىٰ أنَّه كُتِب شقيٌّ أم سعيدٌ يعني: فيما سيؤول إليه أمره، أمَّا فيما هو تفصيلٌ لما في اللَّوح المحفوظ فهٰذا يكون الأمر مختلفًا؛ يعني فيما هو في التَّقدير السَّنويِّ.

لذلك لا نفهم من كتابة: هل هو شقيٌّ أم سعيدٌ، أو أنَّه يعمل بعمل أهل الجنَّة ثمَّ يعمل بعمل أهل النَّار فيدخلها. أنَّ هٰذا مخالفٌ للكتاب، أو أنَّ الكتاب جُبر عليه لا، فالكتاب – كما ذكرنا لكم – كاشفٌ، وما يُجرِي الله جلَّ وعلا علىٰ عبده هو بقدَرٍ –لا شكَّ– والقدر أنواعٌ، وهٰذا الكتاب لا بدَّ أنَّه سيكون فقد يكون يعمل بعمل أهل الجنَّة العمر كلَّه، ثمَّ يسبق عليه الكتاب يعني: ما كتب الله جلَّ وعلا في الكتاب أنَّه سيكون شقيًّا فيختار هٰذا الشَّقاوة فيُبطل عمله السَّابق، وهو باختياره اختار عمل أهل الجنَّة ثمَّ باختياره أبطل عمله السَّابق.

فإذن كتابة الكتاب في اللَّوح المحفوظ يكون علىٰ الوجه العامِّ –الإجماليِّ النِّهائيِّ– وعلىٰ الوجه التَّفصيليِّ، ثمَّ هناك كتبٌ تفصيليَّةٌ لما في اللَّوح المحفوظ، ومنها الكتابة في الرَّحم.

فإذن الكتابة في الرَّحم رزقه وأجلَه وعمله وشقيٌّ أم سعيدٌ أي باعتبار العاقبة لا باعتبار ما يكون في تفاصيل حياته، لهٰذا قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا» لأنَّه كُتب أنَّه سعيدٌ، فسيؤول أمره إلىٰ أنَّه يُسلم أو إلىٰ أنَّه يتوب إلىٰ أن يموت فيكون من أهل الجنَّة.

فإذن هٰذا الحديث حديث عبد الله بن مسعود حديثٌ عظيمٌ فيه تقرير مسائل كثيرةٍ من مسائل القدر وأهمُّها مسألة الكتابة العُمريَّة وأنَّ الله جلَّ وعلا يبعث إليه ملكًا فيكتب هٰذه الأمور علىٰ وجه الإجمال.

... هٰذه قالها جمعٌ من أهل العلم وهي آخر أنواع الكتابات.

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾[الرَّحمٰن] ما تدلُّ علىٰ الكتابة، فهم يستدلُّون عليها بقوله عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَبِالنَّهَارِ»[1] إلىٰ آخر الحديث، وبقوله: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾﴾[الانفطار]، يعني فيما يكتبون من عمل الإنسان في كلِّ يوم فيطابقون بينه وبين ما هو موجودٌ فيما في أيديهم من الصُّحف؛ لأنَّ الكتابة السَّنويَّة هي في الواقع كتابةٌ يوميَّةٌ مجموعةٌ، في اليوم الفلانيِّ سيحصل كذا وفي اليوم الفلانيِّ سيحصل كذا إلىٰ آخره هٰذه الكتابة السَّنويَّة ثمَّ بالنِّسبة للمُكلَّف يكون تفاصيل الكتابة السَّنويَّة العامَّة للمُكلَّفين أو للمخلوقات تكون بأيدي الملك المُوكَّل بالعبد، واضحٌ، لذلك قال جماعةٌ من أهل العلم إنَّ الكتابة ثمَّ كتابة يوميَّةٌ كتفصيل للكتابة السَّنويَّة، وهٰذه الَّتي فيها التَّغيير، المحو والإثبات والشُّروط إلىٰ آخره، ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾[الرَّعد:٣٩].

---

(١) رواه البخاري برقم (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[١٠] وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَىٰ النُّطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَيُكْتَبَانِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَىٰ؟ فَيُكْتَبَانِ، وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَثَرُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ، ثُمَّ تُطْوَىٰ الصُّحُفُ، فَلَا يُزَادُ فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.(١)

وهٰذا الحديث أيضًا تتمَّةٌ في المعنىٰ لما في الحديث السَّابق؛ لأنَّ الملك يأتي بعد زمنٍ فيكتب هٰذه الأشياء.

ثمَّ قال في آخره: «ثُمَّ تُطْوَىٰ الصُّحُفُ فَلَا يُزَادُ فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ» هٰذا فيه دليلٌ علىٰ ما ذكرتُ لك من أنَّ الكتابة هٰذه لا تتغيَّر، وليست مثل الكتابة الَّتي في أيدي الملائكة، الكتابة السَّنويَّة أو اليوميَّة الَّتي يُزاد فيها ويُنقص فيما هو موجودٌ في اللَّوح المحفوظ، كما قال سبحانه: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾[الرَّعد]، قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ﴾ ممَّا في أيدي الملائكة من الصُّحف. ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ يعني: ما في اللَّوح المحفوظ لا يتغيَّر ولا يتبدَّل، وكذلك ما في صحف الملائكة من التَّقدير العُمريِّ للإنسان، هٰذا أيضًا لا يتغيَّر ولا يتبدَّل كما دلَّ عليه هٰذا الحديث: «فَلَا يُزَادُ فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ».

هٰذا الحديث فيه مسألةٌ أخرىٰ ليست متَّصلةً بالقدر في قوله: «يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَىٰ النُّطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً»، وحديث عبد الله بن مسعودٍ: أنَّ البعث يكون بعد أربعين وأربعين، يعني بعد مائةٍ وعشرين ليلةً، كيف يُوفَّق بين هٰذا وهٰذا؟

أجاب أهل العلم عن هٰذا بأجوبةٍ من أحسنها: أنَّ هٰذا مختلفٌ باختلاف الأحوال، وأنَّ الغالب أن يتأخَّر وقد يتقدَّم، ولهٰذا قد توجد الحركة في الجنين قبل الأربعة أشهر قد توجد بعد شهرين ونصف أو ثلاثةٍ توجد الحركة أو أحيانًا قبل ذلك، هٰذا جوابٌ.

لهٰذا هنا لم يُذكر في هٰذا الحديث أنَّه تنفخ فيه الرُّوح بعد الأربعين وإنَّما ذكرت الكتابة، وهناك في حديث ابن مسعودٍ، وذكر أنَّ نفخ الرُّوح يكون بعد الكتابة لأنَّه قال: «ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ» وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ نفخ الرُّوح متأخِّرٌ بعد الكتابة الَّتي هي بعد عشرين ومائةٍ من اللَّيالي، ونفخ الرُّوح دليله الحركة، وحركة الجنين قد تكون قبل ذلك.

لهٰذا قالوا: هٰذا الحديث يدلُّ علىٰ أنَّ الرُّوح قد تُنفخ بعد زمنٍ وجيزٍ لأنَّه بعد ما كتب يكون النَّفخ. والله أعلم متىٰ يكون نفخه.

المقصود **أنَّ من أحسن أوجه الجمع بين هذين الحديثين** أنه يُحمل علىٰ الاختلاف، اختلاف ما يُقدِّره الله جلَّ وعلا تارةً تكون الكتابة مُبكِّرةً وتارةً تكون الكتابة مُتأخِّرةً وهو الغالب لما دلَّ عليه حديث ابن مسعودٍ رضي الله تعالىٰ عنه.

(١) «صحيح مسلم» حديث رقم: (٢٦٤٤).

المسألة الثَّانية هنا: «فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَىٰ؟ فَيُكْتَبَانِ»: علم ما في الأجنَّة الَّذي اختصَّ الله جلَّ وعلا به في خمسٍ لا يعلمها إلَّا الله أعمُّ وأشمل من كون ما في البطن ذكرًا أو أنثىٰ لأنَّ الله سبحانه يقول: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾[لقمان:٣٤]، ﴿مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ عامٌّ، يعني: الَّذي في الأرحام أو كلّ ما في الأرحام، لأنَّ الاسم الموصول يعمُّ، فكلُّ ما في الأرحام من الجنين ومن تغذيته ومن تقلُّبه في أنواع الخلق وما تغيض الأرحام وما تزداد، كلُّ هٰذا يعلمه الله مختصٌّ الله جلَّ وعلا به علىٰ وجه التَّفصيل، فلا أحد يعلم ما في الأرحام علىٰ وجه التَّفصيل إلَّا الله جلَّ وعلا.

من ذلك هل الجنين ذكرٌ أو أنثىٰ؟ فيختصُّ الله جلَّ وعلا بهٰذا العلم في الخمس الَّتي لا يعلمها إلَّا الله من ضمن علمه جلَّ جلَاله بما في الأرحام يختصُّ بما قبل الأربعين أو بما قبل الخمس وأربعين، لأنَّه قال هنا: إنَّ الملك يعلم، فإذا كان الملك يعلم خرج عن الاختصاص: «**فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ**»، فيعلم الملك بعد الوحي والأمر بالكتابة هل هو ذكرٌ أم أنثىٰ؟، فما هو بعد ذلك لا يدخل إذن في الاختصاص لأنَّه خرج بالخمس والأربعين ليلةٍ عن اختصاص الله جلَّ وعلا بعلمه هل هو ذكرٌ أو أنثىٰ، فعلم الملك لذلك لم يكن أمرًا غيبيًّا مختصًّا بالله جلَّ وعلا.

ولهٰذا ما في الجنين ثبت عن أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صحَّ عنه بأنَّه نظر إلىٰ بطن امرأته فقال: فيها أنثىٰ، وذُكر عن جماعةٍ من الصَّالحين وأهل العلم أنَّهم عندهم كشفٌ علميٌّ بما يُلهمهم الله جلَّ وعلا فيعلمون ما في الرَّحم؛ يعني بعد مدَّةٍ فيقولون: هٰذا فيه ذكرٌ أو أنثىٰ، ومعلومٌ أنَّ هٰذا بعد الاستبانة؛ استبانة المخلوق في البطن، مثل ما هو حاصلٌ الآن من بعض الأجهزة الطِّبِّيَّة أنَّهم يُصوِّرون فيعلمون هل هو ذكرٌ أو أنثىٰ بالصُّورة بدلائل وجود علامة الذُّكورة في فرج الجنين وعلامة الأنوثة كذلك.

... ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ هٰذا لما في صحف الملائكة من التَّقدير التَّفصيليِّ، أمَّا التَّقدير العُمريُّ فهو إجماليٌّ، مثل ما في اللَّوح المحفوظ لا يُزاد فيه ولا يُنقَص كما قال: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ يعني أصل الكتاب الَّذي هو اللَّوح المحفوظ.

[١١] وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: دُعِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ جَنَازَةِ صَبِيٍّ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقُلْتُ: طُوبَىٰ لَهُ عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الْجَنَّةِ لَمْ يَعْمَلْ سُوءًا وَلَمْ يُدْرِكْهُ فَقَالَ: «أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ».(١)

[١٢] وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّىٰ الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.(٢)

[١٣] وَعَنْ قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾ [القدر] قَالَ: يُقْضَىٰ فِيهَا مَا يَكُونُ فِي السَّنَةِ إِلَىٰ مِثْلِهَا. رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَابْنُ جَرِيرٍ،(٣) وَقَدْ رُوِيَ مَعْنَىٰ ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَالْحَسَنِ وَأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمُقَاتِلٍ.(٤)

[١٤] وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّ اللهَ خَلَقَ لَوْحًا مَحْفُوظًا مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ، دَفَّتَاهُ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ قَلَمُهُ نُورٌ وَكِتَابُهُ نُورٌ، عَرْضُهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ يَنْظُرُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ ثَلَاثَمِائَةٍ وَسِتِّينَ نَظْرَةً، فَفِي كُلِّ نَظْرَةٍ مِنْهَا يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ وَيُحْيِي وَيُمِيتُ وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝٢٩﴾ [الرحمٰن]. رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَالطَّبَرَانِيُّ وَالْحَاكِمُ.(٥)

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لَمَّا ذَكَرَ هٰذِهِ الْأَحَادِيثَ وَمَا فِي مَعْنَاهَا قَالَ: فَهٰذَا تَقْدِيرٌ يَوْمِيٌّ وَالَّذِي قَبْلَهُ تَقْدِيرٌ حَوْلِيٌّ، وَالَّذِي قَبْلَهُ تَقْدِيرٌ عُمْرِيٌّ عِنْدَ تَعَلُّقِ النَّفْسِ بِهِ، وَالَّذِي قَبْلَهُ كَذَلِكَ عِنْدَ أَوَّلِ تَخْلِيقِهِ وَكَوْنِهِ مُضْغَةً، وَالَّذِي قَبْلَهُ تَقْدِيرٌ سَابِقٌ عَلَىٰ وُجُودِهِ؛ لَكِنْ بَعْدَ خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالَّذِي قَبْلَهُ تَقْدِيرٌ سَابِقٌ عَلَىٰ خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفِ سَنَةٍ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ التَّقَادِيرِ كَالتَّفْصِيلِ مِنَ التَّقْدِيرِ السَّابِقِ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَىٰ كَمَالِ عِلْمِ الرَّبِّ وَقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَزِيَادَةِ تَعْرِيفِهِ الْمَلَائِكَةَ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِنَفْسِهِ وَأَسْمَائِهِ.

ثُمَّ قَالَ: فَاتَّفَقَتْ هٰذِهِ الْأَحَادِيثُ وَنَظَائِرُهَا عَلَىٰ أَنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ لَا يَمْنَعُ الْعَمَلَ وَلَا يَجِبُ الاتِّكَالُ عَلَيْهِ؛ بَلْ يُوجِبُ الْجِدَّ وَالاجْتِهَادَ، وَلِهٰذَا لَمَّا سَمِعَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ ذَلِكَ قَالَ: مَا كُنْتُ بِأَشَدَّ اجْتِهَادًا مِنِّي الْآنَ، وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ النَّهْدِيُّ لِسَلْمَانَ: لَأَنَا بِأَوَّلِ هٰذَا الْأَمْرِ أَشَدُّ فَرَحًا مِنِّي بِآخِرِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ قَدْ

---

(١) «صحيح مسلم» حديث رقم (٢٦٦٢).

(٢) «صحيح مسلم» حديث رقم (٢٦٥٥).

(٣) «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٨٦)، و«تفسير ابن جرير» (١٥/ ٢٦٠).

(٤) انظر: «الدر المنثور» (٨/ ٥٦٨- ٥٦٩).

(٥) «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٦٤)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١٠٦٠٥)، «مستدرك الحاكم» (٢/ ٢١٦).

سَبَقَ لَهُ مِنَ اللهِ سَابِقَةٌ وَهَيَّأَهُ وَيَسَّرَهُ لِلْوُصُولِ إِلَيْهَا كَانَ فَرَحُهُ بِالسَّابِقَةِ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللهِ أَعْظَمَ مِنْ فَرَحِهِ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي تَأْتِي بَعْدَهَا. (١)

هٰذه الأحاديث دلَّت علىٰ ما ذكره ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ من تنوّع التَّقدير: تقديرٌ سابقٌ عامٌّ، وتقديرٌ عُمريٌّ، وتقديرٌ سنويٌّ وتقديرٌ يوميٌّ إلىٰ آخره.

وهٰذه سبق الكلام عليها مفصَّلًا فيما ما مضىٰ، والمقصود منها: أنَّ قدَر الله جلَّ وعلا عامٌّ وأنَّ كلَّ شيءٍ يحصل فهو (شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّىٰ الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ). يعني: حتَّىٰ ما تعجز عنه وهو بقَدَرٍ، وحتَّىٰ ما تُدركه وتعقله هو أيضًا بقَدَرٍ لعموم قوله سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[القمر]، ولعموم قوله سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾[الفرقان]، وهٰذا التَّقدير العامُّ والتَّقدير التَّفصيليُّ يدلُّ علىٰ عموم مشيئته جلَّ جلَاله، وعلىٰ شمول قدرته، وأنَّه سبحانه علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ، وهٰذا يجمع مراتب القدر الأربع الَّتي ذكرناها لكم:

- مرتبة العلم الشَّامل لكلِّ شيءٍ السَّابق الأزليِّ الأوَّل.
- ومرتبة الكتابة في اللَّوح المحفوظ، كتب مقادير كل شيء سبحانه قبل أن يخلق السَّمٰوات والأرض بخمسين ألف سنةٍ.
- وأنَّه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.
- وأنَّه علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ وأنَّه خلق كلَّ شيءٍ جلَّ جلَاله.

ولهٰذا عرَّف بعض أهل العلم القدر – كما ذكرنا لكم – بما يجمع تلك المراتب بقوله: **إنَّ القدر هو علم الله الأوَّل – الأزليُّ – المحيط بالأشياء وكتابته لها في اللَّوح المحفوظ وعموم قدرته جلَّ وعلا وخلقه للأشياء وأنَّ ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.** أو نحو ذلك ممَّا يجمع المراتب الأربع.

التَّفاصيل الَّتي ذكرها ابن القيِّم أنَّ بعضها تفصيلٌ لبعضٍ؛ يعني أن ما هو مكتوبٌ في اللَّوح المحفوظ هٰذا فيه كلُّ شيءٍ، ثمَّ يُخصَّص إمَّا بتخصيص الأفراد أو بتخصيص الزَّمان أو بتخصيص المكان، فما قدَّره الله جلَّ وعلا في السَّماء غير ما قدَّره في الأرض، ذاك في كتابٍ خاصٍّ بملائكةٍ وهٰذا في كتابٍ خاصٍّ بأيدي ملائكةٍ، وما قدَّره الله جلَّ وعلا لعموم خلقه المُكلَّفين هٰذا شيءٌ، ثمَّ تنزل درجةً إلىٰ خصوص فئةٍ مُعيَّنةٍ، ثمَّ إلىٰ أن تصل إلىٰ فلا المُعيَّن، ثمَّ إلىٰ أن تصل إلىٰ الجنين في بطن أمِّه، هٰذا من جهة الذَّات.

ثمَّ من جهة الزَّمان الكلِّيِّ يعني: كلُّ ما سيكون بعد خلق السَّمٰوات والأرض إلىٰ أن تتبدَّل السَّماء والأرض، ثُمَّ ثَمَّ تقديرٌ أقلُّ: تقديرٌ سنويٌّ، ثمَّ تقديرٌ يوميٌّ، هٰذا بالنِّسبة لما يحدث في الملكوت وهكذا.

المقصود أنَّ ما في اللَّوح المحفوظ هٰذا لا يغادر شيئًا فيه كلُّ شيءٍ: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾[القمر]، كلُّ شيءٍ فيه سواءٌ من جهة الأمكنة أو الأزمنة أو المخلوقات المُكلَّفين من الجنِّ والإنس. ثمَّ تأتي تفاصيل.

---

(١) «شفاء العليل» (١/ ٦١-٧٤).

ذكرنا لكم أنَّ ثَمَّ تقديرًا لا يتغيَّر ولا يتبدَّل، وثَمَّ تقديرًا قد يتغيَّر ويتبدَّل.

فأمَّا الَّذي لا يتغيَّر ولا يتبدَّل فهو العامُّ الَّذي في اللَّوح المحفوظ أو التَّقدير العمريُّ ونحو ذلك، هٰذا العامُّ لا يتغيَّر ولا يتبدَّل: من الشَّقاوة والسَّعادة ومعرفة الأحوال الرِّزق ما يؤول إليه أمر هٰذا المخلوق...

أمَّا ما في صحف الملائكة فهو يقبل التَّغيير والتَّبديل، وذلك لقوله تعالىٰ: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾[الرَّعد] ولقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ**»[1]، وقوله: «**صِلَةُ الرَّحِمِ مَنْسَأَةٌ فِي الْأَثَرِ مَجْلَبَةٌ لِلرِّزْقِ**»[2]، وأيضًا صحَّ عنه عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّه قال: «**إِنَّ الرَّجلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ**»[3]، هٰذا كلُّه من التَّغيير فيما كُتِب في صحف الملائكة، وهٰذا التَّغيير والعمل كلُّه بقدرٍ وهو موجودٌ في الصُّحف لكن له من الرِّزق كذا إن عمل كذا يُحرم الرِّزق، فيكون إذًا السَّبب والمُسبَّب والنَّتيجة كلُّها موجودةً في ذلك، فيمحو الله جلَّ وعلا من صحف الملائكة ما يشاء ويُثبت فيها ما يشاء لأنَّ فيها كلَّ شيءٍ.

كذلك من المسائل الَّتي دلَّت عليها هٰذه الأحاديث أنَّ التَّقدير في ليلة القدر الَّتي قال الله جلَّ وعلا فيها: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[الدُّخان:٣]، وقال: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾[الدُّخان]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾[القدر] يعني: ليلة التَّقدير السَّنويِّ، وليلة القدر هٰذه في رمضان وليست هي ليلة النِّصف من شعبان، والأحاديث الَّتي فيها أنَّ التَّقدير يكون ليلة النِّصف من شعبان هٰذه في فيها نكارةٌ في متنها وضعفٌ في أكثر أسانيدها، فالتَّقدير يكون في رمضان في ليلة القدر في رمضان المعروفة، وسمِّيت ليلة القدر لأنَّه يكون فيها التَّقدير، وهٰذا التَّقدير تقديرٌ سنويٌّ يعني ما يحصل في السَّنة يُكتب في صحف الملائكة من السَّنة إلىٰ السَّنة، صحف الملائكة يعني: الَّتي بأيدي المُكلَّفين: «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ**»[4] منهم الحفظة ومنهم الملائكة الَّذين يكتبون السَّيِّئات والحسنات ومنهم الملائكة المُوكَّلون بابن آدم.

---

(١) سبق تخريجه في (ص٤٥).

(٢) رواه الترمذي في «الجامع» برقم (١٩٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه ابن ماجه (٤٠٢٢) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٤) سبق تخريجه (ص ٥٢).

[١٥] وَعَنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ أَبِي وَهُوَ مَرِيضٌ أَتَخَايَلُ فِيهِ الْمَوْتَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ أَوْصِنِي وَاجْتَهِدْ لِي، فَقَالَ: أَجْلِسُونِي، فَلَمَّا أَجْلَسُوهُ قَالَ: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الْإِيمَانِ وَلَنْ تَبْلُغَ حَقِيقَةَ الْعِلْمِ بِاللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ وَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدَرِ وَشَرُّهُ؟ قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ. يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ قَالَ: اكْتُبْ فَجَرَىٰ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» يَا بُنَيَّ إِنْ مُتَّ وَلَسْتَ عَلَىٰ ذَلِكَ دَخَلْتَ النَّارَ. رَوَاهُ أَحْمَدُ. (١)

الحديث دلَّ علىٰ أنَّ الإيمان بالقدر خيرِه وشرِّه أنَّه ممَّا يُوصىٰ به ويُحثُّ عليه ويؤمر به، ويُفصَّل للنَّاس من جهة الإجمال، يعني يُبيَّن لهم الإيمان بالقدر والإيمان بخيره وشرِّه، وأنَّ ما أخطأ العبد لم يكن ليُصيبه وما أصابه لم يكن ليخطئه، وأنَّ هٰذا لا يُخالف ما جاء من الإمساك عن القدر وعن ذِكره – كما مرَّ معنا سابقًا – لأنَّ الإمساك عن القدر: «**إِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا**». يعني عن الخوض فيه بلا علمٍ، أمَّا ما دلَّ عليه الدَّليل وعلمه العبد من الشَّريعة فإنَّه يذكره ولهٰذا يوصي بالإيمان بالقدر خيره وشرِّه.

قال: (كَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدَرِ وَشَرُّهُ؟ قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ) هٰذه هي الحقيقة يعني: (مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ) لأنَّ الله جلَّ وعلا لم يقدِّره، وكذلك (مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ)، فالجميع بقدر الله جلَّ وعلا.

قوله هنا: (بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ) الخيريَّة والشَّرُّ – كما هو معلومٌ – بالإضافة إلىٰ العبد، أمَّا القدر في نفسه يعني المضاف إلىٰ الله جلَّ وعلا الَّذي هو تقدير الله هٰذا صفة الله وفعل الله جلَّ وعلا، وأفعال الله تعالىٰ لا يُضاف إليها الشَّرُّ؛ لأنَّ الشَّرَّ ليس إلىٰ الله جلَّ وعلا لا وصفًا ولا فعلًا ﷻ، فالقدر شرُّه بالنِّسبة للعبد وخيره بالنِّسبة للعبد، أمَّا حقيقة القدر فهو خيرٌ وموافقٌ للحكمة والمقاصد الحكيمة للرَّبِّ جلَّ جلَاله.

---

(١) «مسند أحمد» (٢٢٧٠٥-الرِّسالة).

[١٦] وَعَنْ أَبِي خِزَامَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ رُقًى نَسْتَرْقِيهَا وَدَوَاءً نَتَدَاوَىٰ بِهِ وَتُقَاةً نَتَّقِيهَا هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ شَيْئًا ؟ قَالَ: «هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ.[(١)]

الحديث الَّذي قبله قال: «أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ»، (أَوَّلَ) هنا بمعنىٰ حين، «أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ» يعني: حين خلق الله القلم «قَالَ لَهُ: اكْتُبْ»، يعني أنَّه لمَّا خُلق كان أوَّل ما قيل له: اكتب ما هو كائنٌ إلىٰ قيام السَّاعة.

الحديث الثَّاني سُئل النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام قال: (أَرَأَيْتَ رُقًىٰ نَسْتَرْقِيهَا وَدَوَاءً نَتَدَاوَىٰ بِهِ وَتُقَاةً نَتَّقِيهَا هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ شَيْئًا ؟ قَالَ: «هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ».) القدر يشمل كلَّ شيءٍ، يشمل تقدير السَّبب وتقدير المُسبَّب، يشمل تقدير الفعل وتقدير النَّتيجة، فما من شيءٍ إلَّا هو بقدرٍ؛ الأسباب والمُسبَّبات، مسك القلم باليد، والنَّتيجة –الكتابة– كلُّها بقدرٍ، وتناول الدَّواء بقدرٍ والانتفاع بالدَّواء بقدرٍ، تعاطي الأسباب بقدرٍ والانتفاع بهٰذه الأسباب بقدرٍ.

فإذن لا يعني عدم تعاطي الأسباب الإيمان بالقدر، كما يقول بعض النَّاس: أنا راضٍ ومؤمنٌ بما قدَّر الله ولا يتعاطىٰ الأسباب، كما هو عند غلاة نفاة الأسباب والمتصوِّفة الَّذين لا يفهمون التَّوكُّل علىٰ حقيقته، فهم يرون أنَّ تفويض الأمر لقدر الله جلَّ وعلا يعني عدم تعاطي شيءٍ من الأسباب وهٰذا باطلٌ ومتناقضٌ في نفسه.

فإذن الأسباب النَّافعة الموصلة للمسبَّبات هٰذه من قدر الله، الرُّقىٰ، التَّداوي، الأكل، الشُّرب هٰذه كلُّها من القدر قدَّرها الله جعلها أسبابًا، وما ينتج عنها هو من القدر، فإذن العبد حين يفعل الأسباب يفعل ما أمر الله به أو ما أذِن الله به فيحصل بذلك النَّتيجة وهو المُسبَّب.

إذن الرُّقية من القدر لا تردُّ من قدر الله شيئًا، والدَّواء لا يردُّ من قدر الله شيئًا بل هو من قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(١) «مسند أحمد» حديث رقم (١٥٤٧٤–الرِّسالة)، و«جامع الترمذي» حديث رقم (٢٠٦٥).

الدَّرس التَّاسع

[١٧] وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزَنْ، فَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.(١)

هٰذا الحديث فيه دلالةٌ علىٰ مسألة القدر من جهة قوله: «وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ» فإنَّ تفويض الأمر لمشيئة الله جلَّ وعلا هٰذا من الإيمان بالقدر، وقول العبد: «قَدَّرَ اللهُ» يعني: قضىٰ الله بهٰذا الشَّيء «وَمَا شَاءَ فَعَلَ»، وهٰذا يدلُّ علىٰ عموم قدر الله وعموم مشيئته سبحانه.

قوله: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ» القوَّة هنا: تشمل القوَّة الإراديَّة والقوَّة الإيمانيَّة والقوَّة البدنيَّة، فالمؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلىٰ الله من المؤمن الضَّعيف؛ يعني إذا كان مؤمنًا قويًّا في بدنه فهو خيرٌ وأحبُّ إلىٰ الله من المؤمن الضَّعيف، وذلك لأنَّ قوَّته فيها إعانةٌ له علىٰ الإيمان والجهاد والعلم والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، إلىٰ آخر ذلك، وكذلك القوَّة في العلم، المؤمن القويُّ في علمه القويُّ في دينه خيرٌ وأحبُّ إلىٰ الله من المؤمن الضَّعيف في علمه وفي دينه.

فإذن أنواع القوَّة متعدِّدةٌ فإذا آتىٰ الله جلَّ وعلا العبد القوَّة العلميَّة والإراديَّة قوَّة الإرادة والحكمة والبصيرة والقوَّة البدنيَّة فيكون ذلك من النِّعم الخاصَّة كما قال سبحانه في نعمته علىٰ أحد أنبيائه: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾[البقرة:٢٤٧].

قال بعدها: «احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ» يعني في أمر دينك ودنياك، تعاطىٰ ما ينفعك، لا تستنكف اتِّكالًا علىٰ القدر أو تقول كلُّ شيءٍ مُقدَّرٍ لن أفعل، «احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ» ما ينفعك في أمر دنياك اعمل به، اجتهد، بع واشتر، اعمل في التِّجارة، احرص علىٰ ما ينفعك في أمر دينك بالتَّعلُّم والعلم والحفظ ولا تقل أنَّه ما يحصل لي هٰذا؛ بل ما ينفعك احرص عليه فإنَّه بعد ذلك تكون النَّتيجة بتوفيق الله جلَّ وعلا.

«وَاسْتَعِنْ بِاللهِ» يعني إذا فعلت ما أُمرت به أو حرصت علىٰ ما ينفعك وفعلت الأسباب فاستعن بالله، اطلب العون من الله جلَّ وعلا، وطلب العون من الله جلَّ وعلا علىٰ مرتبتين:

المرتبة الأولىٰ: طلب العون في تهيئة الأسباب، أنَّ العبد تُهيَّأ له الأسباب وينشرح صدره لها ويفعلُها.

المرتبة الثَّانية: أن يعينه الله جلَّ وعلا في نفع تلك الأسباب، لأنَّه قد يفعل المرء شيئًا ولا ينتفع به، ولهٰذا عظم المطلوب في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[الفاتحة].

قال: «فَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» هٰذا معروفٌ في «شرح كتاب التَّوحيد» عند قول الشَّيخ: (باب ما جاء في الـ(لو)).

وتلخيص المسألة: أنَّ (لو) إذا جاءت تحسُّرًا علىٰ شيءٍ وقع في الماضي ممَّا يسوء العبد فإنَّها تفتح عمل الشَّيطان، وأمَّا إذا كانت في المستقبل أو في تقدير الخير في الماضي لا تحسُّرًا لكن في تقدير الخير

---

(١) «صحيح مسلم» حديث رقم (٢٦٦٤).

[فلا بأس بها.

أمَّا المنهيُّ عنه إذا كان] علىٰ أمرٍ قضاه الله وانتهىٰ، فيقول: لو أنِّي فعلت كذا كان أحسن، لو أنِّي فعلت ما صار لي كذا، لو ما فعلت لكان أفضل من هٰذه الحالة ونحو ذلك، فهٰذه إذا كانت تحسُّرا علىٰ الماضي ففيها اعتراضٌ علىٰ القدر وكلُّ شيءٍ بقدر الله جلَّ وعلا، ولذلك صارت (لو) في الماضي تحسُّرًا تفتح عمل الشَّيطان أعوذ بالله من ذلك.

.. تفتح عمل الشَّيطان علىٰ القلب وهو سوء الظَّنِّ بالله: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾[آل عمران:١٦٨]، سوء الظَّنِّ بالله، وتفتح عمل الشَّيطان في روعات النَّفس وحزنها ويأسها، وتفتح عمل الشَّيطان في التَّحسُّر علىٰ ما فات وأنَّ العبد لو فعل أشياء يمكن أن تصدُّه عن أشياء، والعبد قبل وقوع الشَّيء افعل ما ينفعك وافعل ما أُمرت به ولا تعجز، واستعن بالله وكن قويًّا في أمره، فإذا وقع المُقدَّر فإنَّ العبد يرضىٰ ويُسلِّم كما جاء في تفسير قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[التَّغابن:١١]، قال علقمة: هو الرَّجل تصيبه المصيبة فيعلم أنَّها من عند الله فيرضىٰ ويُسلِّم.(١)

فإذن قبل وقوع الشَّيء ابذل الأسباب واجتهد؛ ولكن إذا وقع وانتهىٰ فيقول العبد: قدَّر الله وما شاء فعل، وهٰذا فيه التَّسليم وفيه حسن الظَّنِّ بالله جلَّ وعلا وفيه فتح أبوابٍ كثيرةٍ من أبواب إيمان القلب، وأمَّا استعمال (لو) فيفضي إلىٰ التَّحسُّر وضعف القلب وانكساره والنَّدم وظنِّ العبد أنَّه بسببه حصل كذا وكذا وأنَّه ليس بقدر الله وأشياء من تسويلات الشَّيطان.

.. لا هٰذا محمودٌ، قوله: «**لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»(٢) هي ما فيها إشكالٌ من جهة (لو) هي إشكالها علىٰ بابٍ آخر قول القائل: لولا فلانٌ لما حصل كذا، هٰذه إشكالها علىٰ باب: (لولا الكلب لأتانا اللُّصوص) ونحو ذلك لما فيه نسبة النِّعم للعبد. هي لا إشكال فيها علىٰ البابين.

أمَّا باب (لو) فهٰذا «**لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**» ليس لو هي لولا، ولولا ترتيبيَّةٌ ليست تحسُّرًا علىٰ الماضي،.

ولولا فلانٌ لما حصل كذا، لولاي لما حصل، هٰذا فيه تحدُّث المتحدِّث بتعلُّق قلبه بغيره إذا قال القائل: لولا الطَّبيب صار لي كذا وكذا، لولا السَّائق لحصل كذا، لولا فلانٌ ما توظَّفت ونحو ذلك، هٰذه فيها تعلَّق القلب بهٰذا الشَّخص ممَّن حدثت له النِّعمة، والحديث: «**لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**» المتفضِّل بهٰذه النِّعمة وهي الشَّفاعة فافترقت الجهتان، قلب الَّذي يقول: لولا فلانٌ ممَّن أنعم عليه قلبه متعلِّقٌ بذاك، وقوله: لولا أنا لكنت هٰذا تفضُّلٌ وليس تعلُّقًا.

والأمر الثَّاني: أنَّ قوله: (لولا) هٰذا راجعٌ إلىٰ الشَّفاعة «**لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**» راجعٌ إلىٰ الشَّفاعة والدُّعاء، والمنهيُّ عنه في (لولا) ليس هو باب الدُّعاء إنَّما هو باب إضافة النِّعم لغير الله جلَّ وعلا.

المقصود أنَّ الحديث ما يردُّ علىٰ باب لو بل يردُّ علىٰ الباب الآخر، هٰذا ملخَّص الكلام، جواب

---

(١) رواه البيهقي في «السنن الكبرىٰ» رقم (٧١٣٣) وهو علقمة بن قيس.

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» برقم (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩) من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

الإشكال من جهتين.

الدَّرس العاشر

٥- بَابٌ

ذِكْرُ الْمَلائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلام وَالإيمَانُ بِهِمْ

[١] وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[البقرة:١٧٧].

[٢] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾[فصِّلت].

[٣] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[النِّساء:١٧٢].

[٤] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾[الأنبياء].

[٥] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾[فاطر:١].

[٦] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[غافر:٧] الْآيَةَ.

[٧] وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.(١)

[٨] وَثَبَتَ فِي بَعْضِ أَحَادِيثِ الْمِعْرَاجِ أَنَّهُ ﷺ رُفِعَ لَهُ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ الَّذِي هُوَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَقِيلَ فِي السَّادِسَةِ بِمَنْزِلَةِ الْكَعْبَةِ فِي الْأَرْضِ وَهُوَ بِحِيَالِ الْكَعْبَةِ، حُرْمَتُهُ فِي السَّمَاءِ كَحُرْمَةِ الْكَعْبَةِ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِم.(٢)

[٩] وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا فِي السَّمَاءِ مَوْضِعُ قَدَمٍ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ مَلَكٌ قَائِمٌ فَذَلِكَ قَوْلُ الْمَلَائِكَةِ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾[الصَّافَّات].» رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ وَأَبُو الشَّيْخِ.(٣)

[١٠] وَرَوَى الطَّبَرَانِيُّ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا فِي السَّمْوَاتِ السَّبْعِ مَوْضِعُ قَدَمٍ وَلَا شِبْرٌ وَلَا كَفٌّ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ أَوْ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ مَلَكٌ رَاكِعٌ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قَالُوا جَمِيعًا: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ إِلَّا أَنَّا لَمْ نُشْرِكْ بِكَ شَيْئًا».(٤)

الحمد لله، وبعد..

(١) «صحيح مسلم» حديث رقم (٢٩٩٦).

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» برقم: (٣٢٠٧)، ومسلم في «صحيحه» برقم: (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة.

(٣) «الصلاة» لمحمد بن نصر المروزي (١/ ٢٦٠)، و«تفسير ابن جرير » (٢٣/ ١١١- ١١٢)، «العظمة» لأبي الشيخ (٣/ ٩٨٤).

(٤) «المعجم الكبير» للطبراني، حديث رقم: (١٧٥١).

هٰذا الباب معقودٌ لبيان ركنٍ من أركان الإيمان وأصلٍ من أصوله العظام ألا وهو الإيمان بملائكة الله جلَّ وعلا، فإنَّ الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشرِّه من الله تعالىٰ.

والإيمان بالملائكة ركنٌ لا يصحُّ إيمان أحدٍ إلَّا أن يؤمن بالملائكة؛ يعني: لأنَّ الملائكة موجودون كما أخبر الله جلَّ وعلا، وأنَّهم عابدون لا يُعبدون، وهٰذا القدْر واجبٌ وركنٌ وهٰذا هو القدر المُجزئ من الإيمان، فمن لم يؤمن بذلك وهو:

- الإيمان بوجود الملائكة والإقرار بأنَّه ثَمَّ من خلق الله ملائكةٌ اصطافهم جلَّ وعلا.
- والثَّاني أنَّهم عابدون لا يُعبدون وأنَّهم بأمر الله يعملون.

هٰذا القدر لابدَّ منه في الإيمان لأنَّ هٰذا معنىٰ وجود الملائكة. في أنَّ الإيمان بالملائكة إيمانٌ بوجودهم وأنَّهم يعبدون الله جلَّ وعلا وأنَّهم لا يُعبَدون.

لفظ الملائكة جمع (مَلْأَكٍ)، وأصل هٰذه الكلمة (مَلْأَك) مقلوبةٌ عن (مَأْلَكٍ)، والمَأْلَك: مصدرٌ يعني بالاعتبار العامِّ أصلها من الألوكة، والألوكة: هي الرِّسالة، وفعلُها: أَلَكَ يَأْلُكُ أَلُوكَةً، يعني: أرسل برسالةٍ خاصَّةٍ وبمهمَّةٍ خاصَّةٍ.

فإذن الكلمة راجعةٌ إلىٰ معنىٰ الإرسال، (فالملائكة) من لفظها اللُّغويِّ معناها: المرسلون برسالةٍ خاصَّةٍ والقائمون بمهمَّةٍ خاصَّةٍ.

فلذلك في الإيمان بالاسم لمن يعقل معنىٰ الاسم فيه ذكر المرتبتين اللَّتين ذكرتهما: الإيمان بالوجود والإيمان بالعمل، هٰذا موجودٌ في الاسم لمن يعقل اللَّفظ العربيَّ.

والملائكة: خلقٌ من خلق الله جلَّ وعلا خلَقهم من نورٍ كما جاء في حديث عائشة الَّذي رواه مسلمٌ: «**خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ**» فهُم أنوار أرواحٌ مُطهَّرةٌ مُكرَّمةٌ جعلهم الله جلَّ وعلا عنده يعني أنَّه جعلهم في السَّماء فأصل مقامهم في السَّماء وقد يُوكَّلون بأعمالٍ في الأرض فينزلون بأمر الله جلَّ وعلا: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾[القدر]، و﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣﴾[الشُّعراء]، يعني أصل مكانهم في السَّماء كما أنَّ أصل مكان الجنِّ والإنس في الأرض.

الملائكة الكلام علىٰ ما يتعلَّق بهم بما جاء في النُّصوص كثيرٌ وأُلِّفت فيهم بعض المُؤلَّفات وهي مبسوطةٌ في كتب التَّفسير والحديث قد ساق الإمام المُصلح رَحِمَهُ اللَّهُ في هٰذا الموضع جملًا كثيرةً من تعداد الملائكة ومن صفتهم وبعض ما يتَّصل بذلك.

فيمكن أن نقول –في جُمَل بحث الملائكة–: الملائكة من حيث خَلْقُهم خلقٌ عظيمٌ –يعني في الصِّفة–، وأنَّهم أنوارٌ يعني: خلقوا من نورٍ لا يراهم الإنسان بعينه المُجرَّدة، لكن إن كُشف عنه الغطاء رأىٰ كما قال سبحانه: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾[ق]، فالإنسان علىٰ بصره غطاءٌ يعني حدودٌ يرىٰ بها، لكن بالموت إذا كَشف اللهُ عنه الغطاء البشريُّ في الدُّنيا لأنبيائه ورسله فإنَّهم يرون ما لا يرىٰ غيرهم فيرىٰ الملائكة علىٰ صورتهم الَّتي خلقهم الله جلَّ وعلا عليها، كما ثبت في الصَّحيح أنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ

الصَّلاة والسَّلام قال: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عَلَىٰ صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ»،[1] ومنهم ذووا الأجنحة، ومنهم من ليس بذي أجنحةٍ، خَلْقُهم متنوِّعٌ لكن يجمعهم أنَّ خلقَهم من نورٍ.

الملائكة منهم ثلاثةٌ كرَّمهم الله جلَّ وعلا وجعلهم سادة الملائكة وهم: جبرائيل وميكائيل وملَك النَّفخ في الصُّور إسرافيل.

وهؤلاء الثَّلاثة في مهمَّتهم تشابهٌ:

فجبرائيل جعله الله جلَّ وعلا سيِّدًا علىٰ الملائكة ومُوكَّلًا بالوحي فهو الَّذي ينزل بالوحي من الله جلَّ وعلا إلىٰ رسله وإلىٰ ملائكته.

وميكائيل مُوكَّلٌ بالقطر من السَّماء يُصرِّفه كما يأمر الله جلَّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الفرقان:٥٠].

وإسرافيل هو: المُوكَّل بقبض الأرواح، وبالنَّفخ في الصُّور ونحو ذلك[2].

والتَّناسب بينهم كما ذكر العلماء: أنَّ هؤلاء متَّصلةٌ بهم الحياة، فجبرائيل متَّصلةٌ به حياة الدِّين حياة الأرواح الحقيقيَّة؛ لأنَّه ينزل بالوحي، وميكائيل بحياة الأرض بالقطر من السَّماء، وإسرافيل بحياة الأبدان بعد موتها.

أيضًا ممَّا يتَّصل بذلك أنَّ الله جلَّ وعلا جعل الملائكة مُوكَّلين بالأعمال ولفظ (التَّوكيل) جاء في القرآن كما قال سبحانه: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾[السَّجدة:١١]، فالله جلَّ وعلا وكَّل الملائكة بأعمالٍ، فهٰذا مُختصٌّ بالسَّحاب وهٰذا مُختصٌّ بالهواء، وهٰذا مختص بالبحار، وهٰذا مختص بالأشجار، وهٰذا بالإنسان إلىٰ آخره.. في أعمالٍ كثيرةٍ جدًّا، فما من شيءٍ يحصل إلَّا والله جلَّ وعلا قد أمر به وحدث بأمره وإذنه وقدرته، والملائكة مُوكَّلون بذلك، وقد يكون المَلَك المُوكَّل بشيءٍ معه ملائكةٌ كثيرٌ يفعلون ما يأمرهم به، كما قال سبحانه في ذكر ملك الموت: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾[الأنعام]، فهم رسلٌ وسيِّدُهم أو رئيسهم ملك الموت.

من الملائكة: الملائكة المُقرَّبون الَّذين ذكرهم الإمام فيما سمعت، والملائكة المُقرَّبون أقسامٌ:

منهم حملة العرش وهؤلاء يقال لهم: (الكُروبيُّون) في بعض ما جاء في آثار السَّلف، وسُمُّوا بذلك: لأجلِ ما يعلوهم من الكرب من حمل العرش، وقربهم من الله جلَّ جلاله وخوفهم منه سبحانه وشدَّة فزعهم وكثرة فزعهم من الله جلَّ وعلا.

ومنهم الملائكة الَّذين -يعني هؤلاء المُقرَّبين- منهم الملائكة الَّذين حول العرش كما قال جلَّ وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[غافر:٧]، وبعض العلماء يجعل حملة العرش ومن

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه» برقم (١٧٧)، والترمذي في «جامعه» برقم (٣٢٧٨) من حديث عائشة.

(٢) إذْ به إعادة الناس إلىٰ حياة جديدة بعدها لا موت. انظر شرح العقيدة الطحاوية للشيخ صالح آل الشيخ لمزيد من التفصيل تحت قول الطحاوي: (وَنُؤْمِنُ بِالْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ).

حوله جميعًا يدخلون في اسم الكُروبيِّين.

وحملة العرش ومن حوله لهم مزيد اختصاصٍ لقُربهم من الله جلَّ وعلا ومزيد فضلٍ، واختلف العلماء في حملة العرش كم عددهم علىٰ قولين:

- منهم من قال: إنَّهم ثمانيةٌ لقوله سبحانه: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾[الحاقَّة].
- ومن أهل العلم -وهم الأكثر- قالوا: إنَّهم أربعةٌ في الدُّنيا وثمانيةٌ يوم القيامة، يعني أنَّ عرش الرَّحمٰن جلَّ وعلا إذا جيء به يوم القيامة لفصل القضاء فإنَّه يأتي به ثمانيةٌ من ملائكة الله جلَّ وعلا، أمَّا في الدُّنيا فهم أربعةٌ ويستدلُّون لذلك بحديثٍ رواه الإمام أحمد بإسنادٍ جيِّدٍ: **أَنَّ مَلَائِكَةَ الْعَرْشِ أَرْبَعَةٌ**.(١)

ومن الملائكة: خازن الجنَّة وخازن النَّار.

ومنهم: ملائكةٌ مُوكَّلون بابن آدم؛ منهم من يكتب ما يصدر منه، ومنهم من يحفظه من بين يديه ومن خلفه وهؤلاء هم المُعقِّبات يتعاقبون علىٰ ابن آدم أربعةٌ. يتعاقبون فيهم يعني في المُكلَّفين.

والملائكة أنواعٌ وأشكالٌ كثيرةٌ متنوِّعةٌ في مهامِّهم، والمؤمن يؤمن بهؤلاء إجمالًا علىٰ وجودهم لا ينكر شيئًا من ذلك، وتفصيلًا فيما علمه بالتَّفصيل.

فالإيمان بالملائكة علىٰ درجتين:

- إيمانٌ إجماليٌّ فيما علمت وفيما لم تعلم.
- والإيمان التَّفصيليُّ فيما فُصِّل لك في النُّصوص، فما جاء في النَّصِّ من وصف ملكٍ أو ذكر اسمه في دليلٍ في القرآن أو في حديثٍ صحيحٍ ثابتٍ في سنَّة النَّبيِّ ﷺ فوجب اعتقادُه؛ لأنَّ هٰذا أمرٌ غيبيٌّ يجب اعتقاده علىٰ ما جاء في الدَّليل.

ولعلَّكم ترجعون إلىٰ كتابٍ مُختصٍّ بذِكر الملائكة وتطَّلعون علىٰ صفات الملائكة وما يتَّصل بذلك، ويأتي إن شاء الله في هٰذا الكتاب تتمَّة الكلام في ذلك.

من آثار الإيمان بالملائكة؛ يعني أنَّ إيمان المؤمن بالملائكة له آثارٌ علىٰ إيمانه ويقينه منها:

أوَّلًا شدَّة تعظيمه لربِّه جلَّ وعلا: لأنَّ إيمانه بالملائكة به يعلم عظمة الرَّبّ جلَّ وعلا، وأنَّ هؤلاء الملائكة الَّذين عظُم وصفهم وعظمت إحاطتهم وقُدَرهم بما أقدرهم الله جلَّ وعلا وكثرة عددهم وتنوُّع خلقهم وصفاتهم فيه الإيمان بعظمة الله جلَّ وعلا وشدَّة الخوف من الله جلَّ وعلا والعلم بأسمائه وصفاته ﷻ، فإذا كانت الملائكة يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِم، فالعبد المؤمن يعلم أنَّه أحقُّ بالخوف؛ لأنَّه

---

(١) جاء في «المسند» (٢٣١٤-الرِّسالة- زيادات ابنه) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، صَدَّقَ أُمَيَّةَ فِي شَيْءٍ مِنْ شِعْرِهِ، فَقَالَ:

رَجُلٌ وَثَوْرٌ تَحْتَ رِجْلِ يَمِينِهِ وَالنَّسْرُ لِلْأُخْرَىٰ وَلَيْثٌ مُرْصَدُ

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقَ». قال ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ١٣٠ت سلامة): وهذا إسناد جيد؛ وهو يقتضي أن حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية.

مُكلَّف مُتعرِّضٌ للطَّاعة وللذَّنب وأولئك مُطهَّرون، وإذا علم أنَّ الملائكة إذا سمعوا كلام الله جلَّ وعلا أصابتهم صعقةٌ ورِعدةٌ شديدةٌ وصُعقوا ثمَّ يُفزَّع عن قلوبهم فإنَّه يعلم حينئذٍ أنَّ الملائكة – مع شدَّة خلقهم وعِظَم وصفهم –أنَّهم ينالهم ذلك فمع تقواهُم له جلَّ وعلا ومع طاعتهم وأنَّهم رُكَّعٌ سجودٌ يعملون بأمر الله لا يخالفونه فكيف بحال العبد المُكلَّف الَّذي يخالف كثيرًا ويعصي كثيرًا ويغفل كثيرًا.

فإذن الأثر الأوَّل العامُّ هو: الإيمان بعظمة الله جلَّ وعلا وما يورثه الإيمان بالملائكة من خوف الله جلَّ وعلا ومن الإنابة إليه.

الثَّاني محبَّة الملائكة: فإنَّ الملائكة مُطهَّرون عبادٌ مُكرمون مُطيعون لله مُوحِّدون لله، فبين الموحِّد وبين هؤلاء الموحِّدين بينه وبينهم سببٌ وصلةٌ ومحبَّةٌ، ولذلك الملائكة يستغفرون لابن آدم يستغفرون لمن في الأرض ويستغفرون لمن دعا لأخيه، فبينهم وبينه محبَّةٌ، وكذلك المؤمن يحبُّهم ولذلك لا يرضىٰ بالتَّعدِّي عليهم أو بادِّعاء أنَّهم وسطاء عند الله جلَّ وعلا، أو بأنَّهم بنات الله جلَّ وعلا -كما يدَّعيه المشركون - تعالىٰ الله عن قولهم عُلوًّا كبيرًا.

من آثار الملائكة بالله جلَّ وعلا أيضًا: أنَّ الإيمان بالملائكة يعرِّف المؤمن المُوحِّد ويجعل المؤمن علىٰ يقظةٍ ومحاسبةٍ لما يصدُر منه، لأنَّ الملائكة منهم المُوكَّل بالكتابة ومنهم المُوكَّل بالحفظ وهؤلاء بأمر الله جلَّ وعلا يعملون ولهٰذا يُكرَم الملَك عند المؤمن المُوحِّد وعند العالم الرَّاسخ، يُكرم الملَك عن كثيرٍ من الأعمال والهيئات والأقوال الَّتي تصدر عن الجهلة، فكلَّما عَظُم الإيمان بالملائكة عظُم إكرامُهم عن ما يكرهون مثل: الكلام السَّيِّئ والأفعال الخبيثة والرَّوائح الخبيثة ونحو ذلك ممَّا تنفر منه الملائكة. إلىٰ غير ذلك من الآثار الَّتي ربَّما يأتي – إن شاء الله – بعضُها.

نكتفي بهذا .

... ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[الشُّعراء]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾[القدر] إلىٰ أن قال ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾[القدر]، يعني بكلِّ أمرٍ، فالعلماء يقولون: إنَّ جبريل عليه السَّلام مختصٌّ بوحي الله جلَّ وعلا يعني: بالنُّزول بالوحي، وهٰذا كثيرٌ في الأحاديث منها: «**إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رَوْعِي**»(١)، «**إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي آنِفًا فَقَالَ**:...»(٢) وهكذا.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» برقم (٧٦٩٤) وغيره من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٢٣٨٨، ومسلم (٩٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

الدَّرس الحادي عشر

[١١] وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَىٰ عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ» وَالضِّيَاءُ فِي «الْمُخْتَارَةِ». (١)

فَمِنْ سَادَتِهِمْ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ وَصَفَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالْأَمَانَةِ وَحُسْنِ الْخَلْقِ وَالْقُوَّةِ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾[النَّجم]، وَمِنْ شِدَّةِ قُوَّتِهِ أَنَّهُ رَفَعَ مَدَائِنَ قَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ -وَكُنَّ سَبْعًا- بِمَنْ فِيهِنَّ مِنَ الْأُمَمِ وَكَانُوا قَرِيبًا مِنْ أَرْبَعِمِائَةِ أَلْفٍ وَمَا مَعَهُمْ مِنَ الدَّوَابِّ وَالْحَيَوَانَاتِ وَمَا لِتِلْكَ الْمَدَائِنِ مِنَ الْأَرَاضِي وَالْعِمَارَاتِ عَلَىٰ طَرَفِ جَنَاحِهِ حَتَّىٰ بَلَغَ بِهِنَّ عَنَانَ السَّمَاءِ حَتَّىٰ سَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ نُبَاحَ كِلَابِهِمْ وَصِيَاحَ دِيَكَتِهِمْ ثُمَّ قَلَبَهَا فَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا. فَهَٰذَا هُوَ: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أَيْ: ذُو خَلْقٍ حَسَنٍ وَبَهَاءٍ وَسَنَاءٍ وَقُوَّةٍ شَدِيدَةٍ، قَالَ مَعْنَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿مِرَّةٍ﴾ أَيْ: ذُو قُوَّةٍ، وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي صِفَتِهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١﴾[التَّكوير] أَيْ: لَهُ قُوَّةٌ وَبَأْسٌ شَدِيدٌ وَلَهُ مَكَانَةٌ وَمَنْزِلَةٌ عَالِيَةٌ رَفِيعَةٌ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أَيْ: مُطَاعٍ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ ﴿أَمِينٍ﴾ ذِي أَمَانَةٍ عَظِيمَةٍ، وَلِهَٰذَا كَانَ هُوَ السَّفِيرَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ رُسُلِهِ، وَقَدْ كَانَ يَأْتِي إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صِفَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَقَدْ رَآهُ عَلَىٰ صِفَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا مَرَّتَيْنِ وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ رَوَىٰ ذَٰلِكَ الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

[١٢] وَرَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا سَدَّ الْأُفُقَ يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنَ التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَا اللهُ بِهِ عَلِيمٌ. إِسْنَادُهُ قَوِيٌّ. (٢)

[١٣] وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي حُلَّةٍ خَضْرَاءَ قَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ. (٣)

[١٤] وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ مُنْهَبِطًا قَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ عَلَيْهِ ثِيَابُ سُنْدُسٍ مُعَلَّقٌ بِهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ». رَوَاهُ أَبُو الشَّيْخِ. (٤)

[١٥] وَلِابْنِ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: جِبْرَائِيلُ عَبْدُ اللهِ، وَمِيكَائِيلُ عُبَيْدُ اللهِ وَكُلُّ اسْمٍ فِيهِ: (إِيلٌ)

---

(١) «سنن أبي داود» حديث رقم (٤٧٢٧)، و«الأسماء والصفات» حديث رقم (٨٤٦)، انظر «الصحيحة» حديث رقم: (١٥٠، ١٥١)

(٢) «مسند أحمد» حديث رقم: (٣٧٤٨-الرِّسالة).

(٣) رواه الترمذي في «الجامع» رقم(٣٢٨٣)، وأحمد في «المسند» رقم (١٥٧٨٣-الرِّسالة). ولا يوجد في مسلم. والله أعلم.

(٤) لم يجده الباحثون بهذا اللفظ في «العظمة» لأبي الشيخ، والذي وجدوه في «العظمة» لأبي الشيخ رقم: (٤٩٥)، عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُهْبَطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»، ورواه البخاري في «صحيحه» رقم: (٣٠٦٢)، ومسلم رقم (١٧٧).

فَهُوَ [مُعَبْدٌ للهِ]. (١)

[١٦] وَلَهُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ مِثْلُهُ وَزَادَ: وَإِسْرَافِيلُ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ (٢). (٣)

[١٧] وَرَوَىٰ الطَّبَرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ الْمَلَائِكَةِ؟ جِبْرَائِيلُ». (٤)

[١٨] وَعَنْ أَبِي عِمْرَانَ الْجُونِيِّ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ جِبْرَائِيلَ أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَبْكِي، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا يُبْكِيكَ؟» قال: وَمَالِي لَا أَبْكِي فَوَاللهِ مَا جَفَّتْ لِي عَيْنٌ مُنْذُ أَنْ خَلَقَ اللهُ النَّارَ مَخَافَةَ أَنْ أَعْصِيَهُ فَيَقْذِفَنِي فِيهَا. رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الزُّهْدِ». (٥)

[١٩] وَلِلْبُخَارِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِجِبْرَائِيلَ: «أَلَا تَزُورُنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا» فَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾[مريم:٦٤] (٦) الْآيَةُ.

وَمِنْ سَادَاتِهِمْ مِيكَائِيلُ عليه السلام وَهُوَ مُوَكَّلٌ بِالْقَطْرِ وَالنَّبَاتِ.

(مِنْ سَادَاتِهِمْ) معنىٰ السِّيادة هنا أنَّه معه من الملائكة من يأتمرون بأمره، فمعنىٰ أنَّه سيِّدٌ أي يأمر وينهىٰ، فجبرائيل سيِّد الملائكة يعني: يأمر الملائكة، وميكائيل من سادات الملائكة لأنَّه يأمر، فمعنىٰ (سادات الملائكة) يعني: الملائكة الَّذين معهم جنودٌ ومعهم أعوانٌ يُنفِّذون أمر الله جلَّ وعلا بما وُكِّل إليه، فملك الموت قال تعالىٰ عنه: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾[السَّجدة:١١]، إسرافيل مثل ما جاء في الحديث: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ**»(٧) إسرافيل من سادة الملائكة وهو المُوكَّل بالنَّفخ في الصُّور وإزهاقها حين النَّفخ في الصُّور، لأنَّه ينفخ نفخة الصَّعق فيموت الجميع ثمَّ ينفخ نفخة البعث فتعود الأرواح، فملك الموت يقبض الأرواح، ومستودع هٰذه الأرواح في الجنَّة وفي الصُّور عند إسرافيل.

المقصود هٰذا معنىٰ (مِنْ سَادَاتِهِمْ).

---

(١) رواه الطبري (١٦٢٠).

(٢) قال الشيخ صالح آل الشيخ: من أجلِ أنَّ آخرها (فيل) (إسرائيل) وليس (إيل) كما في (جبرائيل) (ميكائيل) فجعل (إيل) بمعنىٰ الله في اللُّغة السِّريانيَّة، و(فيل) بمعنىٰ الرَّحمن.

(٣) رواه الطّبري (١٦٢٥)

(٤) «المعجم الكبير» للطبراني، حديث رقم: (١١٣٦١).

(٥) عزاه لـ «الزهد» السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٩٣)، ولم يره الباحثون في المطبوع منه.

(٦) «صحيح البخاري» حديث رقم: (٤٧٣١).

(٧) رواه مسلم برقم (٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

[٢٠] وَرَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِجِبْرَائِيلَ: «مَا لِي لَمْ أَرَ مِيكَائِيلَ ضَاحِكًا قَطُّ؟» قَالَ: مَا ضَحِكَ مِيكَائِيلُ مُنْذُ خُلِقَتِ النَّارُ.(١)

وَمِنْ سَادَاتِهِمْ: إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلام وَهُوَ أَحَدُ حَمَلَةِ الْعَرْشِ وَهُوَ الَّذِي يَنْفُخُ فِي الصُّورِ.

[٢١] رَوَىٰ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ وَالْحَاكِمُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَحَنَىٰ جَبْهَتَهُ وَأَصْغَىٰ سَمْعَهُ يَنْتَظِرُ مَتَىٰ يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ». قَالُوا: فَمَا نَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَىٰ اللهِ تَوَكَّلْنَا».(٢)

[٢٢] وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مَلَكًا مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ يُقَالُ لَهُ: إِسْرَافِيلُ زَاوِيَةٌ مِنْ زَوَايَا الْعَرْشِ عَلَىٰ كَاهِلِهِ قَدْ مَرَقَتْ قَدَمَاهُ فِي الْأَرْضِ السَّابِعَةِ السُّفْلَىٰ وَمَرَقَ رَأْسُهُ مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ الْعُلْيَا». رَوَاهُ أَبُو الشَّيْخِ وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي «الْحِلْيَةِ».(٣)

وَرَوَىٰ أَبُو الشَّيْخِ عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ قَالَ: لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ أَحْسَنُ صَوْتًا مِنْ إِسْرَافِيلَ فَإِذَا أَخَذَ فِي التَّسْبِيحِ قَطَعَ عَلَىٰ أَهْلِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ صَلَاتَهُمْ وَتَسْبِيحَهُمْ.(٤)

وَمِنْ سَادَاتِهِمْ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَلَمْ يَجِئْ مُصَرَّحًا بِاسْمِهِ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الْآثَارِ تَسْمِيَتُهُ بِعِزْرَائِيلَ فَاللهُ أَعْلَمُ، قَالَهُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ. وَقَالَ: إِنَّهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَا هَيَّأَهُمْ لَهُ أَقْسَامٌ:

فَمِنْهُمْ حَمَلَةُ الْعَرْشِ.

وَمِنْهُمُ الْكَرُوبِيُّونَ(٥) الَّذِينَ هُمْ حَوْلَ الْعَرْشِ، وَهُمْ مَعَ حَمَلَةِ الْعَرْشِ أَشْرَفُ الْمَلَائِكَةِ وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النِّساء:١٧٢].

وَمِنْهُمْ سُكَّانُ السَّمٰوَاتِ السَّبْعِ يَعْمُرُونَهَا عِبَادَةً دَائِمَةً لَيْلًا وَنَهَارًا صَبَاحًا وَمَسَاءً كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾[الأنبياء].

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يَتَعَاقَبُونَ إِلَىٰ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ. قُلْتُ: الظَّاهِرُ أَنَّ الَّذِينَ يَتَعَاقَبُونَ إِلَىٰ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ سُكَّانُ السَّمٰوَاتِ.

وَمِنْهُمْ مُوَكَّلُونَ بِالْجِنَانِ وَإِعْدَادِ الْكَرَامَاتِ لِأَهْلِهَا وَتَهْيِئَةِ الضِّيَافَةِ لِسَاكِنِيهَا، مِنْ مَلَابِسَ وَمَآكِلَ وَمَشَارِبَ وَمَصَاغٍ وَمَسَاكِنَ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ.

---

(١) «مسند أحمد» حديث رقم: (١٣٣٤٣-الرِّسالة).

(٢) «جامع الترمذي» حديث رقم: (٢٤٣١)، و«مستدرك الحاكم» (٤/ ٥٥٩).

(٣) «العظمة» لأبي الشيخ، حديث رقم: (٢٨٨)، و«الحلية» لأبي نُعيم (٦/ ٦٥).

(٤) «العظمة» لأبي الشيخ، حديث رقم: (٤٠٠).

(٥) انظر: «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٩٢٣) للشيخ الألباني.

وَمِنْهُمُ الْمُوَكَّلُونَ بِالنَّارِ أَعَاذَنَا اللهُ مِنْهَا وَهُمُ الزَّبَانِيَةُ وَمُقَدَّمُوهُمْ تِسْعَةَ عَشَرَ وَخَازِنُهَا مَالِكٌ وَهُوَ مُقَدَّمٌ عَلَى الْخَزَنَةِ، وَهُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾[غافر]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾[الزُّخرف]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾[التَّحريم]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[المدَّثِّر: ٣١].

وَمِنْهُمُ الْمُوَكَّلُونَ بِحِفْظِ بَنِي آدَمَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[الرَّعد: ١١]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَلَائِكَةٌ يَحْفَظُونَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ خَلَّوْا عَنْهُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا وَمَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِحِفْظِهِ فِي نَوْمِهِ وَيَقَظَتِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْهَوَامِّ فَمَا مِنْهَا شَيْءٌ يَأْتِيهِ يُرِيدُهُ إِلَّا قَالَ لَهُ: وَرَاءَكَ، إِلَّا شَيْءٌ يَأْذَنُ اللهُ تَعَالَى فَيُصِيبُهُ.

وَمِنْهُمُ الْمُوَكَّلُونَ بِحِفْظِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾[ق]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾[الانفطار].

[٢٣] رَوَى الْبَزَّارُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ عَنِ التَّعَرِّي فَاسْتَحْيُوا مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ الَّذِينَ مَعَكُمُ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ الَّذِينَ لَا يُفَارِقُونَكُمْ إِلَّا عِنْدَ إِحْدَى ثَلَاثٍ حَالَاتٍ: الْغَائِطُ وَالْجَنَابَةُ وَالْغُسْلُ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ بِالْعَرَاءِ فَلْيَسْتَتِرْ بِثَوْبِهِ أَوْ بِجَذْمِ حَائِطٍ أَوْ بِغَيْرِهِ». (١)

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ: وَمَعْنَى إِكْرَامِهِمْ: أَنْ يَسْتَحِيَ مِنْهُمْ فَلَا يُمْلِي عَلَيْهِمُ الْأَعْمَالَ الْقَبِيحَةَ الَّتِي يَكْتُبُونَهَا فَإِنَّ اللهَ خَلَقَهُمْ كِرَامًا فِي خَلْقِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ ثُمَّ قَالَ مَا مَعْنَاهُ: إِنَّ مِنْ كَرَمِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَدْخُلُونَ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ وَلَا جُنُبٌ وَلَا تِمْثَالٌ وَلَا يَصْحَبُونَ رُفْقَةً مَعَهُمْ كَلْبٌ أَوْ جَرَسٌ.

[٢٤] وَرَوَى مَالِكٌ وَالْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»، (٢) وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾[الإسراء]. (٣)

[٢٥] وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ حَدِيثَ: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِي مَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ». (٤)

---

(١) «مسند» البزار كما في «كشف الأستار» رقم: (٣١٧).

(٢) «موطأ» مالك (١/ ١٧٠)، و«صحيح البخاري» حديث رقم: (٥٥٥)، و«صحيح مسلم» حديث رقم: (٦٣٢).

(٣) رواه البخاري في «صحيحه» رقم: (٤٧١٧)، ومسلم رقم: (٦٤٩).

(٤) «مسند أحمد» حديث رقم: (٩٢٧٤-الرِّسالة)، و«صحيح مسلم» حديث رقم: (٢٦٩٩). عن أبي هريرة.

[٢٦] وَفِي «الْمُسْنَدِ» وَ«السُّنَنِ» حَدِيثُ: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًى بِمَا يَصْنَعُ». وَالْأَحَادِيثُ فِي ذِكْرِهِمْ عَلَيْهِمُ السَّلام كَثِيرَةٌ جِدًّا. (١)

هٰذه الأحاديث المتنوِّعة منها ما هو صحيح الإسناد، ومنها ما لا يصحُّ، وأهل العلم إذا أتوا إلىٰ أصلٍ من الأصول في تقريره فإنَّهم يسوقون ما في الباب من الأحاديث، كما هي طريقة أهل العلم الرَّاسخين فيه من المتقدِّمين والمتأخِّرين.

قال شيخ الإسلام في أحد أجوبته علىٰ منهج أهل الحديث قال: وأهل الحديث لا يستدلُّون بحديثٍ ضعيفٍ في أصلٍ من الأصول بل إمَّا في تأييده أو في فرعٍ من الفروع، أو كما قال.(٢)

يعني: أنَّه لا يُخترع أصلٌ بحديثٍ ضعيفٍ لا يثبت، وإنَّما إذا كان الأصل ثابتًا فإنَّ منهج أهل الحديث أنَّها تُساق الأحاديث سواءٌ منها ما صحَّ أو ما لم يصحَّ إسناده تأييدًا لذلك الأصل وبيانًا لكثرة ما ورد في ذلك؛ لأنَّ الحديث الضَّعيف قد يكون صحيحًا وإنَّما حكمنا بضعفه لسوء حفظ راويه أو لانقطاعٍ فيه أو نحو ذلك، رعايةً وحمايةً لكلام المُصطفىٰ ﷺ، وإلَّا فقد يكون صحيحًا، ولذلك إذا كان في أصلٍ من الأصول فإنَّه يؤيَّد به.

وهٰذا التَّأييد علىٰ قسمين في طريقة أهل الحديث المتقدِّمين منهم والمتأخِّرين يعني من حفَّاظ الحديث ورواته:

- إمَّا تأييدٌ كاملٌ يعني: تأييدًا لجميع الأصل.
- وإمَّا تأييدٌ ناقصٌ يعني: تأييدًا لبعض [ما جاء في الأصل.

وفي بعض الأحاديث الَّتي ذكرها الشَّيخ رواياتٌ ضعيفةٌ] ولكنَّها دالَّةٌ علىٰ وجود الملائكة وعلىٰ أسمائهم وعلىٰ تقاسيمهم ونحو ذلك.

فالأصل هو وجود الملائكة وأنَّهم أقسامٌ وأنَّ منهم كذا ومنهم كذا وأنَّهم متنوِّعون إلىٰ آخر ذلك، هٰذا هو الأصل الَّذي تُحشد له الأدلَّة لأنَّ المقصود الإيمان بالملائكة والإيمان بالملائكة يحصل بمجموع هٰذه الأحاديث، فنعلم منها أنَّ الملائكة خلقٌ عظيمٌ من خلق الله جلَّ وعلا مُكرَمون مُقرَّبون وأنَّهم عبادٌ إلىٰ آخره، فيحصل من جملة هٰذه الأحاديث صفاتٌ عامَّةٌ هي ثابتةٌ لكثرة ما جاءت الرِّوايات في تدعيم هٰذا الأصل العظيم.

يأتي بعض الفقرات يكون هل هٰذا ثابتٌ أو غير ثابتٍ في بعض الصِّفات أو غيرها، هٰذا يتبع صحَّة الحديث من عدمه.

---

(١) «مسند أحمد» حديث رقم: (١٨٠٨٩-الرِّسالة)، و«جامع الترمذي» حديث رقم (١٥٨)، و«سنن النسائي» حديث رقم (١٥٨). من حديث صفوان بن عسَّال المُرادي.

(٢) قال شيخ الإسلام في «مجموع فتاويه» الجزء الرَّابع: **وأهل الحديث لا يستدلُّون بحديثٍ ضعيفٍ في نقض أصلٍ عظيمٍ من أصول الشَّريعة بل إمَّا في تأييده وإمَّا في فرعٍ من الفروع.**

وهٰذا حتَّىٰ في العقائد في مباحث العقيدة وفي صفات الله جلَّ وعلا أو في العرش وما جاء فيه أو في العلوِّ أو نحو ذلك، تجد أنَّ طريقة أهل الحديث -رحمهم الله تعالىٰ- أنَّ طريقتهم أن يحشدوا ما في الباب فيكون إيرادهم مُدعِّمًا للأصل فيكون هٰذا التَّأييد كما ذكرت لك هناك تأييدٌ إجماليٌّ وثَمَّ تأييدٌ تفصيليٌّ.

فالتَّأييد الإجماليُّ بكثرة الرِّوايات يحصل التَّأييد.

أمَّا التَّأييد التَّفصيليُّ فمن أراد أن يحتجَّ بكلمةٍ علىٰ عقيدةٍ أو علىٰ أمرٍ غيبيٍّ فلا شكَّ أنَّها لا بدَّ أن تثبت لكن لا يمنع هٰذا من روايتها والاستدلال بها والاستشهاد كما هو طريقة أهل العلم -كما ذكرنا لكم-.

من حيث الأحاديث الَّتي ذكرها واضحةٌ بيِّنةٌ لا تحتاج إلىٰ مزيد بيانٍ.

(**الْكُرُوبِيُّونَ**) أوضحنا لكم معناه في الدَّرس الماضي، وتقاسيم الملائكة ومُهمَّتهم كلُّها مُوضَّحةٌ هنا لا يوجد إن شاء الله ما يُشكل.

الدَّرس الثَّاني عشر

٦- بَابُ

الْوَصِيَّةُ بِكِتَابِ اللهِ ﷻ

[١] وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف].

[٢] وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَطَبَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبُ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ فِيهِ الْهُدَىٰ وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ وَتَمَسَّكُوا بِهِ» فَحَثَّ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَأَهْلُ بَيْتِي» وَفِي لَفْظٍ: «كِتَابُ اللهِ هُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَىٰ الضَّلَالَةِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.(١)

[٣] وَلَهُ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ الطَّوِيلِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَ عَرَفَةَ: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابَ اللهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ قَالَ بِأُصْبُعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَىٰ النَّاسِ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.(٢)

هٰذا الباب ذكره الإمام رحمه الله تعالىٰ في «أصول الإيمان» لأنَّ الإيمان بكتب الله جلَّ وعلا ركن الإيمان، فأركان الإيمان ستَّةٌ والإيمان بالكتب أحد هٰذه الأركان السِّتَّة، وأعظم درجات الإيمان بكتب الله جلَّ وعلا الإيمان بأعظم كتب الله وأفضلها وحجَّتِها علىٰ المُكلَّفين بعد بعثة محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام وهو القرآن، وهو الَّذي أمر الله جلَّ وعلا باتِّباعه وتوعَّد من خالفه ولم يأخذ به فقال سبحانه: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾[الأعراف]، فالله جلَّ وعلا عظَّم الأخذ بكتابه من جهة الإيمان به وتصديق ما فيه والعمل بمُحكمه والإيمان بمُتشابهه.

وحقيقة الإيمان بالقرآن أنَّها تشمل مراتب -وهٰذه كلُّها واجبةٌ ومن معنىٰ الرُّكنيَّة أو داخلةٌ كلُّها في الإيمان بهٰذا الرُّكن-:

المرتبة الأولىٰ: أنَّ هٰذا القرآن كلام الله جلَّ وعلا المُنزَّل علىٰ عبده محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام.

المرتبة الثَّانية: أنَّ القرآن حقٌّ لا باطلَ فيه.

المرتبة الثَّالثة: أنَّ القرآن هو آخر كتب الله جلَّ وعلا، وأنَّه لا كتاب بعده ولا هدىٰ يأتي من الله جلَّ وعلا بعده لعباده، فكما أنَّ محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام خاتم الأنبياء والمُرسلين، فكذلك القرآن هو خاتم كتب الله جلَّ وعلا وحُجَّة الله علىٰ هٰذه الأمَّة، وهو الصِّراط المستقيم وهو حبل الله المتين من أخذ به هُدي ومن تركه ضلَّ.

الإيمان بالقرآن علىٰ درجتين:

درجةٌ واجبةٌ والَّتي هي الرُّكن، من لم يأت بها فلا يصحُّ منه الإيمان، وهي الَّتي ذكرت لك من المراتب الثَّلاث.

---

(١) «صحيح مسلم»حديث رقم: (٢٤٠٨).

(٢) «صحيح مسلم» حديث رقم: (١٢١٨).

والدَّرجة الثَّانية مُستحبَّةٌ: والمُستحبَّة وهي الإيمان بكلِّ التَّفاصيل الَّتي جاءت في القرآن أو في السُّنَّة وما جاء من تفسيرها، فهٰذه مُستحبَّةٌ إجمالًا؛ يعني قبل علم الإنسان بها، فإنَّه يُقال: يؤمن ولو لم يعلم بما للقرآن من فضل، ويجبُ الإيمان بها لمن علمها علىٰ وجه التَّفصيل، وقال كثيرٌ من أهل العلم: إنَّها واجبةٌ وليست مستحبَّةً من جهة الإجمال، فإنَّه يجبُ عليه أن يؤمن بما للقرآن من فضلٍ علمه أو لم يعلمه -من جهة الإجمال- وإذا علم التَّفصيل فإنَّه يجب التَّفصيل.

وعند التَّحقيق يعني القولان متقاربان؛ لأنَّه في الحقيقة من جهةٍ عمليَّةٍ لا فرق بينهما كبيرٌ.

ذكر لك حديث زيد بن أرقم وفيه وصيَّة النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام للنَّاس، وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ فِيهِ الْهُدَىٰ وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ وَتَمَسَّكُوا بِهِ» قال: فَحَثَّ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ وَرَغَّبَ فِيهِ ثُمَّ قَالَ: «وَأَهْلَ بَيْتِي») وهٰذه العبارة استُدلَّ بها علىٰ أنَّ الثَّقلين: كتاب الله جلَّ وعلا وأهل بيت النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام.

والمُحقِّقون من أهل العلم يقولون: إنَّ حديث زيد بن أرقم هٰذا فيه اختصارٌ ودخل كلام زيدٍ بعضُه في بعضٍ، وزيدٌ في أوَّله كما رواه مسلمٌ ذكر أنَّه نسي أشياء، فهٰذا الحديث يُحمل فيه قوله: «وَأَهْلَ بَيْتِي» أنَّها جملةٌ مستقلَّةٌ لا علاقة لها بالثَّقلين، فذكر عليه الصَّلاة والسَّلام أحد الثَّقلين وهو كتاب الله، «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ كِتَابُ اللهِ» وسكت عن الثَّاني أو لم يذكره، يعني سكت (زيدٌ) في سياقه عن الثَّاني -ثمَّ انتقل إلىٰ قوله: «وَأَهْلَ بَيْتِي»، «وَأَهْلَ بَيْتِي» منصوبةٌ «وَأَهْلَ بَيْتِي» يعني: وأذكِّركم الله في أهل بيتي، أو أوصيكم بأهل بيتي، أو لا تنسوا أهل بيتي، لأنَّ التَّمسُّك في الواقع ليس هو بأهل البيت وإنَّما هو بما أنزل الله جلَّ وعلا من الحجَّة.

وهٰذا ما جاء في حديثٍ آخر رواه الحاكم وغيره: أنَّ الثَّقلين كتاب لله جلَّ وعلا وسنَّتي، كما قال: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبَدًا كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي».[1]

فإذن لفظ «أَهْلَ بَيْتِي» هٰذا يستدلُّ به الرافضة والرِّواية في «صحيح مسلم» لكن علىٰ التَّحقيق لمن قرأ الحديث كلَّه حتَّىٰ في الصَّحيح فإنَّك تجد أنَّ زيدًا رضي الله عنه ذكر أنَّه نسي أشياء وذكر ما ذكر ولم يترتَّب الكلام، واتِّفاق الأحاديث أولىٰ من تعارضها.

وأهل البيت -لا شكَّ- أنَّ تقديمهم واعتقاد فضلهم ومحبَّتهم وأشباه ذلك أنَّ هٰذا فرضٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ، أن يحبَّ أهل بيت النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ ولكن أن يكون أهل البيت أحد الثَّقلين ويقرنون بكتاب الله جلَّ وعلا! فهٰذا ليس علىٰ ظاهره -كما جاءت في الرِّواية- وإنَّما دخل فيها حذفٌ.

والحديث الثَّاني المعروف حديث جابرٍ الطَّويل الَّذي رواه مسلمٌ في «صحيحه» في سياق حجَّة النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام ذكر فيه خطبة النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام وفيها قوله: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابَ اللهِ» -ولم يذكر السُّنَّة لأنَّ السُّنَّة في كتاب الله جلَّ وعلا، فإذا ذُكر الكتاب فإنَّ السُّنَّة مذكورةٌ في ضمن الكتاب لأنَّ الله جلَّ وعلا هو الَّذي أوجب طاعة الرَّسول ﷺ وبيَّن أنَّه أنزل عليه الحكمة وأعطاه البيان عمَّا في القرآن.

(١) «مستدرك الحاكم» (١/ ١٧٢). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[٤] وَعَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ»، قُلْتُ: مَا الْمَخْرَجُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «كِتَابُ اللهِ فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، هُوَ الْفَصْلُ، لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنِ ابْتَغَىٰ الْهُدَىٰ مِنْ غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّىٰ قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾[الجنُّ]، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: غَرِيبٌ.(١)

أمَّا حديث عليٍّ ففيه وصف القرآن وهو حديثٌ مشهورٌ معروفٌ عند أهل العلم، وهٰذه الأوصاف الَّتي وُصِف بها القرآن كلُّها حقٌّ وكلُّها صوابٌ، فالقرآن موصوفٌ بهٰذه الأوصاف الجليلَة العظيمة، بل كتاب الله جلَّ وعلا كما وُصِف وأعظم من ذلك.

والحديث الصَّواب أنَّه موقوفٌ علىٰ عليٍّ رضي الله عنه ولا يصحُّ مرفوعًا؛ لأنَّه من رواية الحارث الأعور عن عليٍّ، والحارث ضعيفٌ أو اتُّهم بأعظم من الكذِب ونحو ذلك.

المقصود: أنَّ هٰذا يصحُّ موقوفًا علىٰ عليٍّ، وقد قال جمعٌ من أهل العلم بأنَّه موقوفٌ علىٰ عليٍّ أشبه من كونه مرفوعًا.

ولا شكَّ أنَّ القرآن هو المخرج من الفتنة «أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ» فتنةٌ يعني: جنس الفتن، ما المخرج من الفتن إذا أقبلت؟ كتاب الله جلَّ وعلا، فالَّذي يستمسك بما في القرآن ويؤمن بالمُحكم ويدع المتشابه فقد خرج من الفتنة؛ لأنَّ كلَّ فتنةٍ تأتي لا بدَّ لها مستمسك من بعض الحقِّ، ولا تأتي فتنةٌ في المسلمين وهي واضحٌ أنَّها علىٰ باطلٍ واضحٌ أنَّها من بدايتها باطلٌ في باطلٍ؛ لأنَّها لو كانت كذلك لما اشتبهت ولما أُقرَّت ولما افتُتِن بها النَّاس، فلا تكون فتنةً إلَّا إذا كان فيها نوع لَبُوسٍ حقٌّ يشتبه معه الباطل الَّذي فيها، ولذلك الفتن من جنس البدع في ذلك، فإذا أقبلت فإنَّ الَّذي يأخذ بالمُحكم فيها وينظر الأمر ببصيرةٍ بما جاء في القرآن وبسنَّة النَّبيِّ ﷺ فإنَّه يَخرُج من الفتنة.

أمَّا الَّذي يأخذ بالشُّبهة فإنَّه يقعُ في الفتنة، لهٰذا فإنَّ الفتن الَّتي وقعت في تاريخ الإسلام من فتن الصَّحابة إلىٰ يومنا هٰذا، كلُّ فتنةٍ تحصل تجد أنَّ عند الطَّرف المذموم نوع حقٍّ؛ لكنَّه ليس بصاحب حقٍّ، فإنَّ الَّذي معه من الباطل أكثر ممَّا معه من الحقِّ، ولهٰذا فإنَّ النَّظر والبصر النَّافذ وقت حلول الشُّبهات ووقت حلول الفتن إنَّما يكون بمعرفة كتاب الله جلَّ وعلا وما فيه من الأوامر والنَّواهي، ولهٰذا ذكر الله جلَّ وعلا أهل الزَّيغ فقال جلَّ وعلا في أوَّل سورة آل عمران: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾[آل عمران:٧]، ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ يعني: هم يقصدون الفتنة أو أنَّ حقيقة فعلهم أنَّهم لمَّا تركوا المُحكم واتَّبعوا المتشابه لأجل الزَّيغ الَّذي في قلوبهم سلكوا الفتنة وإن لم يعترفوا بأنَّهم سلكوا

(١) «جامع الترمذي» حديث رقم: (٢٩٥٦). قال الترمذي: هٰذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول.

الفتنة، ولهٰذا جرىٰ ما جرىٰ في عهد الصَّحابة من فتنة الخوارج.

عثمان ما قُتِل إلَّا بالتَّأويل -بتأويل القرآن-، ولا قام معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علىٰ عليٍّ إلَّا بتأويل القرآن بتأويل قوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾[الإسراء:٣٣]، ولا قاتل من قاتل في يوم الجمل وصفِّين إلَّا بالتَّأويل، ولا سُفِك دم عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلَّا بالتَّأويل ولا ولا إلىٰ آخره، فكلُّ هٰذه الفتن الَّتي حصلت وأعظمها قتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ آخر الفتن من التَّقرُّب – والعياذ بالله – إلىٰ الله جلَّ وعلا بالفتنة فإنَّ هٰذا إنَّما حصل بأنواع التَّأويل؛ ذلك من استمسك بالقرآن فإنَّه يخرج من الفتنة.

وهٰذا من نعم الله جلَّ وعلا علىٰ الرَّاسخين في العلم، ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾[آل عمران]، فما يدخل في الفتنة إلَّا ناقص العلم، وأمَّا من كان علمه راسخًا أو أخذ عن الرَّاسخين في العلم فإنَّه لا تنطلي عليه الفتنة؛ لأنَّ حقيقة الافتتان اشتباه الحقِّ بالباطل، والباطل – في الواقع – لا يشبه الحقَّ، الباطل لا يشبه الحقَّ، ولهٰذا فإنَّ الواجب علىٰ كلِّ مسلمٍ وعلىٰ طلبة العلم بالخصوص أن يعتنوا بكتاب الله جلَّ وعلا أعظم عنايةٍ وأن يعلموا المُحكمات فيه والمُتشابهات، وأن يعلموا ما أجمع عليه السَّلف من عقائدهم وما ذكروه في كتبهم، وما ذكروه في مجمل السُّنَّة الَّتي بيَّنوا بها القرآن، فإنَّ الاستمساك بذلك هو تفسير الاستمساك بالقرآن، فمن معه القرآن فقد خرج من الفتنة.

ومن الفتنة أن يقول المفتتن للآخر: أنت الَّذي وقعت في الفتنة؛ لأنَّك لم تأخذ بالقرآن، فيستدلُّ بالمتشابه، ثمَّ يتَّهم غيره بأنَّه هو الَّذي افتُتن عن القرآن لأنَّه ما أخذ بما أخذ به.

فالخوارج ذمُّوا الصَّحابة، عبد الرَّحمٰن بن ملجَم رأسٌ من رؤوس الخوارج الَّذي قتل عليًّا كان من خاصَّة أصحاب عمر، ولمَّا رآه عمر في المدينة – وكان كثير التِّلاوة عابدًا كثير القرآن يرغب في إقراء القرآن – قال لعمر: أُريد أن أنفع النَّاس، فكتب عمر إلىٰ واليه علىٰ مصر – أظنُّه عمرو بن العاص – فقال له: إنِّي مرسلٌ إليك رجلًا آثرتك به علىٰ نفسي هو عبد الرَّحمٰن بن ملجَم فإذا أتاك بكتابي هٰذا فاتَّخذ له دارًا يقرئ النَّاس فيها القرآن، فلمَّا ذهب إلىٰ عمرٍو أكرمه بإكرام أمير المؤمنين له واتَّخذ له دارًا لكنَّه لم يكن فقيهًا ولم يكن عالمًا يعرف المُحكم والمُتشابه، ولم يكن عالمًا بالسُّنَّة، لم يأخذ عن الصَّحابة أخذًا كثيرًا وإنَّما كان عنده عبادةٌ وعنايةٌ بالقرآن بخصوصه، فدخله أصحاب ابن السَّوداء وضلَّلوه بأشياء وقعت من عثمان من التَّصرُّفات الماليَّة والولايات ونحو ذلك ممَّا عثمان فيها معذورٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، آل به الأمر إلىٰ أن يشترك في قتل عثمان ثمَّ يخرج ثمَّ يصل به الأمر إلىٰ قتل عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولمَّا قتله قتله احتسابًا، ولهٰذا قال شاعرهم شاعر الخوارج عمران بن حطَّان عليه من الله ما يستحقُّ، قال مادحًا لعبد الرَّحمٰن بن ملجَم في قتله لعليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه:

يا ضربةً من تقيٍّ ما أراد بها ... إلَّا ليبلغ من ذي العرش رضوانًا

إنِّي لأذكره حينًا فأحسَبه ... أوفىٰ البريَّة عند الله ميزانًا

فهٰذا مدحٌ متأخِّرٌ لقاتل عليٍّ ديانةً، يرون أنَّ هٰذا ديانةٌ، قتل عليٍّ ديانةٌ ويرون أنَّه أوفىٰ البريَّة عند الله ميزانًا حينما خلَّص النَّاس من أفضل من علىٰ الأرض في وقته وهو عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولمَّا أرادوا قتل

عبد الرَّحمٰن بن ملجَم قال لهم – وكان بعد قتل عليٍّ يسبِّح ويذكر كثيرًا– فلمَّا أرادوا قتله قال: لا تقتلوني دَفعةً واحدةً بل قطِّعوا أطرافي وأنا أنظر حتَّىٰ أسبِّح الله جلَّ وعلا وأذكره أطول، وهٰذا كما قال النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام في صفة الخوارج: «**يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»(١).

فإذن المسألة في الفتنة ليست هي في الواقع الرجل صالحٌ أو ليس بصالح مطيعٌ أو غير مطيعٍ عابدٌ أو ليس بعابدٍ، هٰذه أشياء ليست هي الميزان إنَّما الميزان: هل هو متبِّعٌ لكتاب الله جلَّ وعلا بما قرَّره السَّلف بما قرَّره الصَّحابة بما قرَّره أئمَّة الإسلام أم لم يتَّبع ذلك؟

فإن كان أخذ بهٰذا فهو النَّاجي وإلَّا فإنَّ الفتن كثيرةٌ والاحتجاج بالشُّبهات كثيرٌ، لهٰذا قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ﴾[آل عمران:٧]، فالحظُّ وجود الزَّيغ قبل اتِّباع المتشابه، ولو لم يكن في القلب زيغٌ لكان آمن بالمُتشابه كما آمن بالمُحكم ولم يشتبه عليه الأمر.

فالحقيقة أنَّ المخرج من الفتنة هو كتاب الله جلَّ وعلا وما فيه من الأحكام –الأمر والنَّهي– وما فيه من الأخبار والعقائد.

وهٰذه المسألة عظيمةٌ عظيمةٌ جدًّا لكنَّ الله جلَّ وعلا ابتلىٰ عباده بالفتن والأقوال المضلَّة لينظر من يتَّبع القرآن ومن يتَّبع هواه، والله المستعان.

أنجانا الله وإيَّاكم من الفتن المضِلَّة ما ظهر منها وما بطن.

اللَّهمَّ ألزمنا السُّنَّة قولًا وعملًا واعتقادًا، ونعوذ بك من الحور بعد الكور، ومن الضَّلالة بعد الهدىٰ، اللَّهمَّ ثبِّتنا يا كريم، والله المستعان.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد ﵁.

الدَّرس الثَّالث عشر

[٥] وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَا أَحَلَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلَالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَافِيَةٌ، فَاقْبَلُوا مِنَ اللهِ عَافِيَتَهُ، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَكُنْ لِيَنْسَى شَيْئًا» ثُمَّ تَلَا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾[مريم]. رَوَاهُ الْبَزَّارُ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالطَّبَرَانِيُّ.(١)

[٦] وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعِنْدَ رَأْسِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: اسْتَقِيمُوا عَلَى الصِّرَاطِ وَلَا تَعْوَجُّوا، وَفَوْقَ ذَلِكَ دَاعٍ يَدْعُو كُلَّمَا هَمَّ عَبْدٌ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ» ثُمَّ فَسَّرَهُ فَأَخْبَرَ أَنَّ «الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ الْإِسْلَامُ، وَأَنَّ الْأَبْوَابَ الْمُفَتَّحَةَ مَحَارِمُ اللهِ، وَأَنَّ السُّتُورَ الْمُرْخَاةَ حُدُودُ اللهِ، وَأَنَّ الدَّاعِيَ عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ هُوَ الْقُرْآنُ، وَأَنَّ الدَّاعِيَ مِنْ فَوْقِهِ هُوَ وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ» رَوَاهُ رُزَيْنٌ، وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ بِنَحْوِهِ.(٢)

[٧] وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فَقَرَأَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾[آل عمران]، قَالَتْ: قَالَ: «فَإِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.(٣)

[٨] وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ» ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَقَالَ: «هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ» وَقَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام]. رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالدَّارِمِيُّ وَالنَّسَائِيُّ.(٤)

[٩] وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَكْتُبُونَ مِنَ التَّوْرَاةِ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ أَحْمَقَ الْحُمْقِ وَأَضَلَّ الضَّلَالَةِ قَوْمٌ رَغِبُوا عَمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّهُمْ إِلَيْهِمْ إِلَى نَبِيٍّ غَيْرِ نَبِيِّهِمْ وَإِلَى أُمَّةٍ غَيْرِ أُمَّتِهِمْ» ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾[العنكبوت]. رَوَاهُ الْإِسْمَاعِيلِيُّ فِي «مُعْجَمِهِ» وَابْنُ

---

(١) «كشف الأستار» للبزار رقم (١٢٣) (رقم: ٢٢٣١)، قال البزار: إسناده صالح. قال الهيثمي (١/ ١٧١): رواه البزار والطبراني في «الكبير» وإسناده حسن، ورجاله موثوقون.

(٢) رواه رزين كما في «مشكاة المصابيح» (١/ ٦٧) (رقم: ١٩١). و«مسند أحمد» حديث رقم (١٧٦٣٤ -الرِّسالة)، و«جامع الترمذي» رقم: (٢٨٥٩). قال الترمذي: غريب. قال الحاكم (١/ ٧٣): صحيح على شرط مسلم ولا أعرف له علة، ووافقه الذهبي.

(٣) «صحيح البخاري» حديث رقم: (٤٥٤٧)، و«صحيح مسلم» حديث رقم: (٢٦٦٥)، وسيأتي أيضا (باب٩، رقم٤).

(٤) «مسند أحمد» حديث رقم: (٤١٤٢-الرسالة)، و«سنن الدارمي» حديث رقم: (٢٠٨)، «السنن الكبرى» للنسائي حديث رقم: (١١١٧٤).

مَرْدُويَهْ.[١]

[١٠] وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ ثَابِتِ بْنِ الْحَارِثِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِكِتَابٍ فِيهِ مَوَاضِعُ مِنَ التَّوْرَاةِ فَقَالَ: هٰذِهِ أَصَبْتُهَا مَعَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَعْرِضُهَا عَلَيْكَ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَغَيُّرًا شَدِيدًا لَمْ أَرَ مِثْلَهُ قَطُّ. فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْحَارِثِ لِعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَمَا تَرَى وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ عُمَرُ: رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، فَسُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالَ: «لَوْ نَزَلَ مُوسَى فَاتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ أَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَأَنْتُمْ حَظِّي مِنَ الْأُمَمِ» رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَابْنُ سَعْدٍ وَالْحَاكِمُ فِي «الْكُنَى».[٢]

الحمد لله وبعد،

هٰذه الأحاديث فيها ذكر أوصافٍ للقرآن والوصيَّة بكتاب الله جلَّ وعلا، وهٰذه الوصايا من النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام والأوصاف تجمع للقرآن أوصافُ الهداية والتَّشريع وما هو في باب الأخبار وما هو في باب الأحكام.

الحديث الأوَّل في باب الأحكام قال: «مَا أَحَلَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلَالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَافِيَةٌ» فهٰذا في باب الأحكام، لا شكَّ أنَّ المرجع في الحكم إلىٰ القرآن، فما وجدناه في القرآن حلالًا أحللناه وما وجدناه في القرآن حرامًا حرَّمناه، وما حرَّمه النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام هو في القرآن، كما قال ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لمَّا ذكر لعْن الله جلَّ وعلا للنَّامصة والمتنمِّصة، قال: وإنَّ ذلك لفي كتاب الله. قالت امرأةٌ: إنِّي عرضت ما بين دفَّتي المُصحف فلم أجد فيه ما تقول، قال: لئن كنت عرضتيه قد وجدتيه ألم تقرئي قول الله جلَّ وعلا: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[الحشر:٧]، وإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَعَنَ...» إلىٰ آخره[٣]، فاللَّعن الَّذي في هٰذا الحديث ما جاء في القرآن وابن مسعودٍ قال: إنَّه في القرآن، لأنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام هو الَّذي لعن وهو الَّذي أخبرهم.

فإذن هٰذا الحديث وأمثاله ممَّا فيه ذكر القرآن «مَا أَحَلَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلَالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ» السُّنَّة داخلةٌ ممَّا أحلَّ الله في كتابه أو ما حرَّم في كتابه، ولا يصدق هٰذا علىٰ ما جاء في الحديث الآخر: «**أَنَّهُ يُوشِكُ أن يكون رَجُلٌ شَبْعَانٌ عَلَىٰ أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي فَيَقُولُ: مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللهِ مِنْ حَلَالٍ أَحْلَلْنَاهُ وَمَا وَجَدْنَا مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ، أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللهُ**»[٤] فهٰذا بابٌ آخر.

فهٰذا وصفٌ للقرآن في باب الحكم والتَّشريع والتَّحليل والتَّحريم، فنأخذه من القرآن، فالوصيَّة إذن

---

(١) «معجم الإسماعيلي» حديث رقم: (٣٨٤)، وعزاه في «الدر المنثور» إلىٰ ابن مردويه.

(٢) «مصنف عبد الرزاق» حديث رقم: (١٠١٦٤) وللحديثِ شواهد تقويهِ، وتصححه؛ انظرها في «إرواء الغليل» (١٥٨٩) للعلامة الألباني.

(٣) رواه البخاري (٤٨٨٦)، ومسلم (٢١٢٥).

(٤) رواه أبو داود (٤٦٠٤)، والترمذي (٢٦٦٤)، وابن ماجه (١٢) من حديث المقدام بن معدي كرب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

لمعرفة الحلال والحرام والحكم به ألَّا يخوض النَّاس بآرائهم بل عليهم بهٰذا القرآن، والشَّيء إذا ما ذُكر في القرآن فالأصل فيه أنَّه عفوٌ، إذا لم يذكر في القرآن لا نصًّا ولا بالمضمون ولا في السُّنَّة فالأصل أنَّه عفوٌ كما قال هنا: «وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَافِيَةٌ، فَاقْبَلُوا مِنَ اللهِ عَافِيَتَهُ» هٰذا أصلٌ شرعيٌّ عظيمٌ؛ لأنَّ الأصل في الأشياء العفو، الأصل في الأشياء عدم التَّحريم، الأصل في الأشياء الإباحة إلَّا إذا ورد دليلٌ في ذلك بالتَّحريم، والواحد ما يتكلَّم في الأدلَّة لأنَّ تحريم الحلال كتحليل الحرام، بعض النَّاس يتورَّع ويخاف ويحصل عنده رِعدةٌ شديدةٌ إذا أراد أن يقول: إنَّ الزِّنا حلالٌ – لا شكَّ لأنَّ ذلك كفرٌ – أو يقول: إنَّ مقدِّمات الزِّنا حلالٌ أو يقول: إنَّ الرِّبا أو صور الرِّبا إنَّها حلالٌ، هٰذا يرتعد منه ويخاف؛ لأنَّه يعلم أنَّ هٰذا تحليل محرَّم، كذلك تحريم الحلال أيضًا محرَّمٌ ومن القول علىٰ الله بلا علم، والقول علىٰ الله جلَّ وعلا بلا علمٍ أعظم من الشِّرك – يعني من حيث الجنس – لذلك جعله الله جلَّ وعلا آخر المراتب فقال: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[الأعراف]، فالقول علىٰ الله بلا علمٍ كتحليل الحرام أو تحريم الحلال كذلك، ولهٰذا ما يجوز لأحدٍ أن يقول: هٰذا الشَّيء حرامٌ إلَّا وعنده برهانٌ واضحٌ، ولهٰذا تجد أهل الورع من أهل العلم والفتوىٰ والَّذين يخافون علىٰ أنفسهم ما تجدهم يستعملون (هٰذا حرامٌ) إنَّما يقولون: هٰذا ما يصلح أن اتركه، نكرهه أو مثل ما يقول الإمام أحمد: (أكرهه) الكراهة الَّتي استعملت في كلام العلماء وجاء الفقهاء في تفسيرها وقالوا: إنَّها كراهة تحريم، لأنَّه أحيانًا ما يكون عنده نصٌّ واضحٌ فيها ولا يجوز له أن يصف شيئًا بالحرمة وهو ليس عنده من الله برهانٌ واضحٌ في ذلك، ثَمَّ حسابٌ تقول علىٰ الله بلا علم، حرَّم الله جلَّ وعلا هٰذا، ما هو برهانك علىٰ أنَّ هٰذا حرامٌ؟ لهٰذا ينبغي علىٰ المرء أن يتورَّع جدًّا في الكلام، إذا كان من باب الإرشاد: هٰذا ما يصلح أتركه.. كذا، لكن لا يحرِّم شيئًا ما عنده فيه بيِّنةٌ واضحةٌ من الله جلَّ وعلا؛ لأنَّ هٰذا قولٌ علىٰ الله جلَّ وعلا بلا علم.

الحديث الثَّاني: فيه مَثَلٌ عظيمٌ من الأمثال الَّتي ضربها النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام للقرآن فقال في وصفه: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَىٰ جَنَبَتَي الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ»، هٰذا الصِّراط المستقيم هو: القرآن، «وَعَلَىٰ جَنَبَتَي الصِّرَاطِ سُورَانِ»، السُّوران: يعني أنَّه يوجد حاجزٌ علىٰ اليمين والشِّمال فالمرء ماشٍ علىٰ الصِّراط بمقتضىٰ الفطرة مقتضىٰ إيمانه، لكن ثَمَّ أبوابٌ مفتَّحةٌ والنَّفس يغريها الباب المفتوح أنَّها تلتفت إليه وتلج وتشوف ووش فيه، قال: «وَعَلَىٰ جَنَبَتَي الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ» الأبواب المفتَّحة أيضًا ما تركها الله جلَّ وعلا مفتَّحةً لكن جعل عليها ستورًا مرخاةً فتحتاج إلىٰ جرأةٍ أنَّك تفتح السِّتر وتزيله وتدخل تشوف قال: «عَلَىٰ الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ»، فالأبواب عليها ستورٌ والسُّتور تحجز من أنَّك ترىٰ فأنت منشغلٌ بالقرآن باتِّباعه والأنس به منشغلٌ بهٰذا الأمر العظيم الَّذي تنادىٰ عليه، وهٰذه أبوابٌ مفتَّحةٌ لكن عليها ستورٌ يعني: مثل المساكن الَّتي تستر أهلها علىٰ ما فيها من النَّظر إليها، فالله جلَّ وعلا بعظم القرآن في نفوس أهله وعظم الإيمان في نفوس أهله جعل ثمَّة حاجزًا يجده كلُّ مؤمنٍ في نفسه أن يلتفت إلىٰ أبواب الذُّنوب المختلفة الَّتي جعل الله عليها

ستورًا، لا بدَّ من كشفها لا يمكن أن تلج إلَّا أن تكشف واحدًا بمحض اختيارك وإلَّا بينك وبينها شيءٌ في نفسك ما تقبل عليه؛ لكن يأتي الشَّيطان وتأتي حظوظ النَّفس فتدخلها، فالقرآن مُثِّل بهٰذا التَّمثيل العظيم، قال: «وَعَلَىٰ الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعِنْدَ رَأْسِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: اسْتَقِيمُوا عَلَىٰ الصِّرَاطِ وَلَا تَعْوَجُّوا، وَفَوْقَ ذَلِكَ دَاعٍ يَدْعُوا كُلَّمَا هَمَّ عَبْدٌ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ»، ثُمَّ فَسَّرَهُ فَأَخْبَرَ أَنَّ «الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ الْإِسْلَامُ، وَأَنَّ الْأَبْوَابَ الْمُفَتَّحَةَ مَحَارِمُ اللهِ وَأَنَّ السُّتُورَ الْمُرْخَاةَ حُدُودُ اللهِ، وَأَنَّ الدَّاعِيَ عَلَىٰ رَأْسِ الصِّرَاطِ هُوَ الْقُرْآنُ وَأَنَّ الدَّاعِيَ مِنْ فَوْقِهِ هُوَ وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ»، الصِّراط هو الإسلام وهو القرآن مثل في تفسير الصِّراط المستقيم كلُّ هٰذه ألفاظٌ متقاربةٌ، فالنَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام جعل الدَّاعي هو القرآن والصِّراط هو الإسلام، يعني من حيث الاستقامة عليه، والقرآن لا شكَّ أنَّه يأمر وينهىٰ داعي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ... أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾[التَّحريم:٦] إلىٰ آخره، دعوة أمرٍ ونهيٍ والإسلام في النَّفس وواعظ الله في قلب كلِّ مؤمنٍ.

قوله: (رَوَاهُ رُزَيْنٌ) والمراد برزينٍ – كما هو معروفٌ لديكم أنَّه: رزين بن معاوية العبدريُّ، جمع الأصول الخمسة وكان له فيها زياداتٌ علىٰ «الصَّحيحين» وعلىٰ السُّنن لذلك تارةً يزيد الرِّواية يزيد اللَّفظ وتكون في أحد السُّنن مثل ما قال هنا: (رَوَاهُ رُزَيْنٌ، وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ) وإذا كان موجودًا في مصنَّف رزينٍ فإنَّه يكون في أحد الأصول الخمسة إلَّا ما زاده رزينٌ عليها، ولذلك تجد في جامع الأصول في عددٍ من الأحاديث يقول: رواه رزينٌ، ولا يذكر غيره من أصحاب الكتب.

حديث عائشة في اتِّباع المحكم وترك المتشابه بأنَّه يجب أخذ القرآن المحكم وترك المتشابه واضح، والأحاديث بعده واضحةٌ.

أمَّا ما جاء في ذكر قراءة التَّوراة وذكر الحديثين فيه: حديث عبد الله بن ثابتٍ الأنصاريِّ وحديث أبي هريرة فإنَّ فيها النَّهي عن قراءة التَّوراة والإنجيل لأنَّنا أُعطينا القرآن والوصيَّة بالقرآن ولا يجوز لأحدٍ ولا يحلُّ له أن ينظر في التَّوراة والإنجيل نظرًا للقراءة، لكن أباح العلماء للعلماء أن ينظروا فيها للرَّدِّ علىٰ اليهود والنَّصارىٰ ولإقامة الحجَّة عليهم أخذًا من إقرار النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام طلب عبد الله بن سلَّام في أن يؤتىٰ بالتَّوراة لمعرفة حدِّ الزَّاني فوضعوا يدهم علىٰ آية الرَّجم،[1] والله جلَّ وعلا يقول: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣﴾[آل عمران]، فهٰذا في مواضع الرَّدِّ عليهم لا لمجرَّد القراءة إعمالًا للدَّليل فيما جاء فيه.

أيضًا ممَّا له حكم التَّوراة والإنجيل كلُّ ما فيه إضلالٌ عن هدي النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام وسنَّته من الكتب المضِلَّة ككتب السِّحر والكهانة وضرب الرَّمل وكتب الضَّلال المختلفة في ذكر النُّجوم والأفلاك وتأثيراتها أو كتب الصَّابئة أو كتب الوثنيِّين في الاطِّلاع عليها، هٰذه لا شكَّ أنَّها كلَّها من الدِّين الباطل

(١) أخرجه البخاري، حديث رقم (٣٦٣٥)، ومسلم، حديث رقم (١٦٩١).

أصلًا، والتَّوراة والإنجيل فيها تحريفٌ، تحريف ألفاظٍ وزياداتٌ وفيها حذفٌ إلىٰ آخره، ففيها حقٌّ كثيرٌ ولذلك نؤمن بأصل التَّوراة والإنجيل الموجودة هٰذه الَّتي أنزلها الله جلَّ وعلا نؤمن بها ولا نُكذِّب بشيءٍ ممَّا أنزل ربُّنا؛ لكن هٰذه لمَّا جاء فيها التَّحريف وصارت الرِّسالة من النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام لهٰذه الأمَّة لم يجز النَّظر فيها، كيف يجوز النَّظر في كتب الوثنيِّين وكتب أهل السِّحر والشَّعوذة ونحو ذلك، ولهٰذا ضلَّ قومٌ زعموا أنَّ تعلُّم الأوقات جائزٌ وأنَّ النَّظر في هٰذه وتعلُّمها للرَّدع أنَّه لا بأس ونحو ذلك، لا شكَّ أنَّ هٰذا من أبطل الباطل فلا يجوز لأحدٍ أن يقرَّ ذلك ولا أن ينظر فيه هو إلَّا لعالمٍ يريد الرَّدَّ أو عالمٍ يريد إيضاح الشَّريعة عالمٌ مأمونٌ علىٰ ذلك يريد الرَّدَّ فإنَّ هٰذا يجوز بشرطه دون غيره.

[**سؤال:**] هل يُقاس علىٰ التَّوراة الاستماع للإذاعات الَّتي تتحدَّث عن دين النَّصارىٰ وعقائدهم؟

طبعًا، لا شكَّ بل تلك أخطر لأنَّ فيها دعايةً وفيها أسلوبًا قد يكون مُؤثِّرًا، فالاستماع لهم في بعض الإذاعات الَّتي تنشر دينهم لا شكَّ أنَّ هٰذا أعظم في التَّأثير في قراءة التَّوراة مجرَّدةً؛ لأنَّ هٰذه يصبغونها بدعايةٍ وبألفاظٍ جميلةٍ وربَّما بأصواتٍ حسنةٍ تغري السَّامع، فالمسلم يجب عليه أن يحافظ علىٰ دينه.

وسألت مرَّةً بعضُ الصَّالحين من أهل العلم – وأهل العلم إن شاء الله جميعًا فيهم صلاحٌ – قلت له وهو موجودٌ حيٌّ – الله يثبِّتنا وإيَّاه وينفعنا وإيَّاه – قلت له: كيف الحال عسىٰ الأمور مطمئنَّة وزينة، قال: الواحد ما يرتاح إلىٰ أن يموت. وهٰذه كلمةٌ ليست سهلةً، وفعلًا والمؤمن لا يرتاح حتَّىٰ يموت لأنَّه يطمئنُّ، ولأنَّ الحياة تقلُّبٌ فالواحد يصبح مؤمنًا قد يمسي غير ذلك، فالواحد لا يرتاح ولا يطمئنُّ إلَّا إذا جاءه الأجل وهو ثابتٌ، هٰذا الاطمئنان هٰذا القلب الحيُّ، والقلب عرضةٌ للتَّقلُّب والتَّنقُّل واليوم المغريات كثيرةٌ والشَّهوات والشُّبهات أكثر الآن، والشَّهوات تأثيرها وقتيٌّ يروح ويجيء لكن الآن الشُّبهات كثيرةٌ شبهاتٌ في أصل دين الإسلام، وشبهاتٌ من المسلمين فيما بينهم علىٰ التَّمسُّك بالهدىٰ الصَّحيح وطريقة الفرقة النَّاجية وأمورٌ كثيرةٌ، فالواحد فعلًا لا يطمئنُّ حتَّىٰ يلقىٰ الله جلَّ وعلا وهو ثابتٌ وعسىٰ الرَّبُّ جلَّ جلاله أن يكرمنا وإيَّاكم بعفوه ومنَّته ورحمته، فنحن ضعفاء لفضله ولو وُكِلنا أو إلىٰ علمنا أو إلىٰ ما قدَّمنا سنهلِك، لكن ما ثمَّ إلَّا عفو الله جلَّ وعلا.

اللَّهمَّ إنَّا نسألك العفو والعافية، اللَّهمَّ إنَّا نسألك العفو والعافية والمعافاة الدَّائمة في الدُّنيا والآخرة إنَّك سميعٌ قريبٌ.

الدرس الرابع عشر

٧- بَابُ

حُقُوقِ النَّبِيِّ ﷺ

[١] وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[النِّساء:٥٩] الْآيَةُ.

[٢] وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٥٦﴾[النُّور].

[٣] وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾[الحشر:٧] الْآيَةُ.

[٤] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَىٰ اللهِ ﷻ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ. (١)

[٥] وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ». (٢)

[٦] وَلَهُمَا عَنْهُ مَرْفُوعًا: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». (٣)

[٧] وَعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ الْكِنْدِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يُوشِكُ الرَّجُلُ مُتَّكِئًا عَلَىٰ أَرِيكَتِهِ يُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللهِ ﷻ فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ، أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللهُ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ. (٤)

هٰذا الكتاب هو «كتاب أصول الإيمان» للإمام المجدِّد شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب – رفع الله درجته مع الصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين وجزاه عنَّا وعن المسلمين خير الجزاء بما بيَّن وجاهد وعلَّم وترك النَّاس بعده علىٰ سنَّة محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام.

في هٰذا الكتاب يبيِّن أصول الإيمان، والمراد بها أركان الإيمان، ويريد بها أيضًا شعب الإيمان العظام الَّتي هي أصولٌ بالنِّسبة إلىٰ غيرها؛ لأنَّ الإيمان بضعٌ وستُّون أو بضعٌ وسبعون شعبةً أعلاها قول: لا إلٰه إلَّا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطَّريق والحياء شعبةٌ من الإيمان.

شعب الإيمان لها أصولٌ، فهٰذه الأصول هي الَّتي تجمع شعبًا كثيرة، كلُّ أصلٍ يجمع شعبًا كثيرةً، لهٰذا ذكر إمام الدَّعوة رَحِمَهُ اللهُ هٰذا الباب: (**بَابُ حُقُوقِ النَّبِيِّ ﷺ**) وهٰذا بالنَّظر إلىٰ جهتين:

---

(١) «صحيح مسلم» حديث رقم: (٢١).

(٢) «صحيح البخاري» حديث رقم: (٢١)، (٦٠٤١)، و«صحيح مسلم» حديث رقم: (٤٣)،

(٣) «صحيح البخاري» حديث رقم: (١٥)، و«صحيح مسلم» حديث رقم: (٤٤).

(٤) «جامع الترمذي» حديث رقم: (٢٦٦٤)، و«سنن ابن ماجه» حديث رقم: (١٢) وهٰذا لفظ ابن ماجه. ورواه أبو داود في «سننه» (٤٦٠٤) من طريق حريز بن عثمان عن ابن أبي عوف عن المقدام.

الجهة الأولىٰ: أنَّ أركان الإيمان منها: الإيمانُ بالرُّسل، الإيمان بالله وملائكتُه وكتبه ورسله. وقد ذكر قبل ذلك الإيمان بالله وذكر الصِّفات وما يتَّصل بذلك، ثمَّ ذكر الإيمان بالملائكة والإيمان بالقرآن، ثمَّ ذكر هنا الإيمان بالنَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام، والإيمان به عليه الصَّلاة والسَّلام هو أحد أركان الإيمان وأحد ركني الشَّهادة الَّتي هي الواجب الأوَّل والفرض الآكد في الشَّريعة.

الجهة الثَّانية: أنَّ حقَّ النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام تدخل فيه شعبٌ كثيرةٌ أو تتفرَّع منه شعبٌ كثيرةٌ من جهة الإيمان به، ومن جهة متابعته عليه الصَّلاة والسَّلام، وتقديم قوله وسنَّته، والاستدلال بها، وطاعته عليه الصَّلاة والسَّلام ونحو ذلك من شعب الإيمان.

لهٰذا ذكر الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ هٰذا الباب: (**بَابُ حُقُوقِ النَّبِيِّ ﷺ**) لتعلُّقه بأصول الإيمان من الجهتين.

حقوق النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام متنوِّعةٌ كثيرةٌ دلَّت الآية والأحاديث علىٰ أنواعٍ من الحقوق له عليه الصَّلاة والسَّلام:

فأعظم حقٍّ له عليه الصَّلاة والسَّلام وأوجب حقٍّ له: الإيمان بأنَّه رسولٌ من عند الله جلَّ وعلا صادقٌ مصدوقٌ، وأنَّ ما جاء به حقٌّ من عند الله جلَّ وعلا، فالشَّهادة له بأنَّه رسول الله وأنَّه عبد الله ورسوله، هٰذا من أعظم حقوقه عليه الصَّلاة والسَّلام.

لهٰذا أعظم الحسنات: حسنة التَّوحيد، وحسنة التَّوحيد التَّحقُّق بشهادة أن لَا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله كما أنَّ أبشع السَّيِّئات سيِّئة الشِّرك لهٰذا أعظم حقٍّ له عليه الصَّلاة والسَّلام هو الإيمان به والشَّهادة بأنَّه رسول الله وأنَّه خاتم الأنبياء وخاتم المرسلين وأنَّه بلَّغ ما أمره الله جلَّ وعلا ببلاغه، وأنَّه جاهد في الله حقَّ جهاده فحقُّه عليه الصَّلاة والسَّلام أن يُؤمن به وأن يُشهد له بالشَّهادة الحقِّ.

ثمَّ من ثمرات ذلك أن يُطاع عليه الصَّلاة والسَّلام كما قال جلَّ وعلا: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾[النِّساء:٥٩]، فجعل جلَّ وعلا طاعة الله وطاعة رسوله تجب استقلالًا لما لله جلَّ وعلا من حقٍّ عظيمٍ في طاعته ولما لرسوله عليه الصَّلاة والسَّلام من حقٍّ – أيضًا – عظيمٍ في طاعته إذ هو المبلِّغ عن الله جلَّ وعلا.

لهٰذا قال العلماء: كرَّر الله جلَّ وعلا الفعل ﴿أَطِيعُواْ﴾ في حقِّ الله وحقِّ رسوله ولم يأت به في حقِّ ولاة الأمر فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾[النِّساء] فأمر بطاعة الله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ كذلك كرَّر الفعل ولمَّا جاء إلىٰ ولاة الأمر قال: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ ولم يقل: وأطيعوا أولي الأمر منكم، لأنَّ طاعة الله تجب استقلالًا فيما قاله الله جلَّ وعلا في القرآن وأمرنا به أو نهانا عنه، كذلك طاعة رسوله ﷺ تجب استقلالًا لأنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام المبلِّغ عن الله، وفي الأحاديث أحكامُ وأخبارُ وأوامر ونواهي وأشياءُ ليست في القرآن، وأمَّا ولاة الأمر فإنَّ طاعتهم واجبةٌ في غير المعصية ولكنَّها طاعةٌ تبعٌ لطاعة الله جلَّ وعلا وطاعة رسوله ﷺ إذْ لا تجب طاعتهم استقلالًا، فهُم لا يستقلُّون بما يأمرون به أو ينهون عنه؛ بل لا بدَّ أن يكون ما أمروا به أو نهوا عنه أنَّه معروفٌ في الشَّريعة، ولهٰذا قال عليه الصَّلاة

والسَّلام – لمَّا ذكر الطَّاعة -: «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**»[(١)] يعني: فيما يعرف في الشَّريعة، أمَّا إذا أمروا بشيءٍ مخالفٍ لما أمر الله جلَّ وعلا به وما أمر به رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام – يعني: في معصيةٍ – فإنَّه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

والمقصود أنَّ طاعة الرَّسول ﷺ من أعظم حقوقه عليه الصَّلاة والسَّلام، ولهٰذا ألَّف الإمام أحمد كتابًا في طاعة الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، وهو كتابٌ نفيسٌ نقل عنه الإمام ابن القيِّم نقولًا كثيرةً في كتابه: «معالم الموقِّعين عن ربِّ العالمين» أو «إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين»، ونقل أيضًا عنه في «بدائع الفوائد» وفي غيره، قال الأمام أحمد: ذكر الله في طاعة رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام في أكثر من ثلاثين موضعًا في القرآن، وهٰذا لا شكَّ ممَّا يؤكِّد الأمر جدًّا.

ما معنىٰ طاعة الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام؟ معناها: أن تقدِّم سنَّته علىٰ الأهواء وعلىٰ العقول وعلىٰ الآراء المختلفة ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[الحشر:٧]، وأن يُحكَّم في الكتاب والسُّنَّة في الإنسان نفسه، يعني: يحكم بهما في نفسه، وكذلك في أقضية النَّاس وما يُفصل فيه بينهم وسواءٌ في ذلك المسائل العلميَّة أو المسائل العمليَّة، ولهٰذا جاء الفلاسفة والمتكلِّمون من المعتزلة وأصناف المتكلِّمين جاءوا ولم يحكِّموا في الواقع السُّنَّة وإنَّما عارضوها بعقولهم ففرَّطوا في حقٍّ عظيم للنَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام.

فإذن حقُّ النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام أن يُطاع، وطاعته ومحبَّته عليه الصَّلاة والسَّلام تبعًا لطاعة ومحبَّة الله جلَّ وعلا لأنَّه رسول الله جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه.

ومن حقِّه عليه الصَّلاة والسَّلام الَّذي ذكره إمام الدَّعوة هنا ما جاء في قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا»، «أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا» مثل ما جاء في الحديث الآخر الَّذي ذُكر وهو قوله: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ» يعني الإيمان الكامل «حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». حتَّىٰ من نفسه، يعني: من جهة الطَّاعة ومن جهة المحبَّة له عليه الصَّلاة والسَّلام.

كذلك من حقوقه الَّتي دلَّ عليها الحديث الآخر حديث المقدام بن معدي كرب أنَّ سنَّته من جهة الاتِّباع قرينة القرآن، فالاتِّباع للكتاب والسُّنَّة، نعم كلام الله أعظم لأنَّه كلامه جلَّ وعلا وسنَّة النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام هي أيضًا وحيٌ من عند الله جلَّ وعلا كما قال حسَّان بن عطيَّة: كان جبريل ينزل علىٰ رسول الله ﷺ بالسُّنَّة كما ينزل عليه بالقرآن.[(٢)] وهٰذا هو معنىٰ قوله في حديث المقدام بن معدي كرب: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»، مثل القرآن فيما يشتمل عليه من الخبر والأمر والنَّهي، فالقرآن مشتملٌ علىٰ الأخبار والأوامر والنَّواهي الَّتي يجب اتِّباعها ويجب تصديق الأخبار، كذلك السُّنَّة مثل

(١) رواه البخاري (٧١٤٥)، ومسلم (١٨٤٠) من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الدارمي في «السنن»، برقم (٦٠٨).

القرآن أُعطيها النَّبيُّ ﷺ مشتملةً على الأخبار الَّتي يجب تصديقها والإيمان بها والأمر والنَّهي الَّذي يجب اتِّباعُه.

فمن ردَّ السُّنَّةَ أصلًا كحال طوائف من الخوارج والمتكلِّمين أو الفلاسفة والقرآنيِّين فهؤلاء قد فرَّطوا في حقِّ النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام، ومن ترك بعض السُّنَّة فقد فرَّط أيضًا فيما يجب أن يقوم به من حقِّ النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام.

فلهٰذا الوصيَّة لنفسي وللجميع بأن توطِّن النَّفس على قبول ما جاء في السُّنَّة وعلى اعتقاد ما صحَّ في السُّنَّة عنه عليه الصَّلاة والسَّلام، وعلى طاعة نبيِّنا عليه الصَّلاة والسَّلام، وألَّا نُقدِّم الآراء والأهواء على ما جاء في سنَّته عليه الصَّلاة والسَّلام، الإنسان قد يغفل وقد يذنب وقد يخالف لكن لا بدَّ من هٰذه العقيدة: أن يعتقد وجوب الاتِّباع وأنَّه لا يخالف ولا يذهب إلى الهوى مخالفةً إلى آخره، وأنَّ حقَّه عليه الصَّلاة والسَّلام في طاعته وطاعة سنَّته وأنَّه أوتي مثل القرآن الَّتي هي السُّنَّة والحكمة إلى آخر ذلك.

ولقد أحسن ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ إذ قال:

فوالله ما خوفي الذُّنوب فإنَّها ... لعلى سبيل العفو والغفران

لكنَّما أخشى انسلاخ القلب ... من تحكيم هٰذا الوحى والقرآن

يعني: الكتاب والسُّنَّة.

هٰذه هي المصيبة العظيمة، الذَّنب قد يكون أخفَّ، وقد يكون من الكبائر، لكنَّه يكون أخفَّ بكثيرٍ من ردِّ السُّنَّة وعدم المبالاة بها.

نسأل الله جلَّ وعلا لنا ولكم الثَّبات، ولإخواننا المسلمين التَّوفيق للهدى والرَّشاد.

الدَّرس الْخامس عشر

٨- بَابٌ

تَحْرِيضُهُ ﷺ عَلَى لُزُومِ السُّنَّةِ وَالتَّرْغِيبُ فِي ذَلِكَ وَتَرْكُ الْبِدَعِ وَالتَّفَرُّقِ وَالاخْتِلافِ وَالتَّحْذِيرُ مِنْ ذَلِكَ

[١] وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[الأحزاب].

[٢] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾[الأنعام:١٥٩] الْآيَةُ.

[٣] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾[الشُّورى:١٣] الْآيَةُ.

[٤] وَعَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَا تَعْهَدُهُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ وَابْنُ مَاجَهْ، وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ: «لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا» ثُمَّ ذَكَرَ بِمَعْنَاهُ.(١)

قال رَحِمَهُ اللهُ: (**بَابٌ تَحْرِيضُهُ ﷺ عَلَى لُزُومِ السُّنَّةِ وَالتَّرْغِيبُ فِي ذَلِكَ وَتَرْكُ الْبِدَعِ وَالتَّفَرُّقِ وَالاخْتِلافِ وَالتَّحْذِيرُ مِنْ ذَلِكَ**) هٰذا الأصل من أعظم أصول الدِّين ومن أعظم ما يُؤمر به ويُحَضُّ عليه وهو أن يُحَرَّضَ ويؤمر بلزوم السُّنَّة وترك البدع والتَّفرُّق.

والسُّنَّة: تشمل الاعتقادَ بعامَّةٍ، وتشمل متابعة النَّبيِّ ﷺ في العبادة وفي الأمر والنَّهي. ولهٰذا السُّنَّة يُعبَّر بها تارةً عن التَّوحيد فيُقال: التَّوحيد والسُّنَّة بمعنًى واحدٍ والعقيدة، وتارةً يُعبَّر بالسُّنَّة عن أوامر النَّبيِّ ﷺ ونواهيه التَّفصيليَّة.

والمراد بقوله: (**بَابٌ تَحْرِيضُهُ ﷺ عَلَى لُزُومِ السُّنَّةِ**) يعني: على لزوم ما كان عليه النَّبيُّ ﷺ من الهدي في الاعتقاد والتَّوحيد، وكذلك في الأمور العمليَّة، فكلُّ المسائل العلميَّة والعمليَّة يجب فيها لزوم السُّنَّة؛ لأنَّ الأصل أنَّنا لم نعلم شيئًا عن ذلك لا الأمور العلميَّة ولا الأمور العمليَّة إلَّا بواسطة النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام، ولهٰذا كلُّ مخالَفةٍ للنَّبيِّ ﷺ في العقيدة -في التَّوحيد- فهي مخالفةٌ في السُّنَّة، فكلُّ أمرٍ أَمَرَ به النَّبيُّ ﷺ في الأمور العمليَّة مخالفته مخالفةٌ للسُّنَّة، وكلُّ ارتكاب نهيٍ أيضًا مخالفةٌ للسُّنَّة، فإذن

---

(١) رواه أبو داود في «سننه» رقم: (٤٦٠٧)، والترمذي في «الجامع» رقم: (٢٦٧٦)، وابن ماجه في «سننه» رقم: (٤٤)، وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الحاكم (١/ ١٠٩): صحيح، ووافقه الذهبي.

قول الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (**بَابُ تَحْرِيضِهِ ﷺ عَلَى لُزُومِ السُّنَّةِ**) يريد به المعنيين:

السُّنَّة بالمعنىٰ العامِّ الَّذي هو التَّوحيد والعقيدة.

ويريد به أيضًا المعنىٰ الخاصَّ – كما سيأتي – في الأحاديث.

ويقابل السُّنَّة: البدعة، والبدع تارةً تكون في الاعتقاد – يعني في الأمور العلميَّة–، وتارةً تكون في الأمور العمليَّة. فكما أنَّ السُّنَّة منقسمةٌ فضدُّها – وهو البدعة – منقسمٌ.

ولهٰذا عُرِّفَتْ السُّنَّة بأنَّها: ما كان عليه النَّبيُّ ﷺ أو أمر به في العلم أو العمل.

والبدع: هي ما خالف طريقة النَّبيِّ ﷺ في العلم أو العمل.

والبدعة عُرِّفَت بتعريفاتٍ كثيرةٍ معلومةٍ لديكم، وأصحُّ التَّعاريف فيها هو ما يُدْخِل المسائل العلميَّة والعمليَّة جميعًا، فنقول: هٰذا قول أهل البدع، مع أنَّها ليست من المسائل العمليَّة ممَّا هي من المسائل الاعتقاديَّة لأنَّ البدعة في الاعتقاد.

فتعريف الشَّاطبيِّ المشهور: بأنَّ البدعة طريقةٌ في الدِّين مخترعةٌ... إلىٰ آخره،[1] هٰذا يشمل ما يُلتزم من الأمور الاعتقاديَّة ومن الأمور العمليَّة؛ لأنَّ الدِّين يشمل هٰذا وهٰذا.

والمقصود من ذلك: أنَّ الأمر بلزوم السُّنَّة هٰذا نهيٌ عن البدعة، والنَّهي عن البدع أمرٌ بلزوم السُّنَّة في المسائل العلميَّة والعمليَّة، فكلُّ هٰذا من أصول الدِّين بل هو معنىٰ شهادة أنَّ محمَّدًا رسول الله، ولهٰذا كلُّ عالمٍ أو طالب علم وكلُّ من ورِث علم محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام فإنَّه يقوم مقامه هٰذا في الدَّعوة إلىٰ لزوم السُّنَّة وترك البدع والتَّفرُّق والاختلاف.

التَّفرُّق والفُرقة قد تكون فُرقةً في الدِّين وقد تكون – أيضًا – فرقةً في الجماعة يعني: جماعة الأبدان، ولهٰذا ذكر الله جلَّ وعلا التَّفرُّق كما سيأتي معك في الآيات ويراد به الفرقة في العقيدة والتَّفرُّق في العلم قال جلَّ وعلا: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾[الشُّورىٰ:١٤]، وقال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾[الأنعام:١٥٩]، وقال: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾[النِّساء:١٥٠]، فالتَّفرُّق إذن –وهو ما يقابل الجماعة – هٰذا من لوازم الابتداع سواءٌ كانت البدعة كفريَّةً أو البدعة فيما دون ذلك.

فكلُّ بدعةٍ فُرقةٌ وكلُّ فرقةٍ لا بدَّ أنَّها خلافٌ واختلافٌ، فلهٰذا ترىٰ أنَّ في نصوص الشَّريعة أنَّ ثَمَّ تلازمًا ما بين لزوم السُّنَّة ولزوم الجماعة، فمن لَزِم السُّنَّة لَزِم الجماعة، والجماعة بالمعنيين: جماعة الدِّين – يعني اجتماع الدِّين وعدم التَّفرُّق فيه كما ساق لك الإمام آية الشُّورىٰ وهي قوله جلَّ وعلا: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ

---

(١) «الاعتصام» للشاطبي (١/ ٥١) قال: الْبِدْعَةُ: طَرِيقَةٌ فِي الدِّينِ مُخْتَرَعَةٌ، تُضَاهِي الشَّرْعِيَّةَ، يُقْصَدُ بِالسُّلُوكِ عَلَيْهَا مَا يُقْصَدُ بِالطَّرِيقَةِ الشَّرْعِيَّةِ.

فِيهِ ﴾[الشُّورىٰ:١٣]، لأنَّ دين الأنبياء واحدٌ «**الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ: الدِّينُ وَاحِدٌ وَالشَّرَائِعُ شَتَّىٰ**»(١)، فدينهم الَّذي هو العقيدة والتَّوحيد الَّذي هو مبنيٌّ علىٰ أصول الإيمان السِّتَّة هٰذا مجتمعٌ عليه بين الرُّسل، فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشرِّه، الإيمان بهٰذه الأركان السِّتَّة وما دلَّت عليه هٰذا هو الدِّين الَّذي اجتمعت عليه الرُّسل جميعًا هو الدِّين الواحد.

أمَّا الشَّرائع فمختلفةٌ كصفة الصَّلاة وصفة الصِّيام صفة الحجِّ، والوضوء والطَّهارة وأحكام النَّجاسة والبيع والشِّراء إلىٰ آخره هٰذه الشَّرائع مختلفةٌ، كما قال: «**الدِّينُ وَاحِدٌ وَالشَّرَائِعُ شَتَّىٰ**».

فالمقصود من هٰذا: أن يتأصَّل أصلٌ عند كلِّ مسلمٍ وهو أنَّ السُّنَّة ملازمةٌ للجماعة وأنَّ البدعة ملازمةٌ للفُرقة، فالجماعة رحمةٌ والفرقة عذابٌ، ولهٰذا لم تتفرَّق الأمَّة في أبدانها إلَّا لمَّا تفرَّقت في العلم، لم يحصل التَّفرُّق في الأبدان أوَّلًا ثمَّ حصل التَّفرُّق في العلميَّات ثانيًا لا، لمَّا حصل في أوَّل الزَّمان لمَّا ظهرت الخوارج كان الأصل تفرُّقٌ في الدِّين- يعني: في المسائل العلميَّة – فتبعه تفرُّقٌ في الجماعة - يعني: في المسائل العمليَّة – وعدم لزوم جماعة المسلمين وإمامهم.

ولهٰذا كلُّ دعوةٍ إلىٰ العلم النَّافع، كلُّ دعوةٍ إلىٰ معرفة الحقِّ في المسائل العلميَّة، كلُّ دعوةٍ إلىٰ لزوم العلم والكتاب والسُّنَّة وتعلُّم العلم النَّافع هٰذه تؤول بصاحبها؛ بل بالنَّاس إلىٰ لزوم السُّنَّة ونبذ الفُرقة ولزوم الجماعة، فلا يحدث تفرُّقٌ في الأبدان، وفتنٌ وهرْجٌ ومرجٌ في النَّاس إلَّا إذا تركوا المأمور به من لزوم السُّنَّة.

لهٰذا من ترك فإمَّا أن يكون جاهلًا وإمَّا أن يكون مقصِّرًا، والمقصِّر لا يُعذر، مقصِّرٌ في العلم ومعرفة ما عليه النَّبيُّ ﷺ في الأمور العلميَّة يعني في العقيدة وفي الاعتقاد وهو يمكنه ذلك وبين يديه فإنَّه قد لا يُعذر وهو علىٰ هٰذا النَّحو، فلهٰذا صار أهل البدع هم شرُّ النَّاس يعني شرُّ أهل القبلة هم أهل البدع، وجاء فيها قول النَّبيِّ ﷺ: «**وَسَتَفْتَرِقُ هٰذِهِ الْأُمَّةُ عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةٌ**»،(٢) فأعظم ما يُدعىٰ إليه ويحرَّض عليه دائمًا وأبدًا ونبذ البدع؛ لأنَّ لزوم السُّنَّة معناه: لزوم العلم النَّافع معناه أن يلزم طريقة الصَّحابة رضوان الله عليهم والأئمَّة وهٰذا فيه الاجتماع والائتلاف وعدم الاختلاف.

ترىٰ مثلًا في هٰذا الوقت لمَّا كثُرت الأقوال والآراء وإعجاب كلِّ ذي رأيٍ برأيه حتَّىٰ – مع الأسف ونسأل الله العفو والغفران وأن يجنِّبنا ضلال الضَّالِّين– حتَّىٰ في المسائل العقديَّة أصبح هناك اجتهاداتٌ وأصبحت أقوالٌ تأتي جديدةٌ، إمَّا في المسائل العظام وإمَّا في المسائل الَّتي كان عليها الأئمَّة من قبل وانتهىٰ الأمر فظهرت فُرقةٌ، لماذا جاءت الفرقة؟! لأنَّه ما لُزمت السُّنَّة تمامًا وأقوال الأئمَّة في المسائل العلميَّة.

إذن فالدَّعوة إلىٰ العلم والسُّنَّة ومعرفة ما أنزل الله جلَّ وعلا علىٰ رسوله ﷺ هو دعوةٌ إلىٰ الاجتماع

---

(١) رواه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو داود (٤٥٩٧)، وابن ماجه (٣٩٩٢)، وانظر «الصحيحة» برقم (٢٠٤).

وعدم التَّفرُّق، ولهٰذا من أعظم الذُّنوب الفُرقة، ومن أعظم الأصول الَّتي دعا إليها النَّبيُّ ﷺ الاجتماع في الدِّين، والاجتماع في الأبدان وعدم الاختلاف في ذلك.

قال جلَّ وعلا: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[الأحزاب]. والأُسوة الحسنة: يعني الائتساء الحسن والاقتداء الأفضل، فالنَّبيُّ ﷺ هو من يُقتدىٰ به في العلم والعمل عليه الصَّلاة والسَّلام.

(وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾[الأنعام:١٥٩]) وجه الدِّلالة منه: أنَّ الله تعالىٰ ذمَّ التَّفرُّق بقوله: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ يعني: هؤلاء الَّذين فرَّقوا دينهم أنت لست منهم في أيِّ شيءٍ في أيِّ خصلةٍ ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ﴾ يعني أنَّهم ليسوا معك في أيِّ خصلةٍ؛ لأنَّ أصل الدِّين: هو الأمر بالاجتماع فيه، وعدم التَّفريق في المسائل العلميَّة هٰذا نتَّبع فيه الدَّليل وهٰذا لا نتَّبع فيه؛ يعني المسائل العلميَّة الكبار الَّتي هي مسائل العقيدة والسُّنَّة.

كذلك قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ فإذن الفُرقة فيما دلَّت عليه الآيات:

يُراد بها تارةً: الفُرقة في الدِّين يعني الفُرقة في العلم في العقيدة والتَّوحيد، في مسائل الإيمان.

ويراد بها: الفُرقة في الأبدان.

حديث العرباض بن سارية حديثٌ مشهورٌ يحفظه الجميع لعظم شأنه وعظم الاستدلال به في كلِّ موقعٍ. قال رضي الله عنه: (وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ كَأَنَّ هٰذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ») إلىٰ آخر الحديث.

قوله: (وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً) الوعظ والموعظة في الشَّرع يشمل العلم كلَّه، فكلُّ علم موعظةٌ، والقرآن كلُّه موعظةٌ، فالوعظ في النُّصوص لا يختصُّ بالتَّرغيب والتَّرهيب، أو بذكر أمر الجنَّة والنَّار أو بالزُّهديَّات ونحو ذلك، ودليل ذلك قول الله جلَّ وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾[يونس]، والموعظة الَّتي جاءت من الله والشِّفاء هو: القرآن، وهو يشمل المسائل العلميَّة ويشمل الأمر والنَّهي، وكذلك في غير ذلك من الآيات الَّتي فيها ذكر الموعظة.

فالرُّسل وعظُوا أقوامَهم كما قال سبحانه في الأمر والنَّهي: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾[الأعراف:١٦٤]، ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾: الموعظة الَّتي حصلت بالنَّهي، نهوهم عن فعلهم بالاعتداء بالسَّفك فصار النَّهي موعظةً. إذًا الأمر بالمعروف موعظةٌ، والنَّهي عن المنكر موعظةٌ في النُّصوص الشَّرعيَّة، العلم والعقيدة موعظةٌ؛ لأنَّ هٰذه كلَّها إذا استقبلها المرء استقبالًا حسنًا فإنَّها تعظه ويكون في قلبه خوفٌ وإجلالٌ لربِّه جلَّ وعلا.

فإذن قوله: (مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ) هٰذه تشمل المسائل العلميَّة والمسائل العمليَّة والتَّخويف من النَّار والتَّرغيب في الجنَّة إلىٰ آخر ذلك.

قال: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا» هٰذا تخصيصٌ بعد التَّعميم لأنَّ

الوصيَّة بتقوىٰ الله تشمل الخوف من مخالفة السُّنَّة والَّتي منها التَّباين والبعد عن السَّمع والطَّاعة.

قوله: «وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا» قوله: «وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا» لأنَّ الأصل أنَّ السَّمع والطَّاعة يكون لولاية الاختيار، وولاية الاختيار هٰذه تكون في قريشٍ كما قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**الْأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ مَا بَقِيَ فِي النَّاسِ اثْنَانِ**»(١) يعني إذا كان الأمر أمر اختيارٍ، أمَّا إن كان الأمر أمر تغلُّبٍ فالولاية أيضًا شرعيَّةٌ يعني: قام قائمٌ فغلب النَّاس بسيفهم أو يوجد من هو الأصلح من قريشٍ فإنَّ الأمير يُطاع والإمام يُطاع سواءٌ كان من قريشٍ أو ليس من قريشٍ.

فإذن الولاية ولايتان – في عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة –:

ولاية اختيارٍ: وهي الَّتي يجتمع لها أهل الحلِّ والعقد فيختارون من فيه صفات الإمام الكاملة من كونه قرشيًّا عالمًا قادرًا علىٰ أعباء الولاية من الجهاد ونصرة الدِّين ونحو ذلك، سليمًا من الآفات أو النَّقائص مثل عدم السَّمع والرُّؤية؛ البصر ونحو ذلك، هٰذه تُسمَّىٰ ولاية اختيارٍ، كما فعلوا لمَّا ولَّىٰ أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الولاية بعده، وكما فعل النَّفر السِّتَّة من الصَّحابة لمَّا ولَّوا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فأمَّا **ولاية التَّغلُّب**: فهي الَّتي لا تجتمع فيها الشُّروط لكنَّه تغلَّب فتجب طاعته والسَّمع له وله حقوق الإمام من قريشٍ تامَّةً لكنَّ الولاية تامَّةٌ لهٰذا قال هنا: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ» يعني: وأوصيكم بالسمع والطاعة، «وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا» يعني: حتَّىٰ ولو وصل الأمر إلىٰ أن يكون الَّذي تولَّىٰ ليس من العرب وليس من قبائلها وليس من أشراف النَّاس؛ بل كان عبدًا حبشيًّا فاسمع وأطع، لأنَّ المقصود من السَّمع والطَّاعة هو تحصيل الاجتماع في الدِّين فثمَّ تلازمٌ عظيمٌ بين الاجتماع في الدِّين والاجتماع علىٰ الولاية، فلا يحصل اجتماعٌ في الدِّين إلَّا بالاجتماع علىٰ الولاية وإذا تفرَّق في الدِّين تفرَّق النَّاس في الولاية، وإذا تفرَّق النَّاس علىٰ الولاية لم يحصل ما أمر الله جلَّ وعلا به من الاجتماع في الدِّين، فهٰذا يؤول إلىٰ هٰذا وهٰذا يؤول إلىٰ ذاك.

وعلَّل ذلك عليه الصَّلاة والسَّلام بقوله: «وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَىٰ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» يعني: اختلافًا كثيرًا في أمر الدِّين وفي أمر الولاية وفي أمر الحقوق سيرىٰ اختلافًا كثيرًا عمَّا يعلمه من سنَّة النَّبيِّ ﷺ، قال: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي» إذا رأيتم الاختلاف عليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الرَّاشدين المهديِّين من بعدي وسنَّة النَّبيِّ ﷺ وسنَّة الخلفاء تأمر بالاجتماع وتنهىٰ عن الفرقة وتأمر بالسُّنَّة وتنهىٰ عن البدع وتأمر بالعلم النافع [والعمل الصَّالح.

قوله: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ» المقصود بالمحدثات: في أمر الدِّين أمَّا المحدثات في أمر الدُّنيا وهي الَّتي تدخل في أحوال النَّاس أو تكون من باب المصالح المُرسلة فليست من البدع المذمومة لأنَّ

---

(١) روىٰ النسائي في «الكبرىٰ» (٥٩٠٩)، وأحمد في المسند (١٢٣٠٧-الرسالة)، «الأئمة من قريش»، من حديث أنس، وروىٰ مسلم (١٨٢٠) وغيره بلفظ: «لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ مَا بَقِيَ مِنَ النَّاسِ اثْنَانِ».

المحدثاتُ قسمان:

محدثات في الدِّين وهٰذه هي المرادة بهٰذا الحديث «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ» يعني في الدِّين «فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ» يعني: في الدِّين.

وهناك محدثاتٌ في أمور الدُّنيا مثل الأبنية، ومثل طريقة الأكل، وتنوُّع المآكل ونوعيَّة الأكل، ومثل تأليف الكتب والدَّواوين وتنظيم أمور الدَّولة ونحو ذلك ممَّا حصل بداياته في عهد عمر رضي الله عنه ثمَّ تطوَّر تطوَّر إلىٰ ما بعد ذلك فهٰذا ليس من المحدثات في الدِّين.

فإذن لا يدخل في المحدثة ما كان في الدُّنيا والثَّاني ما كان من قبيل المصالح المرسلة لا تدخل في البدع، فالمحدثات قسمان – كما قال الشَّافعيُّ – منها ما هو في الدِّين وهٰذا هو المذموم، ومنها ما هو في الدُّنيا وهٰذا ليس بمذموم.

فقوله: «فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ» يعني هٰذا مقيَّدٌ، كلُّ محدثةٍ في الدِّين بدعةٌ «وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» هٰذا علىٰ عمومه بأنَّ البدع مذمومةٌ كلُّها وكلُّها ضلالةٌ.

الرِّواية الثَّانية: «فَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا» عددٌ من الوعَّاظ أو ممَّا هو شائعٌ يأتون بزيادة (**تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ**) وأنا ما وقفتُ عليها في حديثٍ لفظ (المحجَّة) وإنَّما الَّذي جاء في هٰذه الرِّواية وأيضًا في حديثٍ آخر جاء في المسند: «تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ»، فلفظ (المحجَّة) يحتاج إلىٰ مزيد بحثٍ.

نقف عند هٰذا.

الدَّرس السَّادس عشر

[٥] وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ». (١)

[٦] لِلْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَىٰ» قِيلَ: وَمَنْ أَبَىٰ؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَىٰ». (٢)

[٧] وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَىٰ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا بِهَا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا: أَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَأُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ الْآخَرُ: أَنَا أَصُومُ النَّهَارَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ الْآخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي». (٣)

[٨] وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَىٰ لِلْغُرَبَاءِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ. (٤)

[٩] وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ» رَوَاهُ الْبَغَوِيُّ فِي «شَرْحِ السُّنَّةِ» وَصَحَّحَهُ النَّوَوِيُّ. (٥)

[١٠] وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَىٰ أُمَّتِي كَمَا أَتَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ حَتَّىٰ إِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ أَتَىٰ أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ افْتَرَقَتْ عَلَىٰ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً» قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ. (٦)

الحمد لله.

من أصول الإيمان: الإيمان بمحمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام، وهٰذا من أصول الإيمان من جهتين:

الجهة الأولىٰ: أنَّ الإيمان بنبيِّنا عليه الصَّلاة والسَّلام في أوَّل أركان الإسلام الشَّهادة بأنَّ محمَّدًا رسول الله.

---

(١) «صحيح مسلم» حديث رقم: (٨٦٧).

(٢) «صحيح البخاري» حديث رقم: (٧٢٨٠).

(٣) «صحيح البخاري» حديث رقم: (٥٠٦٣). و«صحيح مسلم» حديث رقم: (١٤٠١).

(٤) «صحيح مسلم» حديث رقم: (١٤٥).

(٥) «شرح السنة» للبغوي، حديث رقم: (١٠٤)، قال النووي في «الأربعين»: صحيح رويناه في كتاب «الحجة» بإسناد صحيح. وضعفه الإمام ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم والحِكم» (٢/ ٣٩٣) بعدة عِلل.

(٦) «جامع الترمذي» حديث رقم: (٢٦٤١).

الجهة الثَّانية: دخوله عليه الصَّلاة والسَّلام في الإيمان بالرُّسل كما قال تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[البقرة:٢٨٥]، فمن الإيمان بالرُّسل: الإيمان بخاتمهم محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام، وذكرنا لكم معنىٰ الإيمان به عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لكن من الإيمان به: اتِّباع سنَّته، ومن كمال الإيمان به: ألَّا يُقدَّم عقلٌ علىٰ سنَّته ولا رأيٌ علىٰ ما قضىٰ به عليه الصَّلاة والسَّلام. فإذا كان ما قضىٰ به عليه الصَّلاة والسَّلام قطعيّ الدِّلالة في الأمر فإنَّه لا يحلُّ لأحدٍ مخالفته: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾[الحشر:٧] لهٰذا كان عليه الصَّلاة والسَّلام يكثر -كما في حديث جابرٍ وغيره- من قوله: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلاة وَالسَّلام» -كما في الحديث الأوَّل-.

فأكمل هديٍ؛ هدي محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام وأكرم هديٍ وأفضل هديٍ وأعظم سنَّةٍ وطريقةٍ وهديٍ وسلوكٍ هو سبيل محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام، ولهٰذا من آمن حقيقةً بأنَّه رسول الله وكمُل عنده هٰذا الإيمان فإنَّه لا يخالف السُّنَّة، وإذا خالف السُّنَّة فإنَّه يضعف إيمانه لكونه مرسلًا من عند الله جلَّ وعلا حقًّا، لأنَّ إيمان العبد بالرُّسل يزيد وينقص، وإيمانه بأنَّ محمَّدًا رسول الله يزيد وينقص؛ فيزيد بكثرة المتابعة وينقص بكثرة المخالفة، وليس أهلُه في أصله سواءً.

فالمقصود من هٰذه الأحاديث الَّتي ذكرها الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هو بيان هٰذا الأصل والتَّحريض علىٰ اتِّباع السُّنَّة وعدم مخالفتها.

ذكر الحديث الَّذي رواه مسلمٌ: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ فَطُوبَىٰ لِلْغُرَبَاءِ»، رواية مسلمٍ انتهت إلىٰ هٰذا الحدِّ. فما معنىٰ قوله: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا»؟ اختلف العلماء في تفسيرها:

فمنهم من قال: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا» يعني: كان أهله قلَّةً ثمَّ كثُروا، وأيَّدوا ذلك بقوله في آخره: «فَطُوبَىٰ لِلْغُرَبَاءِ» يعني كأنَّهم قليلٌ. وفي روايةٍ في «المسند» وغيره قال: «**هُمْ أُنَاسٌ صَالِحُونَ قَلِيلٌ فِي أُنَاسِ سُوءٍ كَثِيرٍ مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ**»(١).

والقول الثَّاني: أنَّ معنىٰ قوله: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا» يعني أنَّ الإسلام الحقَّ لمَّا صدع به نبيُّنا عليه الصَّلاة والسَّلام كان في غرابةٍ فالنَّاس استغربوه واستنكروه، وستأخذ هٰذه الأمَّة مأخذ الأمم قبلها فتعود إلىٰ أن تستغرب حقيقة الإسلام والدِّين، وهٰذا معنىٰ قوله: «وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ» يعني: سينتشر في النَّاس الجهل والجهالة ويقلُّ العلم ويُرفع حتَّىٰ تكون حقيقة الإسلام غريبةً، وهٰذا أيضًا تفسيرٌ مشهورٌ وهو موافقٌ لأحاديث كثيرةٍ في هٰذا المعنىٰ.

والقول الثَّالث: أنَّ قوله: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ فَطُوبَىٰ لِلْغُرَبَاءِ» أنَّ هٰذا منه عليه الصَّلاة والسَّلام لشحذ الهمَّة في الاتِّباع وعدم الاغترار بالكثرة، وأنَّ الحقَّ ليس معروفًا بكثرة من يتَّبعه وإنَّما باتِّباع محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام والالتزام بكتاب الله جلَّ جلاله وسنَّة نبيِّه عليه الصَّلاة والسَّلام.

---

(١) «مسند أحمد» حديث رقم (٧٠٧٢-الرسالة) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهٰذا في الحقيقة يؤول إلىٰ الأوَّل لأنَّ معنىٰ الأوَّل هو هٰذا، يعني: أنَّ من ثمرات الأوَّل هو أنَّه لا تغترُّ فالإسلام بأناسٍ قليلٍ ومع ذلك أعزَّهم الله فلم يغترُّوا بالكثرة ولا بالسَّواد، وإذا تكرَّر الأمر فلا يُغترُّ بالكثرة.

جاء في تفسير الغرباء قالوا: يا رسول الله من الغرباء ؟ قال: «**النُّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ**». (١)

وفي روايةٍ قال: «**الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِسُنَّتِي عِنْدَ فَسَادِ أُمَّتِي**». (٢)

وفي ثالثة قال: «**أُنَاسٌ صَالِحُونَ قَلِيلٌ فِي أُنَاسِ سُوءٍ كَثِيرٍ مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ**».

وهٰذه ثالثةٌ. والأولىٰ: جيِّدةٌ من جهة الإسناد.

إمام الدَّعوة الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللهُ له كلامٌ طويلٌ علىٰ هٰذا الحديث في رسائله تكلَّم علىٰ فقهه وعلىٰ زمن الغربة والله المستعان.

حديث: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ» معروفٌ الكلام عليه في «شرح كتاب التَّوحيد». (٣)

... غربة الدِّين نسبيَّةٌ قد تكون في زمانٍ دون زمانٍ، أو قد تكون في مكانٍ دون مكانٍ، إذ بعض الأمكنة في الأرض الدِّين غريبٌ ما فيها أحدٌ «فَطُوبَىٰ لِلْغُرَبَاءِ» القابض علىٰ دينه كالقابض علىٰ جمرِ الصَّلاة مشكلةٌ والوضوء مشكلةٌ التزامه وتحليلٌ للحلال وتحريمٌ للحرام مصيبة، كلِّ شيءٍ فيه ابتلاءٌ شديدٌ، لذلك القابض علىٰ دينه كالقابض علىٰ الجمر.

فالغربة العامَّة تكون في آخر الزَّمان؛ لكنَّ الغربة الخاصَّة بمكانٍ دون مكانٍ أو سنين دون سنين يعني في بعض الأمكنة وهٰذا حاصلٌ، لكنَّ الغربة العامَّة ليست حاصلةً الآن لأنَّه «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ**»،(٤) فبقاء الأمَّة الظَّاهرة، فبقاء الطَّائفة المنصورة والفرقة النَّاجية إلىٰ قيام السَّاعة فقد يقلُّون فتحصل الغربة وقد يزيدون فترتفع الغربة، فقوله عليه الصَّلاة والسَّلام «وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ» المراد به: الغربة النِّهائية الَّتي يكون فيها أهل الأرض كلُّهم علىٰ غير الهدىٰ.

الَّذي ما سافر لا يعرف نعمة الدِّين ونعمة عدم الغربة والَّذي يسافر يحسُّ بالغربة، شكله غير أشكالهم، عمله غير أعمالهم وتفكيره غير تفكيرهم فيحسُّ كلَّ شيءٍ مختلف، حتَّىٰ من بعض المنتسبين

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٢٩) وابن ماجه (٣٩٨٨)، وغيرهما من حديث ابن مسعود.

(٢) جاء لفظ « الذِينَ يَصلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ » أخرجه أبو عمرو الداني في «السنن الواردة في الفتن» (١/ ٢٥) من حديث ابن مسعود ، وصححه الألباني في « الصحيحة» (١٢٧٣).

(٣) تحت باب قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ ﴾؛ لٰكِن الشيخ حفظه في شرحه لكتاب التوحيد لم يخصه بالشرح، وعلق عليه الشيخ في «شرحه علىٰ الأربعين النووية» الحديث الحادي والأربعين.

(٤) رواه البخاري (٧٣١١)، ومسلم (١٩٢٠، ١٩٢٣).

إلىٰ الإسلام أو ممَّن يدعون إليه، يحسُّ أنَّه مختلفٌ تمامًا، فلذلك المسألة تريد مجاهدةً ودعوةً والشَّكوىٰ إلىٰ الله.

أمَّا في البلاد – بلاد السُّنَّة والتَّوحيد – بلادنا هٰذه فما يحسُّ الإنسان فيها إلَّا أنَّ الدِّين عزيزٌ وظاهرٌ وقويٌّ والسُّنَّة والتَّوحيد وتحليل الحلال هو الأصل وتحريم الحرام هو الأصل ولا كلفة ولا مشقَّة في أن يحلَّ الحلال ولا أن يحرِّم الحرام ولا عليه في التزام الشَّعائر والعبادات، هٰذا من أعظم النِّعم، ومن سافر يعرف الفرق هٰذا بالنِّسبة للرَّجل فكيف بالنِّسبة لعائلته وأسرته يعني في الخارج مشكلةٌ –الحُرْمَة في رُوحتها وجيَّتها– وكذلك الأولاد، وين يتعلَّمون ووش يدرسون ووش يتلقَّون؟ مصيبةٌ، فالَّذين يعيشون في البلاد الغربيَّة خاصةً أو الشَّرقيَّة –يعني– البلاء عظيمٌ.

لذلك في بعض التَّحليلات قالوا –يعني الغرب– درسوا موضوع الهجرات وكثيرٌ من النَّاس المسلمين راحوا هناك واستوطنوا في بريطانيا وفرنسا، فرنسا فيها أربعة ملايين مسلمٍ بالاسم يعني بالتِّعداد ممكن بعضهم ليس بمسلمٍ لكن من حيث التِّعداد ويقبلون، بريطانيا عددٌ كبيرٌ ويقبلون، ألمانيا ويقبلون، وأمريكا ويقبلون، كيف وأنتم تنمون الإسلام؟ قالوا: ليس مقصودنا هؤلاء يأتي عليهم زمنٌ وينتهون، المقصود أولادهم، هؤلاء يكبرون شوي وينتهون، لكنَّ أولادهم سيضلُّون مثلهم؟ مستحيلٌ، لابدَّ أنَّه سيدرس معهم من الصُّبح إلىٰ اللَّيل وعايش في المجتمع كيف هٰذا بيكون عنده حسٌّ كما يقال: إسلاميٌّ وعنده غيرةٌ، لا ما يمكن.

فالمسألة عظيمةٌ ولذلك الَّذي يعرف نعمة الله عليه في هٰذا البلد يحمد الله عليها كثيرًا ويسعىٰ لتثبيتها بالدَّعوة والخير والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر والتَّعاون علىٰ البرِّ والتَّقوىٰ والبعد عن الفتن والاختلاف، هٰذا أصلٌ عظيمٌ والله المستعان ولا بدَّ من التَّغيُّر وحكمة الله ماضيةٌ.

فيه سؤالٌ ما أدري مناسبٌ الجواب عليه الآن، كان ودِّي أنَّه يصير حاصًّا.

سؤال: يقول: هل نظام كفالة المواطن الأجنبيِّ في هٰذه البلاد يدخل تحت الكفالة أو لا يدخل؟

الجواب: نعم، ومأخذه فقهيٌّ بأنَّه يدخل تحت باب الكفالة من جهتين:

من الجهة الأولىٰ أنَّه يدخل بأمانٍ، والمؤمنون يسعىٰ بذمَّتهم أدناهم إذا كان غير مسلمٍ.

والجهة الثَّانية للمسلم ولغيره فكفالته بالبدن، وليست كفالة مالٍ يعني ليست التَّصرُّفات الماليَّة ملتزم بها؛ لكنَّ الكفيل كفيل بدنٍ يعني يعرف هٰذا وين راح وين جاء، يلتزم بإحضاره في أيِّ وقتٍ كفله؛ يعني ببدنه هو أذن له بالدُّخول في البلاد لغرض وهو الَّذي يكفل حضوره في كلِّ وقتٍ؛ إذا طُلب.

نظام الكفالة هٰذا أصله شرعيٌّ من قديم؛ يعني المشايخ هم الَّذين أفتوا فيه من نحو أربعين سنةً.

... الأقرب للإسلام المقصود بها مخالفة أهل الجاهليَّة في أنَّهم يذبحون علىٰ القبور، هم يعقرون الدَّوابَّ ثمَّ ينحرونها –يعني في الإبل– أو يذبحون الشَّاة ونحوها إكرامًا مثلًا مثل الميِّت يقولون: فلانٌ هٰذا في حياته دائمًا مجلسه مفتوحٌ دائمًا يضيف الضُّيوف وإلىٰ آخره إذا مات ونذبح له عند قبره أو حوشه يجعلون مكانًا يستمرُّون علىٰ هٰذا، فيه مباهاةٍ، لذلك العقر علىٰ هٰذا المعنىٰ نقول أنَّه منهيٌّ عنه مشابهةً

للفعل وليست شركًا، ما نقول: أنَّه شركٌ لأنَّه ليس ذبحًا لغير الله، إنَّما هو تباهي وترفُّعٌ إلىٰ آخره، وليس من باب الصَّدقة. هٰذا معنىٰ قوله: (لا عقر في الإسلام) الإسلام نهىٰ عن الفخر والخُيلاء والمباهاة الَّتي ليس لها أصلٌ شرعيٌّ.

... الشِّرك: أن يتقرَّب بإراقة الدَّم لغير الله، أو يذكر غير اسم الله، هٰذان نوعان أحدهما شركٌ في الاستعاذة والرُّبوبيَّة وهو إذا ذبح باسم غير الله، قال مثلًا: -والعياذ بالله- باسم المسيح، باسم العيدروس، باسم البدويِّ، باسم فاطمة، باسم عليٍّ، هٰذا ذبحٌ أُهِلَّ باسم غيره، مثل المشركون يهلُّون لأصنامهم وهو الَّذي فيه قول الله جلَّ وعلا: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ يعني في حلِّه ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾[الأنعام].

والنَّوع الثَّاني في ذبح العبادة، أن يذبح باسم الله، ما فيه استعانةٌ بغير الله؛ لكن يتقرَّب بالدَّم للميِّت، يتقرَّب بالدَّم للوثن، يتقرَّب بالدَّم للصَّنم، يتقرَّب بالدَّم للسُّلطان قربةً، يتقرَّب بالدَّم لشيخ القبيلة لو الضَّيف جاي ويذبح يريد أن يتقرَّب بهٰذا الدَّم إليه تعظيمًا له، هٰذا إذا اجتمع فيه التَّعظيم والقربة صار شركًا.

الضوابط أهم من الحالات، أوَّلًا أراد أن يتقرَّب مو منه من السُّلطان أن يتقرَّب له؛ يقرِّب له هٰذا الدَّم، «**لا تجيزون حتَّىٰ تقرِّبوا لهٰذا شيئًا**»،(١) قرَّب ذبابًا يعني أنَّه يتقرَّب بذبحه له بإراقة الدَّم له، هٰذا واحدٌ، الثَّاني التَّعظيم إذا وجد التَّعظيم دون التَّقرُّب قد ما يكون شركًا أكبر يكون شركًا أصغر، مثلًا في بعض الحالات وهي محرَّمةٌ، علىٰ كلٍّ الذَّبيحة ميتةٌ لا يجوز أكلها.

... مثل التَّقرُّب للجنِّ، فلانٌ يريد أن يدفع عن هٰذا البيت هٰذا الجنُّ، جاء يسكن هٰذا المسكن، مثل اعتقادات أهل الجاهليَّة بيحلُّون هٰذا الوادي، بيحلُّون هٰذا الجبل، قال: اذبحوا! يذبحون للجنِّ يتقرَّبون بالدَّم للجنِّيِّ لدفع الأذىٰ وجلب المنفعة هٰذا شركٌ أكبر، واضحٌ؟.

مثل بعض النَّاس يذبح عند باب البيت، يذبحون عند باب البيت ليش؟ ليش عند العتبة تُريق الدَّم؟ تقرُّبًا للجنِّ عشان يدفعون عنهم الأذىٰ. والعياذ بالله.

... يعني مثلًا الصُّورة تكون واحدةً؛ لكن مو كلُّها شركٌ مثلًا هٰذا سلطانٌ جاي فذبح أو نحر والدَّم يضرب من البعير وهٰذا يجيء، ليش فعل ذلك؟ هٰذا تعظيم له، الدَّم له، هٰذا عند الجاهليِّين والأعراب.

الحال الثَّانية أنَّه جاء ودخل وقال للخدم الَّذي عنده اذبح الذَّبيحة من أجل أن يلزمه، وهو داخلٌ.

فالاشتراك في الصُّورة لا يعني الاشتراك في الحكم لابدَّ مراعاة الأصل لماذا فعل؟ هل هو تقرُّبٌ منه وتعظيمٌ أو أنَّه .. ولذلك العلماء في جميع الصُّور هٰذه يمنعونها سدًّا للذَّريعة يعني يشدِّدون فيها سدًّا للذَّريعة؛ كلها ممنوعة، يعني يشدِّدون في الحكم سدًّا للذَّريعة لذريعة الشِّرك الأكبر، ما يجوز لأحدٍ يذبح الدَّم حال مرور الضَّيف، مقبلٌ نازلٌ من السَّيَّارة وهٰذا مولِّي له الذَّبيحة يذبحها قدَّامه وهو ينزل وهٰذا الدَّم

---

(١) رواه أحمد في «الزهد» (ص١٥-١٦).

يسيل لماذا فعل؟ لماذا فعل هٰذا ظاهره تعظيمٌ له، هل هو شركٌ أكبر نقول هنا: هل التَّقرُّب بالدَّم له أو أردت إلزامه، طبعًا علىٰ كلِّ حالٍ الذَّبيحة لا يجوز أكلها، حرامٌ ولا يجوز إطعامها وتصير ميتةً يعني تُرمىٰ علىٰ أيِّ حالٍ، لكن هل هو مُخرجٌ من الملَّة ذبحٌ لغير الله، صاحبه ملعونٌ علىٰ كلِّ حالٍ كبيرةٌ من الكبائر لكن هل هو شركٌ أكبر أم لا؟ هنا البحث.

إذا كان ما تقرَّب بالدَّم له فإنَّه ليس بشركٍ أكبر؛ لأنَّ الشِّرك الأكبر في الذبَّح والنَّحر هو التَّقرُّب بإراقة الدَّم لهٰذا؛ يعني تقرُّب العبادة.

... مسألة كفرٍ اعتقاديٍّ وكفرٍ عمليٍّ، النُّصوص ما فيها لا كلمة كفرٍ اعتقاديٍّ ولا كفرٍ عمليٍّ، هٰذه مهمَّةٌ يعني بالمناسبة فيه كلماتٌ كثيرةٌ للعلماء جاءت للتَّوضيح؛ لتوضيح أحكام الشَّريعة، فمنها ما استعماله في كلِّ موطنٍ يصبح مشكلًا، مثل كفرٍ اعتقاديٍّ وكفرٍ عمليٍّ هٰذا ذكره العلماء من باب التَّقريب، من المكفِّرات ما سبيله الاعتقاد أو سببه الاعتقاد، ومن المكفِّرات ما سببه العمل؛ يعني هو اعتقاد عمل، فيجعلون مثلًا السُّجود للصنم كفر إيش؟ عمليٌّ، يجعلون النَّذر لغير الله يجعلونه شركًا أكبر كفرٌ عمليٌّ، وإذا صاحبها اعتقادٌ هو اعتقاديٌّ ونحو ذلك.

هٰذا تقسيمٌ فنِّيٌّ يعني تقسيمٌ للتَّقريب، يعني ما نجعله يعني قاعدةً في الحكم علىٰ الأشياء؛ لأنَّه أيضًا يلتبس علىٰ بعض النَّاس في بعض أحوالهم.

مثل مثلًا تقسيم الإيمان إلىٰ قولٍ وعملٍ، واعتقاد هٰذه كثير من العلماء ما قالوها، طيِّب وين الاعتقاد الاعتقاد موجودٌ، فإذن تقسيماتٌ هي للتَّوضيح، المطلوب من طالب العلم أنَّه ينظر إلىٰ النُّصوص دِلالة الكتاب والسُّنَّة علىٰ المسائل، يستفيد من تقسيمات العلماء في فهم النُّصوص.

مثل التَّعاريف، خاصَّةً في مسائل التَّوحيد والعقيدة؛ لأنَّ كثيرًا ممَّن كتب سواءٌ من المتقدِّمين أو من المتأخِّرين من المرجئة والأشاعرة والمعتزلة؛ يعني من جهة التَّأصيل خلاص أصَّلوا أصولًا ثمَّ بنوا عليها وصارت قاعدةً.

الواجب الرُّجوع للدَّليل النَّصُّ، كلام العلماء نفهم به الدَّليل، فكلام العلماء معظم وله جلالته إلىٰ آخره؛ لكن نحفظه ونترك الأدلَّة، الأدلَّة هي الأصل.

مثل الآن الرُّكن والواجب، ما فيه شيءٌ اسمه أركان الصَّلاة وواجبات الصَّلاة، أركان الحجِّ وواجبات الحجِّ ما فيه، العلماء قالوا: هٰذا ركنٌ وهٰذا واجبٌ من باب التَّعليم، حتَّىٰ تعرف ماذا تفسد به العبادة، وما به لا تفسد، فإذا نظرت إلىٰ أنَّه يُفعل أو لا يُفعل ترجع إلىٰ دلالة النَّصِّ.

مثل مثلًا أحد الشَّباب سألني قال: قال هو لأبيه أريد أحجُّ، قال: خلاص أنا أحجُّ وإيَّاك، يقول: رحنا للطَّائف جلسنا في الفندق إلىٰ ما بعد العشاء يوم عرفة؛ يعني من ليلة العيد يقول ثمَّ حوالي نصف اللَّيل رحنا للميقات وأحرمنا ودخلنا علىٰ عرفة مرِّينا بعرفة ثمَّ مرِّينا بمزدلفة -مرور كلُّها- ثمَّ رجمنا لجمرة العقبة وقصَّروا وحلَّلوا في ليلةٍ، ثمَّ بعد ذلك راحوا وين راحوا لجدَّة جلسوا فيها ولمَّا جاء آخر يومٍ -يوم ثلاثة عشر- دخل يقول ورموا الجمار علىٰ الأيَّام كلِّها الثَّلاثة وراح وطاف وسعىٰ وقال: علينا ذبيحةٌ أنا

وإيَّاك عشان فوات البيتوتة ليالي منىٰ.

هٰذا فهم للشَّريعة؟ هٰذا ما هو فهم، صحيح العلماء قالوا هٰذا ركنٌ وهٰذا واجبٌ وهٰذا يجبر بكذا بس ما تألِّف منها منسكًا جديدًا، هٰذه جديدةٌ، هٰذا حجٌّ!!

مثل الآن بيصلِّي ويصلِّي لا يستفتح يقرأ الفاتحة ثمَّ يركع يسبِّح واحدةً إلىٰ آخره ما هي هيئة الصَّلاة وإن كانت نقول: مجزِئةً لكن مو معناه يلتزمها أو يفعلها، يجيء يقول والله ماذا أفعل طالب العلم المفتي يعرف أنَّ العلماء فرَّقوا بين الرُّكن والواجب تبعًا لتفريقها في الأدلَّة يحكم عليه بناءً علىٰ هٰذا .

فإذن كلام العلماء نفهم به النُّصوص فهم الكتاب والسُّنَّة بكلام أهل العلم، فإذا كان دليلٌ من الكتاب أو من السُّنَّة نحتاج في فهمه إلىٰ كلام أهل العلم فإننا نبني عليه، الحديث ما هو واضحٌ، الآية ما هي واضحةٌ، قال العلماء فيها كذا أبرأ.

بالنِّسبة للحكم للفتوىٰ هٰذه صعبةٌ، تضيق الفتوىٰ ويضيق الاجتهاد إذا التزمت كلام الفقهاء أو كلام شرَّاح الحديث، دلالة النُّصوص تستغرق الأزمنة والأمكنة، تستوعب كلَّ زمانٍ وكلَّ مكانٍ لكن بكلام العلماء خاصَّةً في الفقه بالذَّات خاصَّةً في المعاملات، شروطٌ يُشترط لك تعريفه وشروطه، لو تجيء الآن تُطبِّقها لا يجوز لا يجوز وهٰذا ما توفَّر فيه الشَّرط ولا يصحُّ البيع.

أوسع العلماء كلاما في المعاملات وأيسرهم مذهب الحنابلة ولذلك يقول ابن تيميَّة: كثيرٌ من أتباع أبي حنيفة والشَّافعيِّ إذا أرادوا أن يتعاملوا بمعاملةٍ احتاجوا أن يستفتوا حنبليًّا؛ لأنَّه أوسع.

الآن في زمننا هٰذا لو أنَّك تلزم مذهب الحنابلة ضاقت عليك المسائل في المعاملات.

فإذن المجتهد يكون مجتهدًا إذا عرف الأدلَّة، أيضًا عرف كلام أهل العلم وعظَّمه، ما هو يرمي كلام أهل العلم ويقول: أيش هٰذا نحن رجالٌ وهم رجالٌ مثل كلام السُّفهاء، يعظِّم كلام أهل العلم ويفهمه، لكن ما نجعل كلام أهل العلم مثل ما أنزل الله جلَّ وعلا كثيرٌ من كلامهم منزَّلٌ علىٰ أصلهم في مسائل كثيرةٍ، المسائل الماليَّة الآن المعاصرة بحاجةٍ إلىٰ اجتهادٍ تجد مثلًا أنَّهم اشترطوا كذا، اشترطوا في الحوالة كذا، الأصل أنَّ الحوالة ما فيها إلَّا حديثٌ واحدٌ، طيِّب هل هٰذه الشُّروط كلُّها نعمل بها أو ما نعمل بها –شروط الفقهاء– في بعضها، يكون تنظيريًّا جيِّدًا لكن في بعضها تكون مأخوذةً من اجتهاد الإمام إلىٰ آخره.

المقصود من هٰذا وهي ولو طالت ربَّما يكون فيه فائدةٌ أنَّ دلالة النَّصِّ واسعةٌ في المسائل العمليَّة، واسعةٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، كلام أهل العلم معظَّمٌ ومقدَّرٌ ولا يجوز لأحدٍ أن يستهين به؛ لأنَّهم هم ورثة الأنبياء ومن اتَّهم كلام أهل العلم حريٌّ به أن لا يُبارك له في كلامه ولا في علمه ولا عمله؛ لكن هم نقلةٌ للشَّريعة، يبيِّنون لنا كيف نفهم النَّصَّ يبيِّنون لنا كيف ..

تجيء بعض الشُّروط اشترطوها في بعض المسائل الحجَّة فيها، ما هي واضحةٌ صعب العمل بها.

خاصَّةً في مسائل المعاملات، أمَّا العبادات مبنيَّةٌ علىٰ الاحتياط، الواحد يأخذ حيطته؛ لكنَّ المعاملات الأصل فيها الإباحة.

بارك الله فيكم وسنلتقي الأسبوع القادم إن شاء الله.

الدَّرس السَّابع عشر

[١١] وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ مَرْفُوعًا: «مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًىٰ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا». [(١)]

هٰذا الحديث في هٰذا الباب – الَّذي فيه اتِّباع النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام – يدلُّ علىٰ فضل محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام، وأنَّ أحدًا لن يبلُغ منزلته لا من الأنبياء والمرسلين ولا من غيرهم من الأولياء – كما يقوله طائفةٌ من الضُّلَّال –، وتعليل ذلك من جهتين:

الجهة الأولىٰ: أنَّ هٰذا الحديث دلَّ أنَّ من دعا إلىٰ هدًىٰ كان له من الأجر مثلُ أجور من اتَّبعها لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، والنَّبيُّ ﷺ دعا إلىٰ تفاصيل الهدىٰ: الهدىٰ من جهة العقيدة والشَّريعة وإلىٰ تفاصيله، وتبعه عليه النَّاس –يعني تبعته عليه أمَّته– فهو عليه الصَّلاة والسَّلام له مثل أجور أمَّته لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا.

فلا يبلغ أحدٌ من هٰذه الأمة منزلته عليه الصَّلاة والسَّلام لأنَّ الفضل بعظم الأجر: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحجرات:١٣]، فالنَّاس يتفاضلون عند الله بالحسنات، فأعظمهم حسناتٍ نبيُّنا ﷺ.

فهٰذا فيه إبطال قول غلاة الصُّوفيَّة: إنَّ الوليَّ قد يكون أفضل من النَّبيِّ – يعني من محمَّدٍ عليه الصَّلاة السَّلام – والعياذ بالله من قولهم هٰذا، وكذلك قول الرَّافضة: إنَّ أئمَّتهم أفضل من الأنبياء بما فيهم محمَّدٌ عليه الصَّلاة والسَّلام.

الوجه الثَّاني: أنَّ أمَّة النَّبيِّ ﷺ هي أكثر الأمم كما قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[(٢)]، فأمَّته عليه الصَّلاة والسَّلام أكثر أمم الأنبياء والهدىٰ الَّذي بثَّه عليه الصَّلاة والسَّلام في أمَّته هو أكمل هديٍ جاء به الأنبياء والمرسلون، فحصل من هٰذا أنَّ أجره عليه الصَّلاة والسَّلام وما كتب الله له هو أعظم ممَّا كُتِب لغيره.

وهٰذا وجهٌ في كون النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام أعظم أجرًا ممَّن سبقه من الأنبياء والمرسلين.

وهٰذا الحديث أيضًا دالٌّ علىٰ مسارعة العبد المؤمن في الدَّعوة إلىٰ الله جلَّ وعلا في تعليم العلم وفي بثِّ الخير والتَّقليل من الشَّرِّ، فالعلماء ورثة الأنبياء «مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًىٰ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ» فلا يحقرنَّ أحدٌ من المعروف شيئًا بكلمةٍ أو برسالةٍ أو بموعظةٍ أو نحو ذلك ما دام علىٰ ذلك قادرًا، فالدَّعوة إلىٰ الله جلَّ وعلا فضلها عظيمٌ، تدعو إلىٰ أيِّ شيءٍ ممَّا تعلمه يقينًا في الشَّريعة فإنَّ لك من الأجر مثل أجور من عمل بذلك الشَّيء.

وكذلك في الحديث التَّخويف الشَّديد من أن يدعو المرء إلىٰ ضلالةٍ، فإنَّ المرء إذا دعا إلىٰ ضلالةٍ

(١) «صحيح مسلم» حديث رقم: (٢٦٧٤).

(٢) رواه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢) من حديث أبي هريرة ﵁.

وسنَّ سنَّةً سيِّئةً فتبعه عليها أناسٌ فأيضًا عليه إثم من اتَّبعه في ذلك، وهٰذا فيه التَّخويف من أن يُحدث المرء لنفسه أو لأهل بيته أو لمجتمعه أن يحدِث بابًا من أبواب الضَّلال، هٰذا تتراكم عليه الذُّنوب لأنَّه هو الَّذي سنَّ ذلك أو هو الَّذي دعا إليه وهو الَّذي وجَّه أنظار النَّاس إليه وجعل بابه مفتوحًا، كما جاء في الحديث الآخر «**وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[1]، وكما جاء أيضًا في الحديث الصَّحيح «**لَا يُقْتَلُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ مِثْلُهُ مِنَ الْوِزْرِ**» أو كما قال عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام ثمَّ علَّل بقوله: «**لِأَنَّهُ سَنَّ الْقَتْلَ**».[2]

فهٰذا الأصل ممَّا يجب أن يُخاف منه وهو: أن يفتح الإنسان علىٰ النَّاس باب شرٍّ إمَّا بكلامٍ أو بتصرُّفاتٍ أو يتساهل في أمرٍ ويدعو إلىٰ شرٍّ أو إلىٰ معصيةٍ أو إلىٰ ضلالةٍ، فيتَّبعه من يتَّبعه علىٰ ذلك، خاصَّةً في الأمور المستأنفة -يعني: ليست معروفةً-، أمَّا في أمور الذُّنوب والمعاصي الَّتي جرت عادة النَّاس عليها وفيما جعل الله جلَّ وعلا في بعض النُّفوس من الميل إلىٰ ذلك، فهٰذا قد لا يدخل في هٰذا الباب، لكنَّ الشَّيء الجديد الَّذي يدعو النَّاس إلىٰ ضلالةٍ – والعياذ بالله – في المنهج أو في السُّلوك أو في أمورٍ جديدةٍ تحدث في النَّاس تضلُّهم.

مثل ما هو حاصلٌ الآن من هٰذه الأمور الَّتي تدعو إلىٰ الفساد من القنوات والفضائيَّات أو من بعض الأشرطة أوأشباه ذلك هٰذه...

يكون هو أوَّل من يأتي بها ثمَّ يتساهل النَّاس فيها هو عليه من الإثم مثل آثام من اتَّبعه في ذلك أو تأثَّر به في ذلك لأنَّه هو الَّذي سنَّها ومن سنَّ في الإسلام سنَّةً سيِّئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلىٰ يوم القيامة –والعياذ بالله-.

فهٰذا الحديث كما أنَّ فيه الفضل العظيم والتَّرغيب كذلك فيه التَّخويف والتَّرهيب الشَّديد، فالمؤمن وخاصَّةً طالب العلم دائمًا يسعىٰ إلىٰ حثِّ النَّاس علىٰ الخير حتَّىٰ يحظىٰ بهٰذا الأجر، وأيضًا يُخَوِّف من مثل ما جاء في هٰذا الحديث.

إنسانٌ يدعو إلىٰ ضلالةٍ مثل مدرِّسٍ يدرِّس فيقول كلامًا ما يُعقل معناه أو يتساهل فيه وينقله عنه الطُّلاب ويقولون: قد قال لنا المُدرِّس في يوم كذا كذا وكذا وينقلونه إلىٰ من بعدهم.

وما حصلت التَّأويلات وما حصلت البدع ولا انتشرت في الأمَّة إلَّا بالنَّقل، وهٰذا ينقل عمَّن قبله، وإلَّا لو أنَّه وُقف عند الأوَّل لما انتشرت؛ لكنَّ الأوَّل سنَّها ثمَّ تبعه من لا يفهم، ثمَّ تبعه من لا يفهم، لهٰذا الدَّاعية والخطيب والمُدرِّس هؤلاء يخافون أشدَّ الخوف من الكلام لأنَّه كيف تُنقل الشَّريعة إلَّا بالكلام.

فإذا قال كلمةً لا يعرف معناها أو لا يعرف ثبوتها أو بمجرَّد رأيه أو عقله أو استحسانه سواءٌ في مسائل الدِّين الأصليَّة من العقيدة والتَّوحيد أو معرفة ما عليه الشَّريعة أو القواعد، أو في مسائل أيضًا العمل أو

---

(١) رواه مسلم (١٠١٧)، واللفظ للطبراني في «المعجم الأوسط» (٨٩٤٦).

(٢) رواه البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

السُّلوك أو الدَّعوة أو المواقف ونحو ذلك.

والإنسان لا يكون رأسًا في شيءٍ ليس له عليه بيِّنةٌ في الشَّريعة، احرص -إذا أردت أن تكون مبلِّغًا أو قائدًا أو نحو ذلك في الخير- أن تكون متثبِّتًا أنَّ هٰذا الَّذي تقوله بيقينٍ ما تلحقك عليه فيه غلالةٌ أو إثمٌ أو يلحقك فيه شكٌّ؛ بل كن علىٰ يقينٍ «**لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ**».(١)

أمَّا إذا صار الأمر مشتبهًا عليك في المسائل فاتركه فلست مُلزَمًا بأن تقول ولست ملزمًا بأن تعمل، والإنسان ألزم ما عليه براءة ذمَّته أمام الله جلَّ وعلا.

فهٰذا الحديث فيه الحثُّ علىٰ اتِّباع النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام واتِّباع صحابته واتِّباع السُّنَّة ولزوم الجماعة والتَّحريض علىٰ لزوم السُّنَّة والدَّعوة إليها، والحذر ممَّا يخالف ذلك.

أعان الله الجميع علىٰ الحقِّ والهدىٰ.

(١) سبق تخريجه (ص٨٩).

[١٢] وَلَهُ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: إِنَّهُ أُبْدِعَ بِي فَاحْمِلْنِي، فَقَالَ: «مَا عِنْدِي». فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَا أَدُلُّهُ عَلَىٰ مَنْ يَحْمِلُهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ». (١)

[١٣] وَعَنْ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتِي قَدْ أُمِيتَتْ بَعْدِي فَإِنَّ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنَ النَّاسِ لَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِ النَّاسِ شَيْئًا، وَمَنِ ابْتَدَعَ بِدْعَةً لَا يَرْضَاهَا اللهُ وَرَسُولُهُ فَإِنَّ عَلَيْهِ مِثْلُ إِثْمِ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنَ النَّاسِ لَا يَنْقُصُ مِنْ آثَامِ النَّاسِ شَيْئًا» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ وَابْنُ مَاجَهْ وَهٰذَا لَفْظُهُ. (٢)

قوله في الحديث الأوَّل: (إِنَّهُ أُبْدِعَ بِي فَاحْمِلْنِي، فَقَالَ: «مَا عِنْدِي».) يعني أنَّه احتاج إلىٰ راحلةٍ وانقطع به السَّير، أو لم يستطع أن يمشي. فاحملني فقال ما عندي شيءٌ، فأتىٰ رجلٌ فقال أنا أحمله فقال: «مَنْ دَلَّ عَلَىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ».

وهٰذا يعني أنَّ هٰذا الرَّجل أعان أخاه علىٰ وسيلةٍ من وسائل الخير، فصار له مثل أجر الفاعل، وهٰذا يدخل تحت قاعدة أنَّ الوسائل لها أحكام المقاصد – مثل ما ذكرنا لكم – فمن سعىٰ في وسيلةٍ إلىٰ مقصدٍ محمودٍ وكانت الوسيلة مشروعةً فإنَّه يُؤجَر علىٰ الوسيلة، كما قال جلَّ وعلا في ذكر السَّير إلىٰ الجهاد قال في آخر سورة براءة: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾[التَّوبة:١٢١]، لأنَّ المسير في الوادي وسيلةٌ إلىٰ بلوغ الغاية وهي مواجهة العدوِّ، فصار قطع الوادي مكتوبًا؛ الخطوات مكتوبةٌ لهم، فهٰذا أيضًا لمَّا كان العمل عملًا صالحًا وهٰذا الرَّجل انقطع به المسير وكان المقصد والغاية محمودةً فقال: يا رسول الله إنَّه أُبدِع بي فاحملني قال: لا أجد ما أحملك عليه، فقال رجلٌ: أنا أحمله يا رسول الله فقال: «مَنْ دَلَّ عَلَىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»؛ لأنَّ هٰذا إذا سار لو انقطع ممكنٌ يرجع ويقول: لا أستطيع، فينقطع الخير الَّذي أراده وهو: بلوغ الغاية وبلوغ المقصد.

فهٰذا أعانه علىٰ بلوغ الغاية فله مثل أجر الفاعل لتلك الغاية، يعني: فأجره في المقصد الَّذي كان سواءٌ جهادٌ أو حجٌّ أو نحو ذلك فهٰذا من حمل فله مثل أجر فاعله، فهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ قوله: «مَنْ دَلَّ عَلَىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ» أنَّه يدخل في الإعانة علىٰ الخير ويدخل فيه الدَّعوة إليه.

وهٰذا مراد الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ في إيراده بعد حديث: «مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًىٰ...» ليدلَّ علىٰ أنَّ الإعانة في وسائل الخير أيضًا داخلةٌ في هٰذا الأصل العظيم، فالوسائل لها أحكام المقاصد، وللإنسان مثل أجر من أعانه علىٰ الخير.

حديث عمرٍو بن عوفٍ قال: (رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ) ونسخة عمرو بن عوفٍ هٰذه معروفةٌ (كثير بن عبد الله عن أبيه عن جدِّه)، يُحسِّنها التِّرمذيُّ كثيرًا، وهي إسنادها: ضعيفةٌ أو ضعيفةٌ جدًّا، لأنَّ كثير بن

---

(١) «صحيح مسلم» حديث رقم: (١٨٩٣).

(٢) «جامع الترمذي» حديث رقم: (٢٦٧٧)، و«سنن ابن ماجه» حديث رقم: (٢١٠) قال الترمذي: حديث حسن.

عبد الله فيها صاحب النُّسخة ضعَّفوه أو بعض الأئمَّة تركه، لكن ما دلَّ عليه الحديث دلَّت عليه الأحاديث الأخر.

ونقف عند قوله فيه: «وَمَنِ ابْتَدَعَ فِيهِ بِدْعَةً لَا يَرْضَاهَا اللهُ وَرَسُولُهُ» فإنَّ هٰذه اللَّفظة استدلَّ بها بعض من يقسِّم البدعة إلىٰ بدعةٍ حسنةٍ وبدعةٍ سيِّئةٍ لأنَّه قال: «بِدْعَةً لَا يَرْضَاهَا اللهُ وَرَسُولُهُ» قالوا: فمفهومها: أنَّ ثمَّ بدعةً يرضاها الله ورسوله، لكنَّ هٰذا ليس بفهمٍ صحيحٍ؛ لأنَّ هٰذه ليس لها مفهومٌ بل هٰذا تأكيدٌ للمعنىٰ، «بِدْعَةً لَا يَرْضَاهَا اللهُ وَرَسُولُهُ» يعي: وكلُّ بدعةٍ لا يرضاها الله ورسوله، فهي في هٰذا كقوله جلَّ وعلا: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون]، فقوله: ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ ليس مفهومه: دعاء إلهٍ آخر للمرء له فيه برهانٌ، وكذلك هنا: «وَمَنِ ابْتَدَعَ فِيهِ بِدْعَةً لَا يَرْضَاهَا اللهُ وَرَسُولُهُ» لأنَّ كلَّ بدعةٍ لا يرضاها الله ورسوله، وكذلك كلُّ دعاء إلهٍ آخر لا برهان للمرء به فليس ثمَّ بدعةٌ يرضاها الله ورسوله.

وذلك لأنَّ المراد بالبدعة هنا البدعة في الدِّين، أمَّا البدع في الدُّنيا فهٰذه لا تدخل في مسمَّىٰ البدع الشَّرعيَّة، فما نُهي عنه من اسم البدع والمحدثات، فإنَّما هي محدثات في الدِّين أو بدع في الدِّين.

الدَّرس الثامن عشر

[١٤] وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ يَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ وَيَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَتُتَّخَذُ سُنَّةً يَجْرِي النَّاسُ عَلَيْهَا، فَإِذَا غُيِّرَ مِنْهَا شَيْءٌ قِيلَ: تُرِكَتْ سُنَّةٌ. قِيلَ: مَتَىٰ ذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ؟ قَالَ: إِذَا كَثُرَ قُرَّاؤُكُمْ وَقَلَّ فُقَهَاؤُكُمْ وَكَثُرَتْ أَمْوَالُكُمْ وَقَلَّ أُمَنَاؤُكُمْ وَالْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ وَتُفُقِّهَ لِغَيْرِ الدِّينِ. رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ.(١)

[١٥] وَعَنْ زِيَادِ بْنِ حُدَيْرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي عُمَرُ رضي الله عنه: هَلْ تَعْرِفُ مَا يَهْدِمُ الْإِسْلَامَ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: يَهْدِمُهُ زَلَّةُ الْعَالِمِ، وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ، وَحُكْمُ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ. رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ أَيْضًا.(٢)

[١٦] وَعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: كُلُّ عِبَادَةٍ لَا يَتَعَبَّدُهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَا تَعَبَّدُوهَا فَإِنَّ الْأَوَّلَ لَمْ يَدَعْ لِلْآخِرِ مَقَالًا، فَاتَّقُوا اللهَ يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ وَخُذُوا طَرِيقَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.(٣)

[١٧] وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ فَإِنَّ الْحَيَّ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانُوا أَفْضَلَ هَٰذِهِ الْأُمَّةِ: أَبَرَّهَا قُلُوبًا، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا، اخْتَارَهُمُ اللهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ وَلِإِقَامَةِ دِينِهِ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ، وَاتَّبِعُوهُمْ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ وَتَمَسَّكُوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَسِيَرِهِمْ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَىٰ الْهُدَىٰ الْمُسْتَقِيمِ. رَوَاهُ رُزَيْنٌ.(٤)

[١٨] وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ قَوْمًا يَتَدَارَؤُونَ فِي الْقُرْآنِ فَقَالَ: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَٰذَا، ضَرَبُوا كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، وَإِنَّمَا نَزَلَ كِتَابُ اللهِ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا فَلَا تُكَذِّبُوا بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، فَمَا عَلِمْتُمْ مِنْهُ فَقُولُوا وَمَا جَهِلْتُمْ فَكِلُوهُ إِلَىٰ عَالِمِهِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ.(٥)

هٰذه الأحاديث والآثار عظيمةٌ في هٰذا الباب وهو ([**بَابُ تَحْرِيضِهِ ﷺ عَلَى لُزُومِ السُّنَّةِ وَالتَّرْغِيبِ فِي ذَلِكَ**..])، ومن أصول الإيمان به عليه الصَّلاة والسَّلام: أن تلازَم وتُلتزَم سنَّته عليه الصَّلاة والسَّلام، وملازمة السُّنَّة يكون في الأمور العلميَّة وفي الأمور العمليَّة.

فالأمور العلميَّة: في مسائل الغيبيَّات في الله جلَّ وعلا وأسمائه وصفاته وأفعاله، وكذلك فيما في اليوم الآخر من الحوض والميزان والجنَّة والنَّار إلىٰ آخر ذلك، وكذلك من الأمور الغيبيَّة من الجنِّ والملائكة وما أخبر به عليه الصَّلاة والسَّلام.

فكلام الله جلَّ وعلا صدقٌ وعدلٌ، وكذلك كلام رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام قال سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ﴾[الأنعام:١١٥]. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ يعني: الشَّرعيَّة، ﴿صِدْقًا﴾: في الأخبار لا كذب فيها تعالىٰ الله جلَّ وعلا عن ذلك ﴿وَعَدْلًا﴾ يعني: في الأمر والنَّهي لا ظلم فيها.

---

(١) «سنن الدارمي» حديث رقم: (١٩١، ١٩٢)

(٢) «سنن الدارمي» حديث رقم: (٢٢٠).

(٣) «الزهد» لأبي داود (١/ ٢٨٨) دون الجملة الأولىٰ، ورواها البخاري أيضا (٧٢٨٢)، وأورد الأثر أبو شامة في «الباعث» (٧٠-٧١) ونسبه لأبي داود في «السنن».

(٤) رواه رزين كما في «المشكاة» رقم (١٩٣). وقال الشيخ ناصر في تعليقه عليه: منقطع.

(٥) «مسند أحمد» حديث رقم: (٦٧٤١ -الرِّسالة)، واللفظ له، «وسنن ابن ماجه» حديث رقم: (٨٥)، بمعناه.

فملازمة السُّنَّة في الأمور العلميَّة يكون في مسائل الغيب، وهٰذه من أعظم ما حصل فيه الافتراق والبدع في المسائل الغيبيَّة في الجنَّة والنَّار والملائكة والجنِّ والصِّفات وأشباه ذلك.

وأيضًا في المسائل العلميَّة وهي الصُّورة الثَّانية تلازم السُّنَّة في المسائل العلميَّة بعدم تقديم العقل علىٰ السُّنَّة، والعقل والقياس والرَّأي إنَّما هو خادمٌ للسُّنَّة لا مقدَّمًا عليها، وقد ضلَّ وابتدع وتنكَّب الصِّراط من قال: إنَّ العقل هو القاضي والكتاب والسُّنَّة شاهدا عدلٍ، وهٰذه يقولها طوائف من المتكلِّمين وأهل البدع من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم.

فالمسائل العلميَّة كالعبادات – يعني من جهة كونها علميَّةً – تُقدَّم فيها السُّنَّة علىٰ العقل، فالعقل خادمٌ فقد نصل إلىٰ المعنىٰ وقد لا نصل وقد نفهم وقد لا نفهم، وأيضًا العقل مختلفٌ قد يصل فلانٌ العالم ولا يصل فلانًا الآخر، والجميع واجبٌ عليهم التَّسليم، هٰذا من حقوق النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام.

أيضًا ملازمة السُّنَّة في الأمور العمليَّة، وهي القسم الثَّاني: بترك البدع والمحدثات ولزوم طريقة الصَّحابة رضوان الله عليهم والَّذين اهتدوا بهديه عليه الصَّلاة والسَّلام، فكلُّ بدعةٍ: خروجٌ عن السُّنَّة، ولهٰذا قال ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ يَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ وَيَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَتُتَّخَذُ سُنَّةً يَجْرِي النَّاسُ عَلَيْهَا فَإِذَا غُيِّرَ مِنْهَا شَيْءٌ قِيلَ تُرِكَتْ سُنَّةٌ) فالبدع العمليَّة مناقضةٌ للسُّنَّة العمليَّة، بل كلَّما زادت السُّنن ضعفت البدع وكلَّما ضعفت السُّنن ظهرت البدع.

مخالفة السُّنَّة والأخذ بالبدع والمحدثات؛ يعني منشؤه في هٰذه الأمَّة من الزَّمن الأوَّل إلىٰ زمننا هٰذا له عدَّة أسبابٍ أنشأت الأخذ بالبدع:

أوَّلًا الجهل: فالبدعة يُنشئها الجهل بالسُّنَّة، وإلَّا فالسُّنَّة كافيةٌ، فيُنشئ عبادةً يتعبَّدُها، أو يتأوَّل شيئًا من المسائل العلميَّة فيصير إلىٰ البدعة لأجل جهله.

والثَّاني من أسباب نشوء البدع وضعف السُّنن الهوىٰ: والهوىٰ لا شكَّ أنَّه من أعظم أسباب حدوث البدع في هٰذه الأمَّة فالخوارج والمرجئة والقدريَّة عندهم أهواءٌ مع الجهل والتَّأويل الَّذي عندهم.

السَّبب الثَّالث إرادة الخير: فيكون عنده جهلٌ ويكون عنده هوًىٰ، ويقول: أنا أريد الخير، وهٰذا مثل ما ذُكر لابن مسعودٍ أنَّ جماعةً يجتمعون يقول أحدهم: سبِّحوا مائةً هلِّلوا مائةً احمدوا مائةً، وبين أيديهم حصًىٰ يعدُّون، فذهب إليهم أبو عبد الرَّحمٰن عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلمَّا رآهم علىٰ هٰذه الحال قال: أنتم علىٰ أهدىٰ من طريقة صحابة رسول الله ﷺ أو أنتم علىٰ شعبة ضلالةٍ – يعني أنتم علىٰ شعبة ضلالةٍ؛ لأنَّ هٰذا الأمر جديدٌ وهم يعرفون ذلك – هٰذه آنية رسول الله ﷺ لم تُكسر وهؤلاء أزواجه عليه الصَّلاة والسَّلام لم يمتن – يعني أنَّ العهد به قريبٌ – قالوا: يا أبا عبد الرَّحمٰن ما أردنا إلَّا الخير !! – يعني: الَّذي بعثنا علىٰ هٰذه الصِّفة وهٰذا التَّسبيح وهٰذا تسبيحٌ وتهليلٌ إنَّما هو الخير – قال: كم مريدٍ للخير لم يبلغه.[1]

وهٰذا يدلُّك علىٰ أنَّ منشأ كثيرٍ من البدع في المسائل العلميَّة أو في المسائل العمليَّة قول القائل: أردنا الخير، وابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ردَّ علىٰ هٰذه الفرية أو علىٰ هٰذه الشُّبهة بأبلغ ردٍّ.

---

(١) رواه الدارمي في «سننه» برقم (٢١٠).

أيضًا من أسباب ترك السُّنن والأخذ بالبدع في هٰذه الأمَّة في المسائل العلميَّة أو العمليَّة الغلوُّ: وهو مجاوزة الحدِّ المأذون به إمَّا في المسائل العلميَّة أو في المسائل العمليَّة، فمن جاوز الحدَّ المأذون به في ذلك فإنَّه لا يؤمَن عليه؛ بل يَصير في المخالفة والبدعة.

فالَّذين جاوزوا الحدَّ في الجهاد صارُوا إلىٰ بدعة الخوارج.

والَّذين جاوزوا الحدَّ في مسألة التَّحكيم صاروا إلىٰ الخارجيَّة.

والَّذين جاوزوا الحدَّ في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر صار بهم الأمر إلىٰ الخروج علىٰ الولاة — كما هو دين المعتزلة —.

والَّذين جاوزوا الحدَّ في الأذكار صار بهم الأمر إلىٰ بدع الأذكار والاجتماعات.

والَّذين جاوزوا الحدَّ في السُّلوك وتربية النفس والزُّهد صار بهم الحال إلىٰ أن سلكوا مسلك التَّصوُّف المبتدع.

والَّذين جاوزوا الحدَّ في تنزيه الله جلَّ وعلا صار بهم إلىٰ التَّعطيل، وهكذا في أشياء كثيرةٍ.

فإذن الغلوُّ من أعظم أسباب ترك السُّنن والأخذ بالبدع، وهٰذه كلماتٌ لها زيادة تفصيل.

المقصود ممَّا يتعلَّق بهٰذه الآثار العظيمة: أنَّ من حقِّ النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ بل أعظَم حقوقه علىٰ أمَّته والإيمان به: أن يُقتفىٰ سبيل المصطفىٰ عليه الصَّلاة والسَّلام وأن تُترك الأهواء والبدع وبَنيَّات الطَّريق.

ممَّا ذَكر الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أثر ابن مسعودٍ الأوَّل وذكر فيه التَّحذير من زمانٍ يكثر فيه القرَّاء ويقلُّ فيه الفقهاء، وهٰذا الزَّمان الَّذي نعيشه منه — من هٰذا الزَّمان —؛ بل وما قبله كثر فيه القرَّاء والمنتسبون للعلم في الجامعات والجوامع في شتَّىٰ البلاد الإسلاميَّة؛ ولكنَّ الفقهاء بالدِّين والفقهاء بالكتاب والفقهاء بالسُّنَّة يقلُّون، والقرَّاء إذا كثروا معناه أنَّه تكثر مصادرهم في القراءة فتكثر الكتب لكنَّ الفقه بالكتاب والسُّنَّة يقلُّ.

وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ طالب العلم يحذر من عدم الفقه في الدِّين، والفقه في الدِّين مرتبتان:

الفقه الأكبر: وهو الفقه في الله جلَّ وعلا — يعني: الفهم في الله جلَّ وعلا — وبأسمائه وصفاته وأفعاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهٰذه أمور العقيدة.

والفقه الأصغر: وهو بمعرفة الحلال والحرام.

وأدلَّة هذين من الكتاب والسُّنَّة، هٰذا هو حقيقة الفقه، وملازمة طريقة الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ هٰذا هو الفقه، أمَّا غير ذلك فإنَّ المرء يبعد عن طريقة السَّلف والهدي النَّبويِّ بمقدار ما تكون عنده المخالفة.

فإذن الواجب عليك يا طالب العلم وتنتبه لهٰذه كثيرًا في حياتك أن يكون اهتمامك أعظم ما يكون بالفقه في الدِّين، فهو الَّذي سينجيك في الآخرة عند لقائك لربِّك جلَّ وعلا.

والفقه بالدِّين هو: العلم بالتَّوحيد والفقه -يعني الحلال والحرام-، فإذا عرفت التَّوحيد والحلال والحرام، وبقدر ما يعطيك الله جلَّ وعلا من الفهم والصَّبر والتُّؤدة وما تُوفَّق إليه تعرف الأدلَّة -أدلَّة العقيدة من الكتاب والسُّنَّة وأدلَّة الفقه من الكتاب والسُّنَّة- فإنَّك علىٰ خيرٍ، هٰذه طريقة السَّلف في العلم والعمل.

وفَّقني الله وإيَّاكم لما فيه رضاه وجنَّبنا الفتن [المضلَّة] ما ظهر منها وما بطن، اللَّهمَّ آمين.

الدرس التاسع عشر

٩- بَابٌ

التَّحْرِيضُ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ وَكَيْفِيَّةُ الطَّلَب

[١] فِيهِ حَدِيثُ «الصَّحِيحَيْنِ» فِي فِتْنَةِ الْقَبْرِ أَنَّ الْمُنَعَّمَ يَقُولُ: جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ فَآمَنَّا بِهِ وَأَجَبْنَا وَاتَّبَعْنَا، وَأَنَّ الْمُعَذَّبَ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ.(١)

[٢] وَفِيهِمَا عَنْ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ».(٢)

الحمد لله، وبعد:

هٰذا الباب مناسبته لأركان الإيمان هو: أنَّ الإيمان بمحمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام والإيمان بالقرآن يعظُم بالعلم، والنَّجاة أيضًا في الإيمان بمحمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام عند السُّؤال في القبر لا ينجو إلَّا من يعلم، ولهٰذا قدَّم لك ذكر السُّؤال في القبر وأنَّ المُنعَّم يقول: مُحَمَّدٌ (جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ فَآمَنَّا بِهِ وَأَجَبْنَا وَاتَّبَعْنَا) وهٰذا يدلُّ علىٰ علمه بما جاء به محمَّدٌ عليه الصَّلاة والسَّلام وعلىٰ اتِّباعه.

والآخر -الفاجر أو المنافق- يقول: هَاه هَاه (سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ)، فيدلُّ علىٰ أنَّه ردَّد ما يقوله النَّاس وليس عنده همَّةٌ لمعرفة ما أنزل الله جلَّ وعلا علىٰ نبيِّه.

فإذن أركان الإيمان الَّتي بها يتفاضل النَّاس وتعظم درجاتهم ومراتبهم عند ربِّهم جلَّ وعلا إنَّما يتفاضلون بالعلم، فكلَّما زاد العلم زاد الإيمان، وكلَّما زاد الفقه في الدِّين زاد اليقين -إذا وفَّق الله جلَّ وعلا العبد إلىٰ العمل الصَّالح- وهٰذا فيه النَّجاة في الآخرة عند السُّؤال في القبر وما بعده، وهٰذا من أعظم ما يحضُّ طالب العلم علىٰ أن يتعلَّم لأنَّ النَّجاة بالعلم.

وليس سواءً عالمٌ وجهولٌ.

حديث معاوية الَّذي في الصَّحيح قال عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» الدِّين في هٰذا الحديث هو ما يشمل العقيدة والشَّريعة؛ لأنَّ الدِّين له ثلاث مراتب: الإسلام والإيمان والإحسان -كما في حديث جبريل، قال: «هٰذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»،(٣) فدين الإسلام له ثلاث مراتب، ومن ثلاثة الأصول الَّتي يجب علىٰ كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ أن يتعلَّمها: معرفة المسلم دينه بالأدلَّة يعني: الإسلام والإيمان والإحسان.

فإذن: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» يعني: يفقِّهه في العقيدة، يفقِّهه في التَّوحيد، يفقِّهه أيضًا في الشَّريعة في الحلال والحرام.

ودلَّ هٰذا الحديث علىٰ أن من لم يتفقه فإن الله جلَّ وعلا لم يرد به خيرًا -ومعنىٰ: لم يردْ به خيرًا.

---

(١) «صحيح البخاري» حديث رقم: (٨٦،١٨٤)، و«صحيح مسلم» حديث رقم: (٩٠٥).

(٢) «صحيح البخاري» حديث رقم: (٧١)، و«صحيح مسلم» حديث رقم: (١٠٣٧).

(٣) سبق تخريجه (ص٤٠)

يعني أنَّ الله جلَّ وعلا ما هيَّأ له أسباب الخير؛ لأنَّ أعظم أسباب الخير في العلم والفقه في دين الله جلَّ وعلا.

الفقه في الدِّين هٰذا جاء في القرآن في قول الله جلَّ وعلا: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[التَّوبة] فالفقه في الدِّين في هٰذه الآية وفي الحديث المراد به: الفقه بما أنزل الله جلَّ وعلا علىٰ رسوله في القرآن وما جاء في السُّنَّة. وما جاء في القرآن والسُّنَّة يشتمل علىٰ العقيدة ويشتمل علىٰ الحلال والحرام.

فتخصيص العلماء علم الحلال والحرام بالفقه هٰذا اصطلاحٌ خاصٌّ، أمَّا دِلالة النُّصوص والَّذي كان عليه هدي السَّلف – يعني في زمن الصَّحابه فمن بعدهم– أنَّ الفقه يشمل الفقه في الدِّين بأجمعه وليس مخصوصًا بالفقه في الحلال والحرام؛ بل أعظم الفقه: الفقه بالتَّوحيد، الفقه في حقِّ الله جلَّ وعلا، «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ».

[٣] وَفِيهِمَا عَنْ أَبِي مُوسَىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَىٰ إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً. فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ».(١)

هٰذا الحديث من أعظم الأحاديث التي تدلُّ علىٰ فضل العلم وفضل طلب العلم، وهو أنَّ النَّبيَّ ﷺ قسَم الَّذين استقبلوا ما بعثه الله جلَّ وعلا به إلىٰ ثلاثة أقسام فجعلهم ثلاث طوائف:

الأولىٰ: (قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ) الَّذي ينفع النَّاس وينفع بهائمهم، وهٰذا إذا نفع البهائم معه شرب اللَّبن ومعه زيادة اللَّحم ومعه زيادة الصُّوف ومعه ومَعه أشياءٌ كثيرةٌ من المأكول والملبوس وحتَّىٰ ما يُسكن أيضًا، وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ من قبِل العلم وأقبل عليه فعلِم وعلَّم أنَّه مثل الأرض الَّتي أقبل عليها النَّاس بأنفسهم يشربون من مائها ويرعون فيها أغنامهم فهي خيرٌ لهم دائمًا.

والفئة الثَّانية: فئةٌ تحفظ الماء لكنَّها ما تنبت. وهٰذا مثالٌ لمن قبل العلم لكنَّه حفظه، لم يعمل به – يعني: عملًا كاملًا – ولم يفقه حتَّىٰ علم وإنَّما حفظ فنقل، وهٰذا داخلٌ في قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَءًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَىٰ لَهُ مِنْ سَامِعٍ**»،(٢) فمن حفظ العلم ونقله أيضًا داخلٌ في الفضل، لكنَّ فضله دون الفئة الأولىٰ بكثيرٍ.

وأمَّا الفئة الثَّالثة: الَّذين لم يرفعوا بالعلم رأسًا فهم كالأرض القيعان الَّتي لا تنبت كلأً ولا تمسك ماءً، لا تنبت فتنفع النَّاس وأيضًا لا تمسك ماءً فتنفع النَّاس فهي لا تحفظ ولا تقبل علىٰ العلم بالحفظ والمدارسة، وكذلك لا تعلم ولا تدعو إلىٰ الخير، فهٰذه قيعان وهي مذمومةٌ.

(فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ).

هٰذا الحديث يُسمَّىٰ حديث طالب العلم أو طلب العلم عند طائفةٍ من العلماء وشُرح عدَّة شروحٍ جديرٌ بك أن تطالعها؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ ضرب مثلًا في حقيقتك أنت، من أيِّ فئةٍ؟ المسلم يمكن أن يحدِّد فئته من هٰذا الحديث، هل هو من الفئة الَّتي قبلت فأنبتت الكلأ والعشب الكثير واستقىٰ النَّاس وصاروا مصدر خيرٍ، أم من الفئة الثَّانية الَّتي تحفظ وتنقل؛ لكن لا تعمل ولا تعلِّم ولا تدعو، وإمَّا أن يكون ممَّن لا يعلم ولا يعلم قيعان لا ينفع لا يمسك ماءً ولا ينبت كلأً.

فهٰذا مثلٌ عظيمٌ تحتاج فيه إلىٰ تأمُّلٍ وتدبُّرٍ، ولا شكَّ أنَّ الإيمان يعظم، وأركان الإيمان وأصول الإيمان تعظم في النَّفس بالعلم والتَّعليم.

فإذا حصل لك أن تعلم بيقينٍ العلوم الشَّرعيَّة، وخاصَّةً التَّوحيد والعقيدة تعلمها بيقينٍ، ثمَّ تعلِّم ذلك

(١) «صحيح البخاري» حديث رقم: (٧٩)، و«صحيح مسلم» حديث رقم: (٢٢٨٢).

(٢) رواه أبو داود برقم: (٣٦٦٠)، والترمذي برقم: (٢٦٥٦)، وابن ماجه برقم: (٢٣٠).

للنَّاس بيقينٍ أيضًا دون أن تدخل فيما لا تحسن، فهٰذا من أعظم المراتب، والعبد يبارك الله في علمه وعمله إذا أخلص النِّيَّة والقصد وأتىٰ ما يحسن وترك ما لا يحسن، فإذا زاد علىٰ ذلك العلم بالفقه والسُّنَّة –يعني من جهة الأحاديث– وعلَّم أيضًا الحلال والحرام ونفع النَّاس فيما يأتون وما يذرون، فهٰذا يكون من الرَّبَّانيِّين: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾[آل عمران] جمعوا بين الدِّراسة والعلم والتَّعليم.

... حتَّىٰ للجبال وحتَّىٰ الشَّجر لا شكَّ طالب العلم نفعه متعدِّي حتَّىٰ للبهائم، سنة من السِّنين جاء اقتراحٌ من البلديَّة عندما كثرت الكلاب في البلاد قبل أربعين سنةً تقريبًا، وصارت تضايق النَّاس فأرادت البلديَّة أنَّها تقتل جميع الكلاب وجاء أمرٌ بذلك، وكان المفتي العلَّامة الشَّيخ الجدُّ محمَّد بن إبراهيم – غفر الله له – في ذلك الوقت وقف فيها فكلَّم الملك سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكتب إليه أيضًا: في أنَّ الكلاب – مثل ما جاء في الحديث – أمَّةٌ من الأمم والنَّبيُّ ﷺ يقول: «**لَوْلَا أَنَّ الْكِلَابَ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ لَأَمَرْتُ بِقَتْلِهَا فَاقْتُلُوا مِنْهَا الْأَسْوَدَ الْبَهِيمَ**»[1] فنهاه عن قتل الكلاب.

فالعالم وطالب العلم خيره وفضله علىٰ البهائم حتَّىٰ البهيمة الَّتي تُذبح يعلم كيف تُذبح «**إِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ وَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**»[2]، حتَّىٰ في الشَّجر وما يحسن منه وما لا يحسن سواءٌ كان شجر الحرم أو غيره، والجبال والَّذي يسمُّونه الآن البيئة كلُّ ذلك يرجع فيه إلىٰ أهل العلم، فصاحب العلم وطالب العلم فضله علىٰ الجميع.

ننهىٰ أيضًا عن التَّلهِّي في الصَّيد، يصيد الطُّيور أو يصيد الحيوانات للَّهو، هٰذا أيضًا لأهل العلم فيه كلمةٌ فينهىٰ عنه أصحابها، للَّهو بس الَّذي يحتاج للأكل أو سيأكل ما يصيد هٰذا طيِّب لمَّا للَّهو ثمَّ يرمىٰ ينهىٰ عنه حفاظًا علىٰ هٰذا.

فالعالم يستغفر له كلُّ شيءٍ حتَّىٰ الحيتان في جوف الماء لما له من أثرٍ علىٰ الجميع.

وأمَّا الكافر أو الفاجر فكما قال الله جلَّ وعلا: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾[البقرة] يعني الكافر والمنافق يلعنه اللَّاعنون حتَّىٰ يلعنه الجُعَل في جحره، مثل ما جاء في تفسير الآية يقول: (بسببك مُنِعتُ القطر من السَّماء).

سؤال: هل تكون الطائفة الثانية ممَّن علِم وعلَّم؛ لٰكِن علَّم علىٰ وجه...

الجواب: لا هٰذه حفظت بس، ذكر المحمود والمذموم، يعني ذكر الطَّائفة الأولىٰ الَّتي علِمت وعلَّمت والمثل يقتضي ذلك، وذكر الطَّائفة المذمومة الَّتي لم ترفع للهدىٰ والعلم رأسًا. وابن رجبٍ له شرحٌ لهٰذا الحديث مطبوعٌ –راجعوه– مستقلٌّ فيه كلماتٌ ونقولٌ عن السَّلف أيضًا حسنةٌ.

---

(١) رواه مسلم برقم (١٥٧٢) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم برقم (١٩٥٥) من حديث شداد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

[٤] وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مَرْفُوعًا: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّىٰ اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ». (١)

[٥] وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّتِهِ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ، وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ. (٢)

[٦] وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا نَسْمَعُ أَحَادِيثَ مِنْ يَهُودٍ تُعْجِبُنَا أَفَتَرَىٰ أَنْ نَكْتُبَ بَعْضَهَا؟! فَقَالَ: «أَمُتَهَوِّكُونَ أَنْتُمْ كَمَا تَهَوَّكَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً وَلَوْ كَانَ مُوسَىٰ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي» رَوَاهُ أَحْمَدُ. (٣)

من هنا إلىٰ آخر الكتاب كلُّه في ذكر العلم وفي ذكر فضله وطريقة حمله وآداب حملته، ومن هم العلماء؟ وفضل أهل الحديث والتَّحذير من الأخذ بالمتشابه، إلىٰ غير ذلك ممَّا سيأتي إن شاء الله تعالىٰ.

وهٰذه الأحاديث والآثار الَّتي ستأتي من أوَّل ما قرأنا إلىٰ آخر الكتاب ثَمَّ كتبٌ خاصَّةٌ ببيانها وتفصيل الكلام عليها وخاصَّةً كتاب الحافظ ابن عبد البرِّ: «**جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله**».

وهو جديرٌ أن يعتني به طالب العلم وأن يقرأه لأنَّه مشتملٌ علىٰ كثيرٍ من هدي السَّلف في العلم والعمل.

قال الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ: (وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مَرْفُوعًا: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّىٰ اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ».) اتِّباع المتشابه مذمومٌ في العلم، فطالب العلم إذا تعلَّم وأراد أن يُقبل وأن ينفعه الله بالعلم يقبل علىٰ المُحكمات ويترك الإشكالات، الإشكالات والشُّبه وما يردُ علىٰ المسائل لا يتتبَّع ذلك لأنَّ تتبُّعه لذلك قد يفضي به إلىٰ الزَّيغ والعياذ بالله؛ لأنَّه لم يتصوَّر العلم حتَّىٰ يجيب عن تلك الإشكالات والشُّبه، ومن قوَّة الإدراك والعقل ما يجيب عنها أيضًا، فالواجب عليه أن يؤمن بالجميع ويقول: ﴿كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾[آل عمران:٧] ثمَّ يُقبل علىٰ المُحكم فيتعلَّم المُحكم بدليله؛ يعني الَّذي دلالته واضحةٌ غير محتملةٍ أو ما لا يشتبه عليه بفهم عالمٍ مأمونٍ يأمنه علىٰ دينه وعلمه.

والله جلَّ وعلا ذكر أنَّ القرآن منه مُتشابهٌ ومنه مُحكمٌ فقال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ ﴾ [آل عمران:٧].

وهٰذه الآية من أعظم ما يحذِّر به الله جلَّ وعلا من اتِّباع المتشابه؛ لأنَّه جعل اتِّباع المتشابه صفةً للَّذين في قلوبهم زيغٌ؛ بل جعل الزَّيغ سابقًا للاستدلال واتِّباع المتشابه فقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ

(١) تقدم (باب٦ رقم٧).

(٢) «صحيح مسلم» حديث رقم: (٥٠).

(٣) «مسند أحمد» حديث رقم: (١٥١٥٦-الرِّسالة).

﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ فجعل وجود الزَّيغ أوَّلًا واتِّباع المتشابه ثانيًا، فاتِّباع المتشابهات والعناية بها والجدال فيها هٰذا ليس من صفة أهل التَّسليم، وليس من صفة المتَّبعين للمُحكم الَّذين يقولون: كلٌّ من عند ربِّنا، الَّذين هم الرَّاسخون في العلم ومن اقتدىٰ بهم.

فإذن الواجب علىٰ طالب العلم في أوَّل طلبه للعلم؛ بل في مسيره في طلب العلم في عمره كلِّه أن يعتني بالمُحكمات، ولا بدَّ أن تردَ عليه مُتشابهاتٌ عليه ومشتبهاتٌ عليه فيردُّ ذلك إلىٰ المُحكم، فإن علِم وإلَّا قال: آمنَّا به كلٌّ من عند ربِّنا.

وأمَّا الَّذين يتَّبعون المُتشابه ويتركون المُحكمات فأولئك الَّذين في قلوبهم زيغٌ، يترك الواضح ويبدأ يورد أدلَّةً، والله جلَّ وعلا جعل من القرآن ما هو متشابهٌ، فالقرآن لا يخلو من دليلٍ حتَّىٰ في مسائل العقيدة استدلَّ به المخالفون للحقِّ.

فالنَّصارىٰ استدلُّوا علىٰ بقائهم علىٰ نصرانيَّتهم وعلىٰ دينهم؛ بل علىٰ ملَّتهم استدلُّوا بالقرآن فقالوا: إنَّ الله جلَّ وعلا أثنىٰ علينا بقوله جلَّ وعلا: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ﴾[المائدة].

فيقولون: أثنىٰ عليهم بأنَّهم يعرفون الحقَّ وأنَّ أعينهم تدمع، وذكر الله أنَّه الله غفر لهم وأنَّهم مؤمنون إلىٰ آخره، ويقولون: بأنَّ رسالة النَّبيِّ ﷺ خاصَّةٌ بالعرب بقوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ﴾[الزُّخرف:٤٤] وبقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[الشُّعراء].

واستدلَّ الخوارج بمتشابهاتٍ من القرآن علىٰ أنَّ مرتكب الكبيرة يخلد في النَّار بقوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾[النِّساء:٩٣]، فذكر أنَّ القاتل يخلُد في النَّار.

واستدلَّ المعتزلة علىٰ قولهم: إنَّ الله جلَّ وعلا لا يرىٰ في الآخرة بقوله: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾[الأعراف: ١٤٣] وبقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ﴾[الأنعام:١٠٣].

وكذلك استدلَّ أهل الفجور الَّذين يشربون الخمر بأنَّ الله جلَّ وعلا ما حرَّم الخمر وإنَّما رغب في الانتهاء عنها فقال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة]. ما قطع فيها بتحريمٍ.

إلىٰ آخره في مسائل كثيرةٍ جدًّا يستدلُّ بها أهل الزَّيغ ببعض القرآن.

كذلك السُّنَّة منها متشابهٌ أيضًا استدلَّ به من استدلَّ علىٰ نحلته وعلىٰ طريقته.

وكذلك أقوال الصَّحابة وأفعال الصَّحابة منها متشابهٌ.

وكذلك أفعال التَّابعين وأقوال التَّابعين منها متشابهٌ.

وكذلك أقوال العلماء سواءٌ في كتبهم أو فيما نُقل عنهم منها محكماتٌ ومنها متشابهاتٌ.

بل وُجود المتشابه في القرآن أقلُّ من وجوده في السُّنّة، ووجوده في كلام السَّلف وفي أعمال السَّلف أكثر، وجود المتشابه أكثر، ووجوده في كلام أهل العلم في الكتب أكثر وأكثر.

فإذن إذا صار المرء له شيءٌ ونظرٌ ثمَّ بحث ذهب يجمع يتَّبع المتشابه ليدلِّل علىٰ نحلته أو طريقته هٰذه سمة أهل الزَّيغ، أمَّا سمة أهل الحقِّ فإنَّهم يُقبلون علىٰ الكتاب والسُّنَّة متخلِّين عن آراءهم واعتقادهم فيَقبلون ما جاء في الكتاب والسُّنَّة وما أجمع عليه السَّلف وما قرَّره الأئمَّة من المعتقدات، أمّا يأتي بشيءٍ جديدٍ بتقرير مسائل لابدَّ تجد من كلام العلماء من يقول كذا إمَّا مُجملًا أو مُطلقًا وإمَّا رأيٌ أخطأ فيه فليست العبرة بجمع النُّقول وليست العبرة بجمع الأدلَّة، وإنَّما العبرة أن تكون الأدلَّة راجحةً أن تكون الأدلَّة مُحكمةً في دلالتها وأن تكون أيضًا ثابتةً إذا كانت من السُّنَّة.

فإذن العبرة ليست بالاستدلال، وكلُّ صاحب زيغ استدلَّ من وقت الخوارج إلىٰ يومنا هٰذا واتَّبع دليلًا وظاهر الآية يدلُّ علىٰ ذلك ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ يتَّبعون، ولا يأتون بشيءٍ من عندهم، يتَّبعون ما تشابه منه؛ لكنَّهم تركوا المُحكم فاستحقُّوا الذَّم، ولماذا تركوا المُحكم؟ لأنَّ في قلوبهم زيغًا فتركوا المُحكم واتَّبعوا ما تشابه منه، يستدلُّون بالمتشابه علىٰ زيغهم، وهٰذا أمرٌ عظيمٌ، واليوم نرىٰ فيما أُلِّف من كتبٍ معاصرةٍ في مسائل تخالف ما قرَّره أئمَّة أهل السُّنَّة وما عليه الجماعة –قبل أن تفسد الجماعة– وما عليه أئمَّة الحديث وأهل الحقِّ والَّذين أخذوا بالمُحكم وردُّوا المُتشابه إلىٰ المُحكم اليوم يوجد كتبٌ كثيرةٌ ورسائل ونُبذٌ ومطبوعاتٌ كلُّها فيها أدلَّةٌ وكلُّها فيها نُقولٌ، فليست العبرة بالنُّقول وليست العبرة بوجود نوع استدلالٍ؛ ولكنَّ العبرة بموافقة المرء طالب العلم طالب النَّجاة في أصول إيمانه وفي العقيدة والتَّوحيد، موافقتُه للجماعة موافقته الأئمَّة الَّذين عُرف عِلْمُهم وسلامة طريقتهم وعُرف اتِّباعهم لكتاب الله جلَّ وعلا وسنَّة رسوله ﷺ وطريقة السَّلف الصَّالح.

هٰذه مسألةٌ مُهمَّةٌ جدًّا ولا تَغِبْ عن بالك ولو لم تكن في حياتك إلَّا هٰذه الوصيَّة فهي وصيَّةٌ عظيمةٌ لنفسي ولكم، فليست العبرة بالمُؤلَّفات بالكتب وإنَّما العبرة بملازمة الطَّريق الأولىٰ قبل أن تفسد الطُّرق، كثرة الطُّرق وكثرة المُؤلَّفات ما تصدُّ الواحد هٰذه تعتبرها من المُتشابهات إذا صارت ما عليه أهل الحقِّ والجماعة.

الآن كلٌّ يقرأ وكلٌّ يبحث فيذهب ويقول: قال فلانٌ كذا وقال فلانٌ كذا، ليست هٰذه بالوجهة الصَّحيحة، أحيانًا يأتي متشابه من كلام أهل العلم فيتوقَّف المرء فيه، أمَّا الَّذي يقول قال فلانٌ كذا ويستدلُّ به ونترك المُحكمات ونترك الأصول من أجل قولٍ لابن تيميَّة – مثلًا – في المسألة الَّذي أصاب رَحِمَهُ اللهُ في جلِّ أقواله، أو قولٍ للإمام أحمد ونترك به المُحكمات ليس صحيحًا، أو قولٍ للإمام مالكٍ ونترك به المُحكمات ليس صحيحًا، فكيف بمن دونهم من فلانٍ وفلانٍ من النَّاس.

فإذن تنتبَّه لهٰذا التَّأصيل، وهو أنَّ الله جلَّ وعلا لمَّا جعل كتابه فيه مُحكمٌ ومُتشابهٌ وجب علىٰ طالب العلم والرَّاسخ في العلم أن يردَّ المُتشابه إلىٰ المُحكم، اشتبه عليك شيءٌ تأخذ بالأصول العامَّة بالقواعد الَّتي عليها الأدلَّة الكبيرة، وهٰذا خاصَّةً في مسائل التَّوحيد والعقيدة والأصول.

أمَّا مسائل الفقه فهي قابلةٌ للأخذ والخلاف إذا كان الخلاف سائغًا أو له مأخذٌ من الدَّليل.

أمَّا الأخبار والعقائد، فهٰذه الحقُّ فيها واحدٌ لكن ليس ثَمَّ إلَّا سنَّةٌ وبدعةٌ، وليس ثمَّ إلَّا هدًىٰ وضلالٌ.

ما فيه غير ذلك، وجود المُتشابه لا يعني صواب من اتَّبع المُتشابه، الله جلَّ وعلا سمَّىٰ من اتَّبع المتشابه أنَّه زيغٌ، ويقول عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام في الحديث الَّذي بين يديك: «فَإِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ» -لاحظ كلمة «يَتَّبِعُونَ»- «يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ» هم اتَّبعوا دليلًا، «فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّىٰ اللهُ» يعني بأنَّهم أهل زيغ. «فَاحْذَرُوهُمْ» هم لا يأتون بشيءٍ بدون اتِّباعٍ، يتَّبعون عقلًا أو دليلًا؟ يتَّبعون دليلًا؛ لكنَّ هٰذا الدَّليل متشابهٌ وليس مُحكمًا.

كيف تعرف المُتشابه والمُحكم؟

المُتشابه هو: الَّذي خالفته الأدلَّة الكثيرة، خالفته القواعد، لم تأخذ به الجماعة، لم يأخذ به الأئمَّة وإنَّما وجَّهوه وبيَّنوا معناه، مثل: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾[المائدة]، بيَّنته السُّنَّة، ومثل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[الزُّخرف:٤٤]، هٰذا بيَّنته آيةٌ أخرىٰ في ذلك، ومثل: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾[النِّساء:٩٣]، خلودٌ: مكثٌ طويلٌ ليس أبديًّا ليس مساويًا لخلود الكفَّار؛ لأنَّ الأدلَّة الكثيرة المتوافرة «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ**»،(١) «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ مِنَ الدُّنْيَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»،(٢) فكلُّ أهل التَّوحيد يدخلون الجنَّة برحمة الله جلَّ وعلا، هٰذه أدلَّةٌ كثيرةٌ لا نستطيع أن نترك الأدلَّة الكثيرة لأجل دليلٍ واحدٍ يوجِّه، ولكن نصرف المُتشابه، يعني: الَّذي اشتبهت دلالته فيها إشكالٌ إلىٰ الواضحات الكثيرة من الأدلَّة.

كذلك كلام العلماء نصرف بعضه إلىٰ بعضٍ ويتَّضح بعضه من بعضٍ.

نقف عند هٰذا.

... العجلة ليست محمودة إلا في الخير.

...ذكرنا لكم في عدَّة مواضع في شرح «الواسطيَّة» و«الطَّحاويَّة»: أنَّ المُتشابه المُطلق لا وُجود له؛ يعني لا يوجد في القرآن والسُّنَّة آيةٌ أو حديثٌ لا يعلم أحدٌ من الأمَّة توجيهها أو معناها -مُتشابهٌ مطلقٌ- هٰذا لا يوجد، وإنَّما يوجد مُتشابه نسبيٌّ إضافيٌّ اشتبه مثلًا علىٰ ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أو اشتبه علىٰ عمر معناه، لكن يوجد من الصَّحابة من يعلم المعنىٰ.

كلمة (الأب) اشتبهت علىٰ أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وهو الصِّدِّيق لكن علمها غيره.

وكذلك (التَّخوُّف) اشتبه علىٰ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لكن علمها غيره. وهكذا في غيرها.

آيةٌ اشتبهت عليّ لكن يوجد من أهل الزَّمان من يعلم معناها وتوجيهها، قد يكون العالم لا يعرف فتأتي إلىٰ عالمٍ فتحاجُّه بمتشابهٍ، فتسأله عن جوابه فلا يعلم جوابه، هل معنىٰ ذلك أنَّ الَّذي عليه ليس حقًّا؟ ليس كذلك؛ لأنَّ المُتشابه نسبيٌّ، يوجد من أهل العلم من يجيب؛ لكنَّ كونه اشتبه المعنىٰ علىٰ عالمٍ فردَّك إلىٰ المُحكم وقال: هٰذه ما أدري وُجهتها؛ لا يعني أنَّه يتمسَّك بالمُتشابه لكنَّ الرَّاسخ في العلم

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٥٩٨) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٢) رواه أبو داود برقم (٣١١٦) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

يقول: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[آل عمران:٧]، فكلُّ راسخٍ في العلم إذا اشتبه عليه شيءٌ يقول: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، والله جلَّ وعلا ابتلىٰ النَّاس بهٰذا.

فإذًا: المُتشابه المُطلق – علىٰ الصَّحيح – لا وجود له، إنَّما يوجد متشابهٌ نسبيٌّ إضافيٌّ يشتبه علىٰ فلانٍ دون فلانٍ ولا يخلو عصرٌ من قائمٍ لله بحجَّةٍ.

... لا يُوجد التَّشابه المُطلق في عصر، ولا بدَّ أن يوجد في كل زمانٍ من يعلم، وهٰذا ما يدلُّ عليه قوله ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الْحَقِّ**»، «**ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الْحَقِّ**» يعني أنَّهم يعلمون الحقَّ. (طائفةٌ) يصدق أقل شيءٍ علىٰ واحدٍ، لا بدَّ من وجود من يظهر علىٰ الحقِّ وهو الَّذي يسمِّيه الأصوليُّون: (القائم لله بالحجَّة) وهٰذا تعبيرٌ أصوليٌّ، ولا يخلو عصرٌ من قائمٍ لله بحجَّةٍ، ليس في بلدٍ دون بلدٍ ولكن في الأرض في عصرٍ من الأعصار قد تعلمه وقد لا تعلمه، وقد تصل إليه وقد لا تصل إليه.

الدرس العشرون

[٧] وَعَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا» حَدِيثٌ حَسَنٌ رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيُّ وَغَيْرُهُ.(١)

[٨] وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ».(٢)

[٩] وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَضَّرَ اللهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَحَفِظَهَا وَوَعَاهَا وَأَدَّاهَا فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ. ثَلَاثٌ لَا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ للهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مَنْ وَرَاءَهُمْ» رَوَاهُ الشَّافِعِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «الْمَدْخَلِ»(٣) (٤)

وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ وَالدَّارِمِيُّ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) «سنن الدارقطني» حديث رقم: (٤٣٩٦).

(٢) «صحيح البخاري» حديث رقم: (٧٢٨٨)، و«صحيح مسلم» حديث رقم: (١٣٣٧).

(٣) قال الشَّيخ صالح آل الشيخ: «المدخل» هٰذا ليس كتابًا مُستقلًا هو قطعةٌ من كتاب «معرفة السُّنن والآثار» له، وأحاديث الشَّافعيِّ في «معرفة السُّنن والآثار»؛ لأنَّ البيهقي ألَّف ثلاثة كتبٍ في نصرة مذهب الشَّافعيِّ واستدلالاته و«السُّنن الصُّغرىٰ» طبعت، و«السُّنن الوسطىٰ» وهي الَّتي تُسمَّىٰ «معرفة السُّنن والآثار» والثَّالث «السُّنن الكبرىٰ» مشهورٌ كبيرٌ.

«السُّنن الوسطىٰ» هذه «معرفة السُّنن والآثار» لها مقدِّمةٌ طويلةٌ تُسمَّىٰ «المدخل إلىٰ معرفة السُّنن والآثار» أراد من هٰذا الكتاب «معرفة السُّنن والآثار» معرفة الشَّافعيِّ للسُّنن والآثار، سمَّاه «معرفة السُّنن والآثار» يعني معرفة الشَّافعيِّ للسُّنن والآثار، فالأحاديث الَّتي في كتب الشَّافعيِّ في «الأمِّ» أو في «مختصر المُزنيِّ» أو في «البُويطيِّ» أو إلىٰ آخره سواءٌ كانت مسندةً أو كانت غير مسندةٍ والآثار تجد أنَّ البيهقيَّ يصلُها، ويبيِّن أنَّ الشَّافعيَّ يعرف المسانيد ويعرف السُّنن والآثار وأنَّه لا يذكر شيئًا إلَّا وهو مسندٌ موجودٌ. له مقدِّمة هي هٰذا «المدخل» فيها ذكر تأصيلاتٍ كثيرةٍ في العلم وطلب الحديث والسُّنن وأشباه هذه المسائل.

وفيها نقلٌ للطَّحاويِّ بالمناسبة، البيهقيُّ فيها تكلَّم علىٰ الطَّحاويِّ صاحب العقيدة، وقال: أنِّي رأيت كتابه «شرح معاني الآثار» يقول: ووجدته مُتعصِّبًا لطريقته يعني الحنفيَّة؛ يعني ذمَّ كتابه ونكّت علىٰ الطَّحاويِّ لتعصُّبه وعدم استعماله للأدلَّة في موضعها، والبيهقيُّ أيضًا ما خلا من هذه الصِّفة.

والتَّعصُّب أحيانًا يفيد؛ لأنَّ تعصُّب البيهقيِّ للشَّافعيِّ جعله يؤلِّف هذه الكتب، وتعصُّب الطَّحاويِّ لأبي حنيفة جعله يؤلِّف معاني الآثار والمشكل، ليظهر معرفة إمامه بهذه. وتعصُّب الحنابلة أيضًا وتحمُّسهم لإمامهم جعل السُّنَّة تبقىٰ، فالله جلَّ وعلا جعل هٰذا الحماس في القلوب لأجل أن تتحرَّك للحفاظ علىٰ الدِّيانة. والله المستعان.

غالبًا إذا روىٰ الشَّافعيُّ شيئًا يكون البيهقيُّ رواه، رواه الشَّافعيُّ والبيهقيُّ، لذلك تجد كثيرًا من أئمَّة الحديث لا يقرنون ما بين الشَّافعيِّ والبيهقيِّ فلا يقولون: رواه الشَّافعيُّ والبيهقيُّ، يذكرون إمَّا البيهقيَّ أو الشَّافعيَّ؛ لأنَّ أحدهما يدلُّ علىٰ الآخر.

(٤) رواه الشافعي في «مسنده» (١٥١٤)، والبيهقي في «معرفة السنن والآثار» حديث رقم: (٤٤).

وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .(١)

[١٠] وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْعِلْمُ ثَلَاثٌ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ، وَمَا كَانَ سِوَىٰ ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ» رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ. (٢)

هٰذا الحديث (وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ وَمَا كَانَ سِوَىٰ ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ» رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ) إسناده فيه ضعفٌ، لكنَّ معناه صحيحٌ، ويستشهد به الأئمَّة كثيرًا، وذلك لأنَّ العلم النَّافع أقسامٌ ثلاثةٌ – كما جاء في هٰذا الحديث :-

«آيَةٌ مُحْكَمَةٌ» والآيات نأخذ منها التَّوحيد والعقيدة والأخبار الَّتي يجب التَّصديق بها والإيمان بها، ونأخذ منها الأوامر والنَّواهي.

قال: «أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ» وهٰذه استفاد منها أهل العلم: أنَّ السُّنن الَّتي تُنسب إلىٰ العلم، أو تكون معرفتها علمًا والمحافظة عليها علمًا هي السُّنن القائمة، يعني: الَّتي درجت عليها الأمَّة.

أمَّا في الزَّمن الأوَّل، تكون سنَّةٌ يزعمها بعض النَّاس تكون مهجورةً عند الصَّحابة هٰذه لا شكَّ أنَّها ليست بسنَّةٍ، وإن كان جاء فيها بعض الأحاديث الَّتي يُستدلُّ بعمومها.

وأهل البدع دخلوا من هٰذا المدخل، واستدلُّوا بأحاديث بعمومها علىٰ أنَّ بعض الصُّور سنَّةٌ وهي ليست سنَّةً قائمةً بمعنىٰ أنَّها ليست معمولًا بها في زمن الصَّحابة رضوان الله عليهم.

ولذلك نقول: إنَّ من مهمات العلم بالسُّنَّة والحديث أن تعرف ما كان عليه العمل في زمن السَّلف ممَّا لم يكن عليه العمل، لهٰذا التِّرمذيُّ في كتابه «الجامع» ألَّفه لهٰذا الغرض، رأىٰ كتاب البخاريِّ –وهو شيخه– ورأىٰ كتاب مسلمٍ، فرأىٰ أنَّ النَّاس بحاجةٍ إلىٰ معرفة السُّنن الَّتي عليها العمل، لهٰذا تجدُ أنَّه يورد الأحاديث الصَّحيحة والحسنة وربَّما الضَّعيفة ويقول: هٰذا عليه العمل، وهٰذا ليس عليه العمل، وعلىٰ هٰذا العمل عند أهل العلم، وذكر في آخر كتابه – يعني: في العلل – قال: كلُّ ما في كتابي هٰذا من الحديث فمعمولٌ به خلا حديثين:

- حديث ابن عبَّاسٍ أنَّ النَّبيَّ ﷺ جمع الظُّهر والعصر والمغرب والعشاء من غير خوفٍ ولا سفرٍ.
- وحديث أبي هريرة في شارب الخمر فإن عاد في الرَّابعة فاقتلوه.

قال: وما سوىٰ هذين فمعمولٌ به – يعني: عملت به طائفةٌ.

وابن رجبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «شرح العلل»، توسَّع عند هٰذه الكلمة – ممَّا ينبغي لك أن تطالعه – في

---

(١) «سنن أبي داود» حديث رقم: (٣٦٦٠)، و«جامع الترمذي» حديث رقم: (٢٦٥٧)، و«سنن ابن ماجه» حديث رقم: (٢٣٢)، و«مسند أحمد» حديث رقم: (١٣٣٥٠-الرِّسالة). و«سنن الدارمي» حديث رقم: (٢٣٥).

(٢) «سنن أبي داود» حديث رقم: (٢٨٨٥)، ورواه ابن ماجه رقم: (٥٤)، ولم أجد الحديث في سنن الدارمي.

أحاديث كثيرةٍ قال طائفةٌ من أهل الحديث: **إنَّ هٰذا الحديث لم يُعمل به.**

وهٰذا غير المسألة المشهورة: أنَّه إذا صحَّ الحديث فهو مذهب الإمام؛ لكن بشرط أن لا يُخالف العمل، فإذا كان العمل علىٰ شيءٍ فهو السُّنَّة القائمة إذا كان دليلها واضحًا.

والصَّحابة –رضوان الله عليهم– لن يعملوا إلَّا بالسُّنَّة، ولن يرضوا ولا يتَّفقوا إلَّا بشيءٍ دلَّ الدَّليل عليه، ولهٰذا جاء في هٰذا الحديث قال: «آيَةٌ مُحْكَمَةٌ» يعني: ليست متشابهةً، ولكنَّ الآيات ذات المعنىٰ الواضح الَّتي يصار عليها ونرجع المُتشابه عليها.

والثَّاني: السُّنَّة القائمة المعمول بها لا السُّنَّة المهجورة أو الَّتي لم يُعمل بها، ونعني بكلمة (المهجورة) يعني الَّتي ما عمل بها أحدٌ، توهَّم المُتوهِّم أنَّها سنَّةٌ فيقول: دلَّ عليها حديث كذا، مثل: الأذكار يستدلُّ بفضل الصَّلاة علىٰ النَّبيِّ ﷺ في كلِّ حالٍ و«**رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ**» بإضافة الصَّلاة علىٰ النَّبيِّ ﷺ في الأذان إمَّا قبله أو بعد الأذان بالصلاة علىٰ النَّبيِّ ﷺ علىٰ المنارة أو في (الميكرفون)، مثل ما يُفعل في بعض الدُّول، ويقولون: دلَّ الحديث عليه، ولكن نحن نقول: دلَّ الحديث علىٰ الصَّلاة لكنَّ هٰذه المقصود بها السُّنَّة القائمة هل العمل بهٰذا الحديث بهٰذه الصُّورة هل هو سنَّةٌ قائمةٌ أو ليست كذلك؟

أمَّا ورود الحديث نعم فهو سنَّةٌ؛ لكن هل هٰذه الصُّورة تدخل في هٰذا العموم أم لا؟.

وهٰذا ضابطٌ مهمٌّ سواءٌ كان في مسائل البدع أو في مسائل الأحكام الفرعيَّة، وهٰذه يحتاج إليها العلماء في مسائل متعدِّدةٍ.

وممَّا يُدخله بعض أهل العلم في هٰذه الصُّورة في قوله: «أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ»، الحديث المشهور حديث أمِّ سلمة في رجوع الحاجِّ الَّذي رمىٰ جمرة العقبة ولم يطف يوم النَّحر رجوعه مُحرمًا إذا غابت عليه الشَّمس ذلك اليوم، حديث أمِّ سلمة المشهور الَّذي رواه أبو داود بإسنادٍ جيِّدٍ، «أنَّ من لم يطف يوم النَّحر وكان رمىٰ جمرة العقبة؛ فإنَّه يرجع مُحرِمًا»، هٰذا الحديث قال به طائفةٌ من العلماء المعاصرين، وقال به قلَّةٌ من العلماء السَّابقين، لكنَّه من الأحاديث الَّتي قال فيها بعض أئمَّة الدَّعوة وهو الشَّيخ عبد الله بن محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ الحديث صحيحٌ، لكن هِبْنا العمل به لأجل أنَّ الأئمَّة تركوا العمل به، لأنَّه كيف نعمل بشيءٍ بعد هٰذه القرون وهو لم يكن من السُّنن القائمة في عهد السَّلف، ومثل هٰذا حكمٌ عظيمٌ يتعلَّق بعامَّة الأمَّة.

المهمُّ: تنتبه إلىٰ مسألة ما عليه العمل، والتِّرمذيُّ ركَّز عليه في «جامعه»، وممَّا يتميَّز به «جامع التِّرمذيِّ» للفقيه وطالب الدَّليل أنَّه يركِّز علىٰ ما عليه العمل وما ليس عليه العمل.

كذلك انتبَهَ لهٰذا ابنُ المنذر في «إجماعاته»، ابن المنذر نَقَدُوه في «إجماعاته»، وكذلك ابن عبد البِّر وكذلك محمَّد بن نصرٍ، وجماعةٌ ممَّن كتبوا في الإجماع بأنَّهم يذكرون مسائل في الإجماع لكن لم يُجمَع عليها فيه مخالفٌ، وهم نظروا في الإجماع أيضًا إلىٰ ما عليه العمل وهٰذا دليلٌ لهم.

يعني: إذا خالف القول وجاء بعد (١٥٠) سنةٍ قولٌ في نظرٍ في الحديث ونظرٍ في الدَّليل وقال: هٰذا يدلُّ

عليه كذا وكذا، فيدلُّ علىٰ أنَّ الأمر هٰذا مستحبٌّ؛ لكنَّه هٰذا الأمر يدلُّ علىٰ أنَّه ليس مفضَّلًا في القرون المفضَّلة الأولىٰ لا نعلم أحدًا عمل به أو قال به، فكيف يأتي من يستنتجه في القرن الثَّالث أو الثَّاني أو نحو ذلك، لهٰذا ابن المنذر ونحوه ممَّن ألَّفوا في الإجماع لا ينظرون إلىٰ مخالفة من خالف العمل علىٰ أنَّه قادحٌ في الإجماع؛ بل الإجماع ما انعقد عليه العمل، يروون المسائل الَّتي انعقد عليها العمل في عهد الصَّحابة وفي عهد التَّابعين يعدُّون هٰذا إجماعًا ولو وُجد من خالف فيها من الأئمَّة، لذلك لا يقال: ابن المنذر مثلًا: (أجمعوا وخالف سفيان، وسفيان ذهب إلىٰ غير هٰذا)، لأنَّ هٰذا ليس من شرطه. إجماعٌ يعني ولكن ما أجمع عليه العلماء من قبل وكان عليه العمل، فإذا كان قول العالم ليس له مأخذ؛ يعني ليس له حجّة، أو كان له حجَّةٌ لكن خالف العمل السَّابق فإنَّه لا يعدُّه ابن المنذر وطائفةٌ ممَّن ألَّفوا في الإجماع، مُخالفًا للإجماع، هٰذا معنىٰ قوله: «أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ».

الثَّالث: «أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ» وهي علم الفرائض، وهي أوَّل علمٍ يُفقد في الأمَّة، وهٰذا يعني: أنَّ الاهتمام به من فروض الكفايات، أن يبقىٰ في الأمَّة من يعرف القسمة ويعرف الفرائض المقدَّرة في كتاب الله جلَّ وعلا، ويعرف ترتيب أصحاب الفروض في ذلك وما يستحقُّه، كذلك يعرف أهل التَّعصيب وطبقات العَصَبة، كذلك يعرف أحكام بقيَّة أصحاب الفرائض.

فالفريضة العادلة هٰذا من العلم في الفقه فطالب العلم الشَّرعيُّ ينبغي له أن يهتمَّ بالفرائض؛ لأنَّ الفرائض نصف الدِّين – كما يُقال – لأنَّها مُتعلِّقةٌ بما بعد الحياة.

[١١] وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(١). وَفِي رِوَايَةٍ «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ. (٢)

[١٢] وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أُفْتِيَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُهُ عَلَىٰ مَنْ أَفْتَاهُ، وَمَنْ أَشَارَ عَلَىٰ أَخِيهِ بِأَمْرٍ يَعْلَمُ أَنَّ الرُّشْدَ فِي غَيْرِهِ فَقَدْ خَانَهُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ. (٣)

هٰذه كلُّها من الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ يذكُر آداب طالب العلم، وما ينبغي له والأشياء الَّتي يحتاجها طالب العلم.

أعظم ما يكون به الاستدلال وكلام طالب العلم واستشهاده وعظة النَّاس به هو القرآن، ولهٰذا جاء التَّحذير في أن يقول قائلٌ في القرآن برأيه أو بغير علمٍ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» يعني من قال في القرآن برأيه الَّذي حمله عليه الهوىٰ، لأنَّه توعَّده بالنَّار، وأمَّا الاجتهاد المبنيُّ علىٰ دليلٍ فإنَّه لا بأس به، فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجرٌ واحدٌ، إذا كان اجتهاده في التَّفسير مبنيًّا علىٰ دليلٍ.

كذلك: من قال في القرآن بغير علمٍ، فقد أخطأ ولو أصاب، يعني: رجلٌ لا علم له باللُّغة ولا علم عنده بالشَّريعة وبقواعد الشَّريعة وبالسُّنَّة، فيقول بالقرآن برأيه؛ لكن ليس عنده علمٌ، نظر فقال: إنَّ تفسير الآية أظنُّه كذا وهو ليس عنده علمٌ بذلك، فهٰذا ولو أصاب في الحقيقة فقد أخطأ لأنَّ القرآن لا يجوز أن يتكلَّم الإنسان فيه ويفسِّره بغير علمٍ بالقرآن؛ بحفظ القرآن ومعرفة الآيات الَّتي في الموضوع، كذلك بغير علمٍ بالسُّنَّة الَّتي جاءت في تفسير القرآن، بغير علمٍ بمنهج السَّلف في التَّفسير، كيف كانوا يُفسِّرون، وأقوال العلماء في ذلك، ونحو هٰذه الضَّوابط.

---

(١) «جامع الترمذي» حديث رقم: (٢٩٥٠)، ورواه النسائي في «الكبرىٰ» حديث رقم: (٨٠٨٥)، وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال البغوي (١/ ٢٥٨): حسن.

(٢) «جامع الترمذي» حديث رقم: (٢٩٥٠)، ورواه النسائي في «الكبرىٰ» حديث رقم: (٨٠٨٤)، قال الترمذي والبغوي(١/ ٢٥٧): حسن.

(٣) «سنن أبي داود» حديث رقم: (٣٦٥٧).

الدرس الحادي والعشرون

[١٣] وَعَنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: نَهَىٰ عَنِ الْأُغْلُوطَاتِ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا. (١)

[١٤] وَعَنْ كَثِيرِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ أَبِي الدَّرْدَاءِ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ فَجَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ إِنِّي جِئْتُكَ مِنْ مَدِينَةِ الرَّسُولِ ﷺ لِحَدِيثٍ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا جِئْتُكَ لِحَاجَةٍ، قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًىٰ لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَىٰ الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَىٰ سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالدَّارِمِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ. (٢)

أمَّا الحديث الأوَّل – وهو نهي النَّبيِّ ﷺ عن الأغلوطات – فهٰذا من آداب العالم والمتعلِّم.

والأغلوطات فُسِّرت بعدَّة تفاسير منها:

أنَّ الأغلوطة: المسائل الَّتي يُراد منها غلط من سُئل عنها، إمَّا غلط المفتي أو المعلِّم، أو غلط المتعلِّم، يعني المسائل المشكلة المعقَّدة الَّتي ما كلُّ أحدٍ يفهم وجهها، إنَّما يُراد منها إظهار غلط المعلِّم أو غلط المتعلِّم، يعني لما فيها من التَّباهي ولما فيها من تعقيد العلم، والمأمور به تيسير أخذ العلم.

والتَّفسير الثَّاني: أنَّ الأغلوطات هي المسائل الَّتي لم تقع، لأنَّه يؤُول الكلام فيها إلىٰ الغلط لأنَّها إذا وقعت اتَّضحت.

التَّفسير الثَّالث: الأغلوطات المسائل المُشكِلة عمومًا الَّتي يستشكلها المتلقِّي.

وهٰذا النَّهي أدبٌ عامٌّ للمعلِّم والمتعلِّم، فالواجب علىٰ المعلِّم أن يبذل نصيحته للطُّلاب والمتعلِّمين، يعني ييسِّر عليهم مسائل العلم وأن يربِّيهم بصغار العلم قبل كباره، وليس كلُّ ما عند المعلِّم يعطيه المتعلِّم، ليس كلُّ ما عند الأستاذ أو الشَّيخ يعطيه ويلقيه؛ لأنَّ المجال ليس مجال استعراض معلوماتٍ ولا إعطاء كلِّ ما عندك، الطَّالب يريد ما ينفعه، أمَّا إذا أعطيته شيئًا لا ينفعه فلم تربِّه في الحقيقة.

والله جلَّ وعلا أثنىٰ علىٰ طائفةٍ من عباده بقوله: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾[آل عمران]، وجاء في تفسيرها –في أحد أوجه التَّفسير– أنَّ الرَّبَّانيَّ في العلم: هو الَّذي يعلِّم النَّاس صغار العلم قبل كباره، ولا يعطيهم أغلوطات المسائل الَّتي تجعلهم يصدُّون عن العلم ويبعدون عنه.

وهٰذا الَّذي نهجه أئمَّة الإسلام وأهل الصَّلاح في العلم أنَّهم لا يعطون شيئًا صعبًا وإنَّما يدرجون العلم

---

(١) «سنن أبي داود» حديث رقم: (٣٦٥٦).

(٢)«سنن أبي داود» حديث رقم: (٢٦٤١)، و«سنن ابن ماجه» حديث رقم: (٢٢٣)، و«مسند أحمد» حديث رقم: (٢١٧١٥-الرِّسالة)، و«سنن الدارمي» حديث رقم: (٣٤٩).

شيئًا فشيئًا وفوائد ميسورةٌ بأحسن عبارةٍ حتَّىٰ يتلقَّفها المتعلِّم ويستفيدُ منها.

أمَّا **الحديثُ الثَّاني**: فهو حديثٌ عظيمٌ، وأبو الدَّرداء جاء في وصفِه في حديثٍ مرويٍّ، رُوي مُرسلًا ورُوي متَّصلًا قال: «**أَبُو الدَّرْدَاءِ حَكِيمُ هٰذِهِ الْمِلَّةِ**»، وذلك لما جعل الله معه من الفطنة والحكمة في التَّربية وفي العلم، وكان يُقرئ النَّاس القرآن في الشَّام، وله في التَّربية أحوالٌ كثيرةٌ، وفي أقواله حِكمٌ كبيرةٌ.

هٰذا الرَّجل الَّذي جاء من المدينة إلىٰ الشَّام ليسعىٰ في طلب حديثٍ واحدٍ (جِئْتُكَ مِنْ مَدِينَةِ الرَّسُولِ ﷺ) ولم تأت بي حاجةٌ وإنَّما (حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ)، وهٰذه همَّةٌ عظيمةٌ بأنَّ المرء يرحل من المدينة في ذاك الوقت مع ضعف الرَّواحل فيمشي لمدَّة شهرين علىٰ الرَّاحلة لأجل حديثٍ سمع أنَّ أبا الدَّرداء يُحدِّث به، لا شكَّ أنَّ هٰذه الهمَّة همَّة دينٍ وليست همَّة التَّزيُّد أو همَّة رغبةٍ في لفت وجوه النَّاس إليه أو رغبةً في الثَّناء؛ إنَّما همَّة دينٍ وخوفٍ من الله جلَّ وعلا ورغبةٍ فيما قاله عليه الصَّلاة والسَّلام، فهٰذا يدلُّك علىٰ أنَّ العلم إنَّما يكون بعلوِّ الهمَّة، فكيف إذا كان العلم ميسورًا عندك وقريبًا منك، ومع ذلك لا تسعىٰ إليه، ولذلك أكثر النَّاس رعاعٌ أتباع كلِّ ناعقٍ لا يهتمُّون بالعلم ولا يرفعون له وبه رأسًا، وهؤلاء مذمومون، بخلاف الَّذين يسعون إلىٰ العلم ويتعبون فيه فإنَّهم حقيقون بما روىٰ أبو الدَّرداء رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ من أنَّ: « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًىٰ لِطَالِبِ الْعِلْمِ ...». يعني «رضًىٰ بما يصنع» كما في الحديث الآخر، والعالم يستغفر له كلُّ شيءٍ، وهٰذا من سعىٰ فيه فقد سعىٰ في العلم، فكيف بمن يسعىٰ كلَّ يومٍ، فكيف بمن يرحل فيه.... إلخ، فهٰذا يعطيك مناسبة ذكر الإمام رحمه الله لهٰذا الحديث في آخر هٰذا الكتاب وأحاديث العلم.

لأنَّ أصول الإيمان والعقيدة الَّتي عقدها الكتاب لها تحتاج منك إلىٰ تعبٍ تحتاج منك إلىٰ ممارسةٍ، وتحتاج منك إلىٰ همَّةٍ عاليةٍ، ولا تحقر نفسك، تقول: هٰذا صعبٌ، والعلماء كثيرٌ، وقد يأتي يومٌ والحاجة تكون لك، والنَّاس ينظرون إليك الحاجة في تبليغ دين الله...

وكان ابن عبَّاسٍ يحرص علىٰ أن يجلس في مجالس الصَّحابة يأخذ العلم، فيقول له الأنصاريُّ: أتظنُّ النَّاس بحاجةٍ إليك؛ وهؤلاء صحابة رسول الله ﷺ متوافرون، فترك ذاك صحبة ابن عبَّاسٍ في العلم، وابن عبَّاسٍ استمرَّ، فما هي إلَّا سنواتٌ قليلةٌ، عشرين، ثلاثين سنةً حتَّىٰ احتاج النَّاس إلىٰ ابن عبَّاسٍ أعظم من حاجتهم حتَّىٰ إلىٰ بعض كبار الصَّحابة، لكثرة ما تلقَّف من العلم، فالعلم لا تسِئْ به ظنًّا، العلم ما تدري من يحتاج إليه، تذهب إلىٰ بلدٍ كلُّها جهلٌ، بلدٌ لا تعرف العلم، والله جلَّ وعلا يقدِّر ما يشاء، وقدَر الله يجري في عباده، فإذا لم يكن مع المرء علمٌ راسخٌ أخذه في وقت السَّعة، وأكَّد علىٰ نفسه؛ فإنَّه لن ينفع النَّاس، قد يأثم في بعض الحالات؛ إذا كانت كلُّ الأسباب متيسِّرةً له، عنده فهمٌ ورغبةٌ واستعدادٌ، ولكن يؤثر الدُّنيا علىٰ العلم وتبليغ دين الله جلَّ وعلا؛ فلا شكَّ أنَّه قد يأثم في بعض الحالات إذا تعيَّن عليه، لهٰذا هٰذه الأمَّة ليس ثَمَّ نبيٌّ بعد محمَّدٍ ﷺ، أمَّا بنو إسرائيل فكان النَّبيُّ يأتي بعده نبيٌّ، وكان فيهم علماء، أمَّا هٰذه الأمَّة وُرَّاث النَّبيِّ ﷺ فيها هم العلماء، فَـ«إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ».

بهٰذا استحضر الفضل، واستغفار الملائكة، ورضا الملائكة، ووضعها لأجنحتها، واستحضر: «مَنْ

سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ»، واستحضر «الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ»، واستحضر وقت الحاجة، الأمَّة الآن، كم فيها – الآن ملايين– كم طلَّاب العلم؟ طلَّاب العلم بحقٍّ قلَّةٌ نوادر، هل هؤلاء سيكفون الأمَّة؟ لا يكفون، لو ندرِّس ملايين، وتخرج ملايين علماء أيضًا ما يْكفون الأمَّة، لأنَّ الأمَّة – الآن – ملايين، كيف يكفيهم هؤلاء في بلدٍ، وهؤلاء في بلدٍ، والبلدان الآن مدنٌ وقرًى تُعدُّ بمئات الآلاف في الأرض، فمع توسُّع النَّاس؛ طلَّاب العلم يقلُّون.

لا تنظر إلىٰ الرِّياض مثلًا، وتنظر إلىٰ حلق بعض المشايخ، وتقول: كثيرين، أو تنظر إلىٰ طلَّاب الجامعات، وفي الواقع العلم – الآن – أندر من النَّادر، صحيحٌ أنَّ القرَّاء كثيرٌ؛ لكنَّ طالب العلم الرَّاسخ الَّذي أخذ العلم بأصوله وبلَّغ دين الله جلَّ وعلا، أو يصلُح أن يبلِّغ دين الله جلَّ وعلا، ويعلِّم النَّاس بمعاني الكتاب والسُّنَّة هؤلاء قلَّةٌ، لهٰذا التَّعب وعلوُّ الهمَّة هي الطَّريق مع سؤال الله جلَّ وعلا التَّوفيق والإعانة، ولا تحقرنَّ نفسك. ولا تحقرنَّ من المعروف شيئًا، أيُّ علمٍ تأخذه، لكن المهمُّ خذه بوضوح لا تأخذ العلم مشوَّشًا، لست ملومًا أن لا تعلَم كلُّ واحدٍ يعلم شيئًا ولا يعلم شيئًا، أكبر عالمٍ يعلم شيئًا ولا يعلم شيئًا، ومن دونه يعلم شيئًا ولا يعلم شيئًا، المهمُّ تكون ما علمته أخذته بيقينٍ، بعض الطُّلَّاب عندهم معلوماتٌ كثيرةٌ لكن مشوَّشةٌ هٰذا إذا تكلَّم فيه صار مشوَّشًا ما يعرف الضَّوابط، أيش هٰذا؛ واجبٌ مستحبٌّ، دليله وجه استدلاله التَّعريف حدُّ الشَّيء ما عنده الضَّوابط، تجد أنَّه مشوَّشٌ يُدخل هٰذه في هٰذه وهٰذا قد يؤول الأمر إلىٰ أنَّه يحكم بالأحكام مخالفةً لما أجمع عليه أهل العلم أو مخالفةً لما دلَّ عليه الدَّليل.

ولهٰذا الَّذي ينبغي ويتأكَّد عليك أن يكون العلم أهمَّ شيءٍ، العلم واسعٌ، فخذ منه ما ينفع، خاصَّةً التَّوحيد والعقيدة؛ لأنَّ فيها صلاح الباطن وصلاح العمل، ثمَّ معرفة السُّنَّة في العبادات، وما يحتاج النَّاس إليه تعلِّمهم السُّنَّة فيما يحتاجون إليه في أمر عباداتهم ومعاملاتهم، هٰذا –في البداية– يكفي، ومع الزَّمن يتوسَّع شيئًا فشيئًا حتَّىٰ تأخذ من العلم ما كتب الله جلَّ وعلا لك.

أسأل الله لي ولك التَّوفيق، وأن لا يحرمنا ثواب العلم ولا فضل أهله. آمين، والله المستعان.

سؤال: كيف يأخذ طالب العلم تصوير المسائل؟

الجواب: يأخذها بالتَّلقِّي، تصوير المسائل؛ أهمُّ العلم، أهمُّ من الحكم والدَّليل ووجه الاستدلال والتَّفصيل والخلاف، أهمُّ منه ما بُني عليه ذلك كلُّه وهو (صورة المسألة)، صورة المسألة في العقيدة ما هي؟ صورة المسألة في الفقه ما هي؟، معنىٰ الحديث؟ معنىٰ الآية، وبعضهم يستدلُّ بشيءٍ ليس في الآية، التَّصوير مهمٌّ، إذا عرفتَ صورة المسألة أوَّلًا؛ فما بعده يتنزَّل علىٰ الصُّورة، يأتيك التَّعريف فينزل علىٰ الصُّورة، والدَّليل علىٰ الصُّورة، وجه الاستدلال علىٰ الصُّورة، الحكم علىٰ الصُّورة وهكذا.

يقول: هٰذا حرامٌ والصُّورة غير واضحةٍ، سدل الشَّعر مكروهٌ، ما معنىٰ سدل الشَّعر صورته غير واضحةٍ، اشتمال الصَّمَّاء والله منهيٌّ عنه، طيِّب إيش معنىٰ اشتمال الصَّمَّاء؟ تقول مثلًا الإقعاء مكروهٌ أو منهيٌّ عنه، ما هو الإقعاء المُحرَّم أو المنهيُّ عنه، أوش الإقعاء المسنون، يأتيك مثلًا صورةٌ الاستحاضة

ما هي صورة الاستحاضة؟ ما هي صورة دم الفساد، الإسباغ واجبٌ أو سنَّةٌ؟ الإسباغ واجبٌ ووش معنىٰ الإسباغ؟ يعني هناك صور المسائل .

في العقيدة مثلًا يأتيك صورة العلوّ علوُّ الله جلَّ وعلا إيش معناه؟ ما معنىٰ علوِّ الذَّات، علوِّ الصِّفات، الاستواء علىٰ العرش والفرق بينه وبين العلوِّ هٰذه الصُّور الَّتي تحدِّد المعاني.

بعد ذلك إذا جاءك الدَّليل يأتي الدَّليل علىٰ صورةٍ صحيحةٍ مثل الَّذي بنىٰ بينيانٍ خطُّه خطٌّ صحيحٌ وبدأ يركِّب يكون صح، البناء يقوم صحيحًا.

أمَّا إذا صار الصُّور مشوَّهةٌ، وأيضًا الأدلَّة مشوَّشةٌ؛ يعني الاستدلال ما هو بواضحٍ يستدلُّ بشيءٍ في غير مكانه فهٰذا ينبني العلم عنده مشوَّشًا، ولا يهدم العلم والدِّين إلَّا نصف فقيهٍ مثل ما قال ابن تيميَّة، يقول: إنَّما يهدم اللُّغة نصف نحويٍّ، ويهدم الفقه والدِّين نصف فقيهٍ. يعرف شيئًا ولا يعرف شيئًا، مُشوَّشٌ ما فيه وضوحٌ.

وفَّق الله الجميع لما فيه رضاه.

... يأخذها تلقِّي أو يقرأها فإذا صارت غير واضحةٍ يتثبَّت منها؛ لأنَّ العالم أو المعلِّم أو الشَّيخ يعطيك أشياء؛ لكن ما يعطيك كلَّ العلم كلُّ واحدٍ يأخذ بقدرٍ، كم من طالبٍ هو أعظم من شيخه، كم من طالبٍ توسَّع أكثر، لكنَّ المعلِّم يضبط الذِّهن، تصوُّر العلم علىٰ هٰذا النَّحو، مثل الَّذي يعلم الخطَّ علمه كيف يشبك بين الحروف هٰذا شكل الحرف يطلع الطَّالب خطُّه أحسن من الَّذي علَّمه، الحمد لله؛ لأنَّها سلسلةٌ لابدَّ أن تمشي؛ لكنَّ المسألة أن يكون تصوُّر العلم واضحًا، لهٰذا أهمُّ من كثرة المعلومات أن يُصاغ ذهن الطَّالب، ما هو مهمٌّ أعطيك كَمًّا: بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم وأعطيك معلوماتٍ، هٰذا ممكن نأخذ كتاب «فتاوىٰ ابن تيميَّة» نحفظ ونسرد، ما هي مهمَّة المعلِّم، المعلِّم مهمَّته: أن يُصِيغ ذهن الطَّالب في العلم، كيف يصُوغ ذهن الطَّالب؟

يصوغه:

أوَّلًا: في الأناة في العلم، وهٰذه من أهمِّ ما توصون به من بعدكم الأناة في العلم؛ لأنَّه من لم يكن متأنِّيًا بالعلم تشتَّت عنده الصُّور، ويكثر الغلط؛ لأن كل عالم لابد أن يخطئ؛ لكنَّ التَّأني والرِّفق معه حسن التَّصوُّر، ومعه حسن الاستدلال، ومعه حسن الأداء.

الثَّاني: الاهتمام بالتَّحرِّي؛ التَّحرِّي في اللَّفظ، التَّحرِّي في المعنىٰ، تنقل لمن تعلِّم التَّحرِّي في الألفاظ، كيف يؤدِّي العلم، كيف يعبِّر عنه لأنَّ هٰذا العلم هو تبليغ رسالة محمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام، لابدَّ أن تبلِّغ بلغة العلم بلغة الدِّين، ليس بأيِّ لغةٍ، ليس ميدان ثقافةٍ، ولا ميدان مواعظٍ، هٰذا علمٌ العلم غير الموعظة الأمر واسعٌ، لكنَّ العلم يجب أن يؤدَّىٰ بطريقة أهله، فإذا عُلم اللُّغة؛ كيف يبلِّغ العلم هٰذه ستجعل الطَّالب يفهم كيف يتعامل مع كتب العلماء، كتب العلماء صِيغت بعلمٍ، كيف أنت تفهم الدِّين؟ إلَّا بالرُّجوع إلىٰ كتب العلماء، إذا كان هو ما تعوَّد علىٰ سماع لغة أهل العلم اللُّغة العالية، ولا الحذر في هٰذا اللَّفظ أوش يدخل وأوش يخرج؟ ما عنده هٰذا الإحساس والحساسيَّة.

أيضًا في تعامله مع كتب العلماء لازم يصير عنده حساسيَّةٌ يأخذها ويمشي، لا العالم كلمته لها دِلالةٌ والكلمة الثَّانية لها دلالةٌ وهكذا، **هٰذا الأمر الثَّاني**.

الأمر الثَّالث: أن يعلم الطَّالب كيف يتعامل مع شيخه، كيف يتعامل مع المجتمع، كيف يتعامل الكتاب، هٰذه لا يمكن أن يقرأها لا في كتابٍ، هٰذا هدي أو طريقةٍ لابدَّ أن ينقلها العلماء من وقت السَّلف إلىٰ زماننا، هٰذا تُنقل هكذا بالتَّلقِّي، نعم موجودٌ كتبٌ في الآداب؛ لكنَّها تنقل بالسِّمت والتَّلقِّي، حتَّىٰ تبقىٰ سمة أهل العلم وسمة الرَّصانة والسُّنَّة والتُّؤدة والحِكمة إلىٰ آخره.

فالتَّعامل مع الكتاب، التَّعامل مع الشَّيخ، التَّعامل مع المسائل، هٰذا مهمٌّ.

الرَّابع: أن يُعطي المعلِّم للطَّالب أنَّ العِلم ليس كلُّ علمٍ يُجاب عنه، ولا يفتح المجال أمامه، يعني من الغلط أن يكون الطَّالب مُتجرِّئًا علىٰ المعلِّم، إذا وُجدت الهيبة استفاد أكثر، تنظر مع من تخالطه في البيت القريب، إذا كثرت المخالطة كلامك ما له ذاك الوزن، وكذلك درَج العلماء أنَّهم ما يخالطون الخلطة المعتادة عند النَّاس، رايح جاي مع فلانٍ ومع علَّانٍ هٰذه تسقط قوَّة الاستفادة، طبعًا ليس عدم نفع النَّاس أو العزلة أو التَّكبُّر هٰذه كلُّها معاني مذمومةٌ؛ لكن كلَّما كان المعلِّم أهيب في قلوب من يأخذ عنه كلَّما كان انتفاعهم أكثر، إذا صاروا دارجين عليه ما هم مهتمِّين، إذا صار دائمًا معهم كلامه ما عاد يُسمع، هٰذا من جهة التَّعليم.

أمَّا من جهة الدَّعوة والإصلاح والتَّربية ذاك له بابٌ آخر.

فإذن المعلِّم ينقل العلم وينقل معه أشياء.

أمَّا القراءة في الكتب، هٰذا الطَّالب إذا صار استقام، العجينة إذا كانت تكوَّنت صح، والبنيان إذا تكوَّن عنده صح يتوسَّع في القراءة، الطَّالب يكون أكثر من شيخه حفظًا، هٰذا ما هو غريب، الحمد لله، فيكون أكثر بحثٍ، يجيء المعلِّم يُجيب بجوابٍ مختصرٍ يكون الطَّالب عنده جواب صفحاتٍ من حفظه ومطالعاته. هٰذه نعمة.

لكنَّ المُهمَّ أن يكون تعامل مع العلم علىٰ طريقةٍ صحيحةٍ، إذا صار المعلِّم نقل للمتعلِّم هٰذا الأصل أن يتعامل مع العلم تصوُّرًا واستدلالًا وأدبًا بطريقةٍ صحيحةٍ هٰذا كفايةٌ، المعلومات تزيد تنقص والفوائد بحسب ما يقدر الكلُّ بعضهم يعطي فوائد قليلةً وبعضهم يعطي فوائد أكثر بحسب كلِّ واحدٍ ما قدُّر له، مو الغرض من التَّعليم كثرة المعلومات والفوائد، لا، الغرض أن يكون البنيان صحيحًا، مثل الَّذي يعلِّم الخطَّ إذا صارت قاعدته في التَّعليم صحيحةً هو يتمرن ويطلع بعد ذلك جيِّدًا.

من العلم ما لم تسمعه من شيخٍ أو من معلِّمٍ إنَّما قرأته، إذا أشكل شيءٌ تقف فيه، وتسأل عنه، لا تتصوَّر شيئًا مشكلًا، شيئًا ما تدري أوش وجه، تقول هٰذه فائدةٌ، وتعرف أنَّها مخالفةٌ للَّذي أخذته، مخالفةٌ لأصول العلم، مخالفةٌ للمعلومات المُجمع عليها المتَّفق عليها، تأتي تحفظها تشوِّش معلوماتك تسأل ما وجه هٰذه؟

مرَّةً ابن حجرٍ في موضعٍ قال: قد كان في نفسي من هٰذه المسألة إشكالٌ ثلاثين سنةً. ثلاثين سنةً وهي

مشكلةٌ عليه، ما فيه شيءٌ أنَّها تبقىٰ مشكلةً، يبقىٰ علىٰ الإنسان شيءٌ مشكلٌ ما يعرف وجهه، المهمُّ التَّمسُّك بالأصول، بالقواعد، ما أنت مخاطبٌ تخوض كلَّ لجَّةٍ وتخرج منها، مو كلُّ أحدٍ يخوض كلَّ لجَّةٍ ويخرج منها، الأئمَّة الكبار من لهم قدمٌ راسخةٌ في الإسلام مو كلُّ أحدٍ دخل لجَّة العلم يخرج سالمًا، قد تخوض في لجَّةٍ وتخرج غير سالمٍ.

فإذن إذا صار فيه مشكلٌ تسأل ما وُجهَته تأخذه برفقٍ شيئًا فشيئًا حتَّىٰ تكتمل المعلومات بدقَّةٍ. والله المستعان.

... لغة العلم تأخذها عن طريق المعلِّم وعن طريق الكتب، المعلِّم والكتب ما فيه غيرهما تأخذها بحسب الاستعداد.

نكتفي بهٰذا.

... لا بأس إذا كان فيه همَّةٌ قويَّةٌ إذا كان فيه همَّةٌ قويَّةٌ أطلب أكثر من فنٍّ، إذا صار الواحد يعرف نفسه يركِّز علىٰ الأهمِّ وهو التَّوحيد والفقه، التَّوحيد بدلائله والفقه بدلائله، هٰذا أهمُّ علم التَّوحيد والحلال والحرام، العبادات والمعاملات، هٰذا هو النَّجاة.

... المتون هي الَّتي تدرِّجك من الأصغر للأكبر، من الأسهل للأوسع، لأنَّ السُّهولة قد تكون من جهة الاختصار، يسهُل لك أن تكمِّل العلم وتتلقَّاه، وتكون السُّهولة من جهة أنَّ المسائل ما فيها إشكالٌ، المسائل تصوُّرها سهلٌ وقريبٌ.

المتون في العقيدة تنتقَّل من المتن الأقلِّ إلىٰ الأكثر هٰذا تنقَّلت من السَّهل إلىٰ الأقوىٰ منه قليلًا.

... هو إذا جاءتك مسألةٌ وما دقَّقت فيها في متنٍ في مختصرٍ قد تفوت وما ترجع لها مرَّةً ثانيةً، صحيحٌ؟ يجيء وقت الحاجة تقول: يا ليتني دقَّقت فيها في «شرح الواسطيَّة»، ما دمت أنا ماشي أدقِّق فيها، والتَّوسُّع يكون بعد ذلك .

الدَّرس الثَّاني والعشرون

[١٥] وَمَرْفُوعًا: «الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: غَرِيبٌ، وَابْنُ مَاجَهْ.(١)

ذكر الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ الحديث الأوَّل وهو قوله عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام: «الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَأَنَّىٰ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا» والحديث حسنٌ، وقوله: (رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: غَرِيبٌ)، من فهم العلماء: أنَّ غالب ما قال التِّرمذيُّ (غَرِيبٌ)؛ يعني به: أنَّه ضعيفٌ. لأنَّ الغرابة عنده تعني الضَّعف، وليست هي الغرابة عند المتأخِّرين – يعني عند أهل الاصطلاح – الَّتي هي وصفٌ للسَّند، وقد يكون الرِّجال ثقاتٍ، كحديث عمر بن الخطَّاب المعروف: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»،(٢) فإنَّه غريبٌ، يعني: أنَّه لم يأت إلَّا عن راوٍ واحدٍ في الطَّبقة الأولىٰ والثَّانية والثَّالثة إلىٰ آخره، فقد يكون الحديث في «الصَّحيحين» وهو غريبٌ.

لكنَّ مصطلح التِّرمذيِّ أنَّه إذا قال: (غريب)، فإنَّه يعني به: أنَّه ضعيفٌ في الغالب، أو الجل الأكثر ممَّا أورده؛ لكنَّ هٰذا الحديث له طرقٌ، فهو بها حسنٌ.

«الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَأَنَّىٰ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا» معنىٰ ذلك: أن «الْحِكْمَةُ» الَّتي هي الكلمة الصَّواب، أو الرَّأي الصَّواب فهي ضالَّة المؤمن، لأنَّ المؤمن يسعىٰ للحقِّ ويتحرَّىٰ الصَّواب، والصَّواب والحقُّ في الحكمة من الأقوال والأفعال، ولهٰذا أثنىٰ الله جلَّ وعلا: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة:٢٦٩]، فقال جلَّ وعلا: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[النِّساء:١١٣]، والحكمة: السُّنَّة من الأقوال والأفعال، وهي الأقوال الصَّائبة للحقِّ، والأفعال الصَّائبة للحقِّ.

فإذن المؤمن من صفاته – وطالب العلم بالخصوص، لأنَّ هٰذه جاءت في ذكر صفات طالب العلم– أنَّه يتحرَّىٰ الحكمة في الأقوال والأعمال، لا يتصرَّف بمحض رأيه؛ بل ينظر في الحكمة، والحكمة أعلاها: ما وُجِد في سنَّة النَّبيِّ ﷺ، وفي هدي الصَّحابة –رضوان الله عليهم– في أفعالهم وكلامهم، وكذلك في هدي وأفعال وكلام أئمَّة الإسلام، هٰذه هي الحكمة، لأنَّ الحكمة مكتسبةٌ، تكتسبها ممَّا عقَلتَ من الكلام والأفعال.

لهٰذا الحكمةُ عُرِّفَتْ بتعريفاتٍ:

منها: **أنَّ الحكمة وَضْعُ الشَّيء في موضعه اللَّائق به.**

ومنها: **أن الحكمة وضع الأمور في مواضعها اللَّائقة بها الموافقة للغايات المحمودة منها.**

وهٰذا التَّعريف الثَّاني هو الأولىٰ والأظهر، للتَّفريق ما بين الحكمة والعدل، لأنَّ العدل هو: وضع الشَّيء في موضعه، يقابل الظُّلم الَّذي هو: وضع الشَّيء في غير موضعه.

والحكمة: عدلٌ وزيادةٌ، لأنَّ كلَّ حكيمٍ عادلٌ، وكلُّ حكمةٍ عدلٌ في التَّصرُّف، وضع الشَّيء في

---

(١) «جامع الترمذي» حديث رقم: (٢٦٨٧)، و«سنن ابن ماجه» حديث رقم: (٤١٦٩).

(٢) رواه البخاري برقم: (١)، ومسلم برقم: (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

موضعه، لكن تختلف الحكمة عن العدل بأنَّ الحكمة يُنظر فيها في الأقوال والأفعال إلىٰ الغاية المحمودة منها، فقد يضع المرءُ الشَّيءَ في موضعه ويكون عادلًا، لكن لا يكون حكيمًا في موافقة الأمر للغاية المحمودة، في أن يكون فعله وقوله في المصلحة في ازدياد المصالح وتقليل المفاسد.

الحكمة لها أوجهٌ، ولها أسبابٌ، ربَّما ما يكون مناسبًا بيان ذلك الآن، وقد ذكر ذلك ابن القيِّم في موضعٍ في «مدارج السَّالكين».[1]

(١) (٢/ ٤٤٧).

[١٦] وعَنْ عَلِيٍّ قَالَ: إِنَّ الْفَقِيهَ حَقَّ الْفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ فِي مَعَاصِي اللهِ وَلَمْ يُؤَمِّنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ وَلَمْ يَدَعِ الْقُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ، إِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَا عِلْمَ فِيهَا وَلَا عِلْمٍ لَا فَهْمَ فِيهِ وَلَا قِرَاءَةٍ لَا تَدَبُّرَ فِيهَا.[(١)]

الفقيه في الكتاب والسُّنَّة يُعنىٰ به: من أدرك معاني القرآن والسُّنَّة، فأعلم النَّاس هو الأفقه فيهم، ولهٰذا قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ»[(٢)]، ويُعنىٰ: بـ(الأقرأ) هنا: الأفقه، لأنَّه كان عُرف السَّلف.

ومنه قول الله جلَّ وعلا: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ ﴾[التَّوبة:١٢٢]، فإذن الفقه في الدِّين: هو العلم بحدود ما أنزل الله علىٰ رسوله ﷺ، وهو الفهم، ولا خير في عبادةٍ لا فقه فيها، ولا خير في قراءةٍ لا فقه فيها، يعني: لا يفهم معنىٰ الآية ولا الحديث، ولا يفهم معاني الأحكام، من لا يُدرِك، هٰذا لا خير فيما يعمله، ويعني: أنَّ خيره قليلٌ.

الحديث قال: (إِنَّ الْفَقِيهَ حَقَّ الْفَقِيهِ)، يعني: الفقيه المتحقِّق بالفقه، الموصوف بالعلم بما أنزل الله جلَّ وعلا في كتابه وعلىٰ سنَّة نبيِّه عليه الصَّلاة والسَّلام؛ هو من اتَّصف بهٰذه الصِّفات أنَّه: (لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ فِي مَعَاصِي اللهِ وَلَمْ يُؤَمِّنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ). وهٰذه لا شكَّ أنَّها صفةٌ لأهل العلم.

أمَّا من قصُر علمُه؛ فتجده في الوعظ والإرشاد، أو تجده في درسه إلىٰ آخره، تجد أنَّه يغلب عليه جانبٌ من هٰذه الجوانب، إمَّا أنَّه يغلِّب عليه جانب الرَّجاء في النَّاس حتَّىٰ يُجرِّئهم علىٰ المعاصي، يفتح لهم باب الرَّجاء حتَّىٰ يجرِّئهم علىٰ المعاصي، أو أنَّه يشدِّد عليهم، أو أنَّه يصف لهم العقوبة والعذاب وصفة النَّار؛ حتَّىٰ يقنِّطهم من رحمة الله جلَّ وعلا، ويظنُّون أنَّهم قد هلكوا.

والفقيه حقَّ الفقيه هو من يعامل النَّاس بطريقة الكتاب والسُّنَّة، وهو أنَّه يعطيهم الرَّجاء، ولكن أيضًا يخوِّفهم من العذاب، فلا يؤمِّن ولا يقنِّط، لأنَّه لا يقنط من رحمة ربِّه إلَّا الضَّالون، وكذلك الأمن من مكر الله محرَّمٌ.

وهٰذا هو الَّذي ينبغي عليك أن تعتني به، سواءٌ في العلم، أو إذا كتب الله جلَّ وعلا لك إرشاد طائفةٍ، أو درسًا أو محاضرةً، أو إرشاد جهَّالٍ في أيِّ مكانٍ في أن يكون عندك غرسٌ في قلوب النَّاس: الفرح بالطَّاعات والخوف من المعصية، فتْح باب الرَّجاء وعدم التَّقنيط من الذُّنوب، فتفتح لهم باب التَّوبة وباب الرَّجاء في قبول الطَّاعات، وأيضًا تخوِّفهم من أثر المعصية والذَّنب، وهٰذا يوافق طريقة أهل السُّنَّة والجماعة، ووسطيَّة ما قالوا به في باب الخوف والرَّجاء.

---

(١) رواه الدارمي في «سننه» حديث رقم: (٣٠٤).

(٢) رواه مسلم برقم (٦٧٣) من حديث أبي مسعود رضي الله عنه.

[١٧] وَعَنِ الْحَسَنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ جَاءَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ لِيُحْيِيَ بِهِ الْإِسْلَامَ فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّينَ دَرَجَةٌ وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ». رَوَاهُمَا الدَّارِمِيُّ.(١)

١٠- بَابُ

قَبْضِ الْعِلْمِ

[١] وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَشَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ: «هٰذا أَوَانُ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّىٰ لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَىٰ شَيْءٍ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ.(٢)

[٢] وعَنْ زِيَادِ بْنِ لَبِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا فَقَالَ: «ذَاكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَابِ الْعِلْمِ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ وَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَنُقْرِئُهُ أَبْنَاءَنَا وَيُقْرِئُهُ أَبْنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ إِنْ كُنْتُ لَأَرَاكَ مِنْ أَفْقَهِ رَجُلٍ بِالْمَدِينَةِ أَوَلَيْسَ هٰذه الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ لَا يَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيهِمَا». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ.(٣)

الأحاديث في قبض العلم وذهابه في آخر الزَّمان كثيرةٌ، منها في «الصَّحيحين» أحاديث عدَّةٌ كقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: **«إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ هٰذَا الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ صُدُورِ الْعُلَمَاءِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»**،(٤) ذهاب العلم من أشراط السَّاعة الصُّغرىٰ، أن يقلَّ العلم ويُرفع، وأن يكثر الجهل ويفشو، وكثرة القراءة الموجودة في هٰذا الزَّمان؛ لا تدلُّ علىٰ ازدياد العلم؛ لأنَّ النَّاس يقرأون ولكنَّهم لا يعلمون إلَّا القليل.

لهٰذا إذا نظرت -الآن- في عدد الأمَّة وعدد النَّاس، كم منهم من يطلب العلم؟ كم منهم من يعلِّم، نادرٌ، يعني: إذا ذكرتَ ألفًا أو ألفين أو ثلاثة آلافٍ، إذا كانوا يوجدون في ألف مليونٍ، أو نحو ذلك لا شكَّ أنَّ هٰذا نادرٌ جدًّا، وأيضًا هم متفاوتون في العلم، وفي إدراكه وتحصيله، فهٰذا يخوِّف، وهٰذا الحديث ممَّا ينبغي لك أن تستحضره دائمًا في التَّخويف، تخاف أن تدرك الزَّمن الَّذي يُنزع فيه العلم، وينتشر فيه الجهل ويظهر فيه الجهل، لماذا؟

لأنَّ هٰذا يدلُّ علىٰ فساد الزَّمان، حتَّىٰ ربَّما الواحد تدركه هٰذه البليَّة أن يكون جاهلًا فيُتَّخذ رئيسًا فيُسأل فيُفتي بغير علمٍ وهو يظنُّ من نفسه أنَّه عالمٌ؛ لكنَّه سئل بغير علمٍ فأفتىٰ فضلَّ وأضلَّ، وهٰذه ظهرت

(١) «سنن الدارمي» حديث رقم: (٣٦٠): أخبرنا بشر بن ثابت البزَّار حدثنا نصر بن القاسم عن محمَّد بن إسماعيل عن عمرو بن كثيرٍ عن الحسن وإسناده ضعيفٌ، وهو مرسلٌ، نصر بن القاسم مجهولٌ، وعمرو بن كثيرٍ لم أجد ترجمته، ورواه الطبرانيُّ في «الأوسط» بنحوه من طريقٍ أخرىٰ مرفوعًا- كما في «مجمع الزَّوائد» (١/ ١٢٣)- وقال الهيثميُّ: وفيه محمَّد بن الجعد وهو متروكٌ. والعبَّاس بن دكَّارٍ -أيضا- وهو كذَّابٌ.

(٢) «جامع الترمذي» جديث رقم: (٢٦٥٣) قال الترمذي: حسن غريب. وقال الحاكم(١/ ٩٩): إسناده صحيح.

(٣) «سنن ابن ماجه» حديث رقم: (٤٠٤٨)، و«مسند أحمد» حديث رقم: (١٧٤٧٣-الرِّسالة).

(٤) رواه البخاري برقم (١٠٠)، ومسلم برقم: (٢٦٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

بوادرها الآن فيما يُنشر ويُقرأ ويراه البعض في القنوات أو يسمعونه في الإذاعات أو في الصُّحف، أسئلةٌ كثيرةٌ وأجوبةٌ بغير علمٍ، يعني أجوبةٌ من جهة الاستحسان والرَّأي أو الضَّعف أمام ما يجري في العصر ونحو ذلك ممَّا هو من سبيل ضعف العلم وعدم رعاية الدَّليل من القرآن وسنَّة النَّبيِّ العدنان عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام.

فإذن هٰذه الأحاديث الَّتي فيها رفع العلم في آخر الزَّمان وقلَّة العلم وكثرة الجهل؛ تخوِّفك، وإذا خِفت أدلجت، (من خاف أدلج)، إذا خفت أدركت أنَّ المسألة صعبةٌ، وأنَّ مسؤوليَّة الأمَّة ومسؤوليَّة بقاء وراثة النَّبيِّ ﷺ في العلم إنَّما هي عليَّ وعليك، وعلىٰ الثَّاني والثَّالث ممَّن أدركوا.

إذن لا بدَّ أن نبذل أنفسنا في العلم، وطلب العلم جهادٌ وأيضًا نشر العلم جهادٌ، النَّبيُّ ﷺ مكث في مكة ثلاثة عشر عامًا يجاهد بالعلم ويجاهد بالقرآن، ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾[الفرقان]، لذلك جهاد العلم هو أعظم من جهاد السِّنان، ولهٰذا قول المحقِّقين من أهل العلم: أنَّ طلب العلم والتَّفرُّغ له والعناية به حفظًا ودرسًا أنَّه أفضل النَّوافل، حتَّىٰ أفضل من جهاد التَّطوُّع، لماذا؟ لأنَّ النَّفع عامٌّ، وجهاد التَّطوُّع قد يكون خاصًّا، لكنَّ العلم فيمن أخذه بحَزمٍ وجدٍّ؛ فإنَّ نفعه عامٌّ له ولمن حوله وللنَّاس، ويبقىٰ علىٰ مدىٰ سنين طويلةٍ ما أحياه الله جلَّ وعلا.

فالمجاهدة بالعلم؛ هٰذه من أعظم الجهاد؛ بل هي سببٌ لكلِّ خيرٍ، لكنَّ هٰذا لا يعني أنَّ المرء يتصدَّر قبل أوانه، أو يذكر ما لا يعلم، أو يقول أشياء بالظَّنِّ، أو يتجرَّأ علىٰ ما ليس له، وبالتَّجربة، والَّذي وجدناه أنَّ الله جلَّ وعلا يبارك للعبد إذا علَّم ونشر ما علِم بيقينٍ، والَّذي لا تعلمه، أو أنت شاكٌّ فيه، أو لم تُحسن فهمه هٰذا اتركه، ولا يلزمك أنَّك تعلِّم، أو تنشر في كلمةٍ أو محاضرةٍ أو في خطبةٍ شيئًا لا تعلمه، شيئًا مشتبهًا عليك؛ اتركه أصلًا حتَّىٰ تتحقَّق منه مائةً بالمائة، والنَّاس الآن يحتاجون إلىٰ اليقينيَّات، يحتاجون إلىٰ ما يعلمه طلَّاب العلم بوضوحٍ، يحتاجونه الآن، نسوا أكثر العلم والدِّين من أمور الدِّين العظام في التَّوحيد وفي تعظيم القرآن وتعظيم السُّنَّة، والإتيان بالعبادات ونحو ذلك، طاعة النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام، ونحو ذلك من الأمور الَّتي هي أصول الدِّين.

فإذن الواجب عليكم جميعًا الجدُّ في طلب العلم، لا يسبقنَّكم الزَّمان، وفترة الشَّباب وهي فترة العلم والتَّعلُّم، فإذا راحت، وبدأت في الثَّلاثينيَّات؛ صارت المسألة وسطًا، يعني تبدأ تبني علىٰ ما مضىٰ، ويصير تحصيلك بحسب ما مضىٰ، فإذا صار ما مضىٰ مركَّزًا وقويًّا وبناؤه جيِّدًا؛ يكون تحصيلك تعطفه علىٰ ما سبق، تبني بنيانًا جيِّدًا -بإذن الله وتوفيقه-، أمَّا إذا كان الأوَّل مهزوزًا؛ فستظلُّ بعدها في الثَّلاثينيَّات وما بعدها ستظلُّ مهزوزًا، لأنَّ ما بُني علىٰ ضعيفٍ سيكون ضعيفًا.

ولا وسيلة لتثبيت العلم مثل التَّقوىٰ والإنابة إلىٰ الله جلَّ وعلا، قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[العنكبوت:٦٩]، وقال أيضا جلَّ جلاله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾[النِّساء]، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: من فعل ما يوعظ به ؛ ثبَّت الله العلم في صدره. وكان ربَّما استغلقت عليه المسألة من مسائل العلم – يعني ابن تيميَّة – يقول: فأسجد لله جلَّ وعلا وأتضرَّع

وأبكي وأُعفِّر وجهي بالتُّراب حتَّىٰ يُفتح لي. وهٰذا لأجل الذُّلِّ، لأنَّه ما يستغلق القلب إلَّا لشيءٍ عليه، لأنَّ هٰذا نور الله جلَّ وعلا، فكيف ما يدخل القلب، كيف ما يفهم؟ لابدَّ أنَّ فيه شيئًا، قد يكون من عدم استعداداتٍ فطريَّةٍ من عدم الذَّكاء وعدم الفهم، هٰذا أمرٌ آخر، لكنَّه إذا كان لدىٰ المرء استعداداتٌ فكيف، وهٰذا تجده أنت في نفسك، فتجد أحيانًا تلحظ أنَّك يأتيك انشراحٌ وقوَّةٌ فتفهم المسألة بسرعةٍ، وأحيانًا تكون المسألة واضحةً فتقول: كيف جاءت هٰذه، حتَّىٰ تقرأ الكلام الواضح، تجد أنَّ علىٰ القلب حاجزًا يمنع من فهمه، لكن بتقوىٰ الله جلَّ وعلا؛ يُعظِّم الله جلَّ وعلا للعبد الأجر ويُيسِّر له سبيل الفهم.

وبالمناسبة هناك من يكثر الاستدلال علىٰ هٰذه المسألة بقول الله جلَّ وعلا في آخر سورة البقرة: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾، والاستدلال بالآية علىٰ: أنَّ من اتَّقىٰ الله جلَّ وعلا يعلِّمه الله؛ ليس صحيحًا، بل هو غلطٌ من جهة اللُّغة العربيَّة، وكذلك من جهة حسن القراءة.

أمَّا من جهة **حسن القراءة**: فإنَّ الوقف الحسن علىٰ لفظ الجلالة تقرأ بعد ذكر أحكام البيوع والإشهاد إلىٰ آخره في الدَّين تقول: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾، بعد أن بيَّن الله جلَّ وعلا هٰذه الأحكام وعلَّمها النَّاس قال: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾.

أمَّا من جهة العربيَّة: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ أمرٌ، وإذا كان الأمر له جوابٌ؛ فإنَّه يكون مجزومًا، لو كانت ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ﴾ إنَّها خبرٌ وأثرٌ للتَّقوىٰ نتيجةٌ للتَّقوىٰ؛ لكانت مجزومةً، وبلا (الواو)، فتكون – واتَّقوا الله يعلمْكم الله –. هٰذا مقتضىٰ النَّحو والعربيَّة، هٰذا كثيرٌ في القرآن، مثل الشَّاهد عليها قوله في سورة نوح ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم﴾[نوح]، ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣﴾ هٰذه أمرٌ النَّتيجة ﴿يَغۡفِرۡ﴾ إذن المغفرة جُزمت؛ لأنَّها مرتَّبةٌ علىٰ الأمر، وهٰذا يُسمَّىٰ جواب الأمر في النَّحو، جواب الأمر يكون مجزومًا؛ لأنَّه في مقام جواب الشَّرط. يعني من يتَّق يُغفر.

هنا: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾، ثمَّ استأنف، لأنَّ (الواو) استئنافيَّةٌ ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾، الفعل مرفوعٌ بعدها.

بعض أهل العلم حاول أن يخرِّج هٰذا علىٰ أن تكون (الواو) حاليَّةً، واتَّقوا الله يعني حالة كونكم تعلمون، وحتَّىٰ لو كانت حاليَّةً؛ فإنَّها لا تكون مُرتَّبةً، يعني تكون معها، واتَّقوا الله يعني حالة كون الله يعلِّمكم، وهٰذا أيضًا لا يستقيم مع الاستدلال.

لكنَّ التَّقوىٰ سببٌ للعلم ليس بهٰذه الآية، ولكن بقوله جلَّ وعلا في سورة الفرقان: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾[الأنفال:٢٩]، وأعظم الفرقان: الفرقان في المسائل العلميَّة بين الصَّواب وغيره، تفهم وتفرِّق بين هٰذه وهٰذه، فرقانٌ، ممَّا يعطيه الله جلَّ وعلا للمتَّقين.

فإذن الاستدلال علىٰ مسألة أنَّ المتَّقي يُعلِّمه الله جلَّ وعلا هٰذا من الاستدلال بآية الأنفال هو الصَّواب، أمَّا الاستدلال بآية البقرة؛ فلا يستقيم من جهة العربيَّة والنَّحو.

مع أنَّ عددًا من المفسِّرين راج عليهم صنيع الوعَّاظ، وقالوا: الآية يستدلُّ بها علىٰ كذا، ولكن ردَّ عليهم طائفةٌ من المحقِّقين، منهم أبو حيَّان في «البحر المحيط» وغيره.

نكتفي بهٰذا القدر وإن شاء الله نلتقي بكم في الأسبوع القادم بإذن الله.

... يكون له حفظٌ ويكون مطالعةٌ، لابدَّ له من الحفظ والمطالعة، لابدَّ في أوَّل عمرك تحفظ، لأنَّه إذا ما حفظت في أوَّل عمرك بعد ذلك ستنسىٰ المحفوظ؛ يعني نوادر من النَّاس من حفظوا وبقي معهم حفظهم إلىٰ آخر عمرهم، لكنَّه يحفظ مقاطع إذا جاء استدلالٌ يحفظ لكنَّه لا يقدر أن يقرأه من أوَّله إلىٰ آخره، هٰذا حفظٌ يحتاج إلىٰ تثبيت ودائمًا مراجعة المتون، إذا حفظت مرَّةً في عمرك وراجعت بين الحين والآخر فإنَّه يكون عندك الأدلَّة موجودةً مثلًا حفظت «كتاب التَّوحيد» تعرف أنَّ المسألة هٰذه دليلها كذا وكذا، قد لا تقدر أن تقرأ الأبواب متتاليةً لأنَّه يحتاج منك إلىٰ مراجعةٍ لكن لمَّا حفظت الانتزاع والاستدلال وقرب المعلومة قريبٌ، كذلك مثلًا حفظت «البلوغ» متن الحديث يكون عندك لكن قد تقرأ عشرين ثلاثين حديثًا وراء بعضٍ قد ما يتمكَّن كلُّ أحدٍ، قد يكون حفظ في أوَّل الطَّلب ثمَّ لم يتعاهده فنسي، لكن تبقىٰ المتون كمقاطع موجودةً عندك، ما ينساها، كذلك حفظ «الألفيَّة» تجد أنَّه عنده الأبيات بين الحين والآخر، أمَّا من أنعم الله عليه بأنَّه يحفظ ويكرِّر دائمًا كما يجعل له ختمةً في القرآن مراجعةً كذلك يجعل ختمةً في محفوظاته هٰذه قليلٌ من يُنعم الله جلَّ وعلا بذلك، هٰذه عظيمةٌ لكن ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾[فصلت]... الأدلَّة حاضرةٌ وكلام العلماء عندك حاضرٌ حتَّىٰ تصوُّرك للعلم للحفظ إذا حفظت وفهمت يكون تصورك للعلم أقوىٰ؛ لأنَّ الباب يكون عندك كاملًا موجودًا، فإذا أردت تراجع وتبحث أسرع من غيرك.

وهٰذا الزَّمن كثرت المُلهيات فيه، لكن:

علىٰ قدر أهل العزم تأتي العزائم .....

ويقول أيضًا المُتنبِّي:

ولم أرَ في عيوب النَّاس عيبًا كنقص القادرين علىٰ التَّمام

الله جلَّ وعلا أقدرك وأعطاك الملكة والموهبة وعلمًا وفهمًا وصحَّةً وربَّما بعض النَّاس تفرَّغوا وما عنده مسؤوليَّاتٌ كبيرةٌ، هو يضيِّع زهرة عمره وشبابه مع ما أعطاه الله من الآلات ويحرِم نفسه وراثة علم النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام، **العلم أعظم قربةٍ**، أعظم من كثرة الصَّلاة، يعني النَّوافل، العلم أعظم قربةً؛ لأنه حمايةٌ للأمَّة جهادٌ في مقام الأنبياء، «الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ».

زادني الله وإيَّاكم من الهدىٰ وغفر لنا الذَّنب وجعلنا موفَّقين في أمورنا كلِّها. اللَّهمَّ أجب.

الدَّرس الثَّالث والعشرون

[٣] وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُقْبَضَ، وَقَبْضُهُ ذهابُ أَهْلِهِ، عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَدْرِي مَتَىٰ يُفْتَقَرُ إِلَيْهِ أَوْ يُفْتَقَرُ إِلَىٰ مَا عِنْدَهُ، وَسَتَجِدُونَ أَقْوَامًا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَدْعُونَكُمْ إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ وَقَدْ نَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، فَعَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ وَإِيَّاكُمْ وَالتَّبَدُّعَ وَإِيَّاكُمْ وَالتَّنَطُّعَ وَإِيَّاكُمْ وَالتَّعَمُّقَ وَعَلَيْكُمْ بِالْعَتِيقِ. رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ بِنَحْوِهِ.(١)

هٰذا الأثر أثرٌ عظيمٌ، فيه: الوصيَّة والحثُّ والحضُّ علىٰ أخذ العلم عن أهله قبل أن لا تعرف كيف تأخذ العلم.

وهٰذا في الواقع مُشاهدٌ فإنَّ الإنسان تأتيه أحوالٌ يكون مُهيَّأً له أن يطلب العلم، مهيَّأً له أن يحفظ و مهيَّأً له أن يبحث و مهيَّأً له يقرأ، فينبغي له أن يلزم العلم والعمل ومجالسة العلماء؛ لأنَّه لا يدري متىٰ يحتاج إلىٰ العلم، ولا يقول: العلم معروفٌ وسهلٌ، والَّذي أحتاجه في حياتي مسألةٌ أو مسألتين، والعبادات عرفتها، وأصول التَّوحيد عرفتها، ويكفي، لا تدري متىٰ تحتاج إلىٰ العلم، لا تدري متىٰ يُحتاج إليك، ومتىٰ تفتقر إليه، ومتىٰ يُفتقَر إليك.

ولهٰذا كان من المصائب العظيمة في آخر الزَّمان أن يتَّخذ النَّاس رؤوسًا جهَّالًا فيُسألون فيُفتون بغير علمٍ فيَضلُّون ويُضِلُّون.

فالواجب علىٰ طالب العلم بالخصوص وعلىٰ كلِّ من يأنس من نفسه رُشدًا في العلم أن يحرص علىٰ العلم، وأن يلزم أهله لأنَّ هٰذا من أعظم بل هو أعظم القُرَب، لهٰذا قال بعض السَّلف: **كانت العبادة أفضل ما يُعمل في أوَّل الإسلام، والآن: العلم هو أفضل ما يُعمل**. يعني: أفضل من نوافل العبادة، لماذا؟ لأنَّ الحاجة إليه عظيمةٌ، لأن الجهل عظيم، وكان سابقًا في أول الإسلام الكلُّ مع رسول الله ﷺ، ومع الصَّحابة، وحال المجتمع وحال النَّاس يدلُّ علىٰ الخير ويحثُّ عليه، والشُّبَه منفيَّةٌ، والشَّهوات قليلةٌ، وما يحتاجه الإنسان في دينه -في الغالب- أنَّه قريبٌ منه، لكن بعد ذلك شاعت الشُّبه، وشاعت الشَّهوات، واحتاج النَّاس -لكثرة جهلهم- إلىٰ العلم وإلىٰ الإرشاد وإلىٰ البيان وإلىٰ بقاء فهم حكم الله وإلىٰ بقاء فهم كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، وهٰذا وراثة النبي ﷺ، فإنَّ الأنبياء لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا وإنَّما وَرَّثوا العلم.

لهٰذا أعظم ما تتقرَّب به إلىٰ الله جلَّ وعلا بطلب العلم، لأنَّك لا تدري متىٰ تفتقر إليه -كما قال ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- ولا متىٰ يُفتقَر إليك فيه، متىٰ يُحتاج إليك في بلدٍ قد يكون ما تدري تحصل فتنةٌ للنَّاس فيتفرق النَّاس، متىٰ يحتاج إليك، وهل النَّاس دائمًا تتيسَّر لهم اتِّصالات.

والآن لو كلُّ طالب علمٍ جلس في مسجده ونفع من حوله لكان خيرًا عظيمًا، يعني بحسب ما عنده، لا يتقوَّل علىٰ الشَّرع؛ لكن بحسب ما عنده مع التَّثبُّت والسُّؤال وتقوىٰ الله ﷻ، ينفع نفسه وينفع الآخرين،

(١)- «سنن الدارمي» حديث رقم: (١٤٥).

فلا شكَّ أنَّ الحاجة – كما قال ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – إلىٰ مزيدٍ ومزيدٍ في الاجتهاد في طلب العلم.

ثمَّ ذكر الوصيَّة بالقرآن، ولزوم القرآن يكون مع الحذر من مخالفته، فإنَّ قومًا يزعمون أنَّهم يأخذون بالقرآن وهم قد تركوه وراءهم ظهريًّا، وهؤلاء هم أهل الشُّبهات وأهل المشتبهات الَّذين أخذوا بالبدع وتركوا المُحكمات من القرآن.

ولهٰذا الله جلَّ وعلا وصف – في آية «آل عمران» – وصف المنحرفين الزَّائغين بأنَّهم يتَّبعون المتشابهات جزمًا وقوَّةً فيها.

ووصف الرَّاسخين في العلم بالتَّواضع والذُّلِّ، وأنَّهم يجهلون أشياء كثيرةً.

فقال جلَّ وعلا: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾[آل عمران:٧]، وفي قوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾؛ ما يُشعِر بأنَّهم جازمون، وأنَّهم أقوياء في اتِّباعهم للمُتشابه.

ثمَّ وصف الرَّاسخين في العلم قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، علىٰ الوقف هنا، ثمَّ قال: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، يعني: مع كونهم أهل ثباتٍ وأهل رسوخٍ في العلم؛ لكن عندهم تواضعٌ وأناةٌ لأنَّ هناك أشياءً يجهلونها، لا نعلمها ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ سلَّمنا وآمنَّا.

وهٰذا هو الَّذي حصل في الأمَّة، لأنَّه كلَّما زاد المرء زيغًا –والعياذ بالله– كلَّما ازداد شدَّةً في تفسير القرآن، أو في اتِّباع ما يريد من المُتشابه ومجادلةً عليه وقوَّةً عليه، والرَّاسخون في العلم عندهم المُحكمات والمُجمع عليها مسائل قليلةٌ ليست بالكثيرة، وما اشتبه عليهم يقول العالم الرَّاسخ في العلم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، الله أعلم، ما ندري، هٰذه تحتاج إلىٰ مراجعةٍ، وأمَّا الآخرون فتجد عندهم جزمًا وخوضًا في كلِّ شيءٍ، وقلَّ أن تجد عند زائغٍ أن يقول: (الله أعلم) أو (لا أدري)، بينما تجد عند الرَّاسخين في العلم الَّذين تحقَّقوا في العلم بوصيَّة ابن مسعودٍ هٰذه، وتحقَّقوا بالقرآن أنَّه يقول: لا أعلم، أجهل، حتَّىٰ بينه وبين نفسه يجد أنَّه يهرب من المُشتبهات ويأخذ المُحكمات طلبًا للسَّلامة.

فما حدث في الأمَّة من الافتراق، ومن الزَّيغ؛ كلُّه بسبب ترك العلم النَّافع، وترك الأخذ بالسُّنَّة، وترك معرفة القرآن والعلم بحدود ما فيه من العقائد والغيبيَّات والأحكام والشَّرعيَّات.

الواجب عليكم جميعًا الجدُّ في العلم، لأنَّ الزَّمن هٰذا ليس زمن علمٍ، إنَّما هو زمن جهلٍ، فالنَّاس الآن كلَّما زاد بهم الزَّمان؛ كلَّما زاد بهم الجهل، وكما قال من قال: كفىٰ بالاغترار بالله جهلًا، وكفىٰ بخشية الله علمًا. ليس المقصود السَّماع والثَّقافة والكلام، هٰذا أكثر الآن، الصَّغير صار يجادلك، أبو عشر سنين يقول: لا، هٰذا يدلُّ علىٰ كذا، وهٰذا يدلُّ علىٰ كذا.

فالمقصود: العلم النَّافع الَّذي قرَّره أهل العلم، وأهل السُّنَّة، وأئمَّة السَّلف، في المسائل الخلافيَّة يعرف المرء ما ينجيه فيها، ويأخذ بما دلَّت عليه الأدلَّة، إذا اتَّضح له، أو يحتاط لدينه.

هٰذا يحتاج إلىٰ مصابرةٍ وصبرٍ وبذلٍ، فالعلم ليس سهلًا، فمن أراد لزوم الطَّاعة، هٰذا معه إلىٰ الموت، والعوامُّ يقولون: العلم مو بسنةٍ أو بسنتين، العمر كلُّه، يعني من أراد لزوم الطَّاعة هٰذا معه إلىٰ الموت، كذلك العلم من يريد العلم معه إلىٰ الموت ليس قليلًا ويذهب، ولكن معك إلىٰ الموت، فلا بدَّ أن توطِّن

نفسك أنَّك إذا صرت طالب علمٍ، فهو معك إلىٰ الموت، وهٰذا أعظم ما تتقرَّب به إلىٰ الله جلَّ وعلا، وأعظم من نوافل العبادات، لأنَّك أنت – الآن – في مقام جهادٍ ومقام حمايةٍ للشَّرع، من في بيتك، ومن حولك، كيف يعلمون؟ خاصَّةً في أصول الدِّين العظيمة، كالتَّوحيد والعقائد ونحو ذلك، يدخلهم الشَّيطان فيوقعهم في أعظم مصيبةٍ، وهي البدع وقبلها الشِّرك – والعياذ بالله –، رحم الله ابن مسعودٍ ورضي عنه.

(وَعَلَيْكُمْ بِالْعَتِيقِ): العتيق هو الأمر الَّذي كان عليه السَّلف، كان عليه من قبل، وهٰذا يفسِّره قول ابن مسعودٍ لمَّا أُخبِر عن جماعةٍ في الكوفة، أنَّهم يُسبِّحون مائةً، ويُهلِّلون مائةً، ومعهم حصًىٰ، فقيل له، فذهب إليهم، فوجد قائلًا منهم يقول: سبِّحوا مائةً فيُسبِّحون علىٰ انفرادٍ، ثمَّ يبدأون يعدُّون بالحصىٰ أمامه، فقال لهم: لأنتم أهدىٰ من صحابة رسول الله ﷺ، أو أنتم علىٰ شعبة ضلالةٍ – وهٰذه ثنائيَّةٌ صحيحةٌ إمَّا هٰذا أو هٰذا- هٰذه آنية رسول الله ﷺ لم تُكسَر، وهؤلاء زوجاته لم يمتن، وهؤلاء صحابة رسول الله ﷺ. فقالوا: يا أبا عبد الرَّحمٰن! الخير أردنا، - يعني: يا ابن مسعودٍ ما أردنا إلَّا الخير، تسبيحٌ وتهليلٌ، ونعدُّ بالحصىٰ ونحن مجتمعين – فقال: كم من مريدٍ للخير لم يبلغه، أو لم يحصِّله. وهٰذا لأنَّهم لم يأخذوا بالعتيق.[1]

فالعتيق هو: الأمر الأوَّل قبل أن تحصل الخلافات وقبل أن يحصل الافتراق وقبل أن تحصل البدع، هل كان عليه الزَّمن الأوَّل أم لا؟ هل كان عليه الأمر من قبل أم لا؟ هٰذه حجَّة السَّلف دائمًا، هل فعله السَّلف أم لم يفعلوه؟

أحيانًا بعض المسائل تدلُّ عليها عموماتٌ، مثل الآن فِعْل هؤلاء لمَّا اجتمعوا علىٰ الذِّكر علىٰ هٰذا النَّحو قد يُستدلُّ له بعموم: «**مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَ بَيْنَهُمْ**»،[2] أو: «**مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ...**»، أو «**مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا ثُمَّ قَامُوا وَلَمْ يَذْكُرُوا اللهَ إِلَّا قَامُوا عَلَىٰ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ**»[3]، يعني: ثَمَّ عموماتٌ تدلُّ علىٰ فضل الذِّكر، وفضل الاجتماع، لكنَّ إدخالُ صورةٍ ما في عمومٍ، وهو من جهة العمل الجماعيِّ الَّذي تُضاهىٰ به الشَّريعة، إدخاله في عموم يقولون: هٰذا دلَّ عليه الدَّليل؛ هٰذا ليس بحجَّةٍ، لأنَّ المسألة إذا دلَّ العموم -عموم الدَّليل- من الكتاب أو السُّنَّة علىٰ هيئةٍ مضاهيةٍ للهيئات الشَّرعيَّة، فالحال قسمان: إمَّا أن تكون هٰذه الهيئة المُضاهية عملها السَّلف، أو لا يكون السَّلف عملوها.

فإن كانوا عملوا بها فدخولها في العموم الاستدلال بها واضحٌ، لأنَّ السَّلف فهموا دخول هٰذه الصُّورة في العموم وعملوا بها.

---

(١) سبق تخريجه (ص ١١٥).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه أبو داود برقم (٤٨٥٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وإمَّا أن يكونوا لم يعملوا بها؛ فهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ هٰذه الصُّورة الَّتي هي الهيئة المُضاهية للشَّرع أنَّه لا يجوز أن تدخل؛ لأنَّ السَّلف تركوها، الصَّحابة تركوها.

وهٰذا معنىٰ قول ابن مسعودٍ: (عَلَيْكُمْ بِالْعَتِيقِ)، يعني : من جهة السُّلوك والسَّبيل، كذلك (عَلَيْكُمْ بِالْعَتِيقِ) فيما يختلف فيه من الاستدلالات، لأنَّ أصحاب الاحتفالات والموالد وأشباهها استدلُّوا بعمومات.

جاء في الاحتفال بمولد النَّبيِّ ﷺ، قالوا: النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام كان يصوم الاثنين، وسُئل عنه فقال: «**ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ وَبُعِثْتُ فِيهِ**»، الحديث رواه مسلمٌ،(١) فالنَّبيُّ ﷺ صام يوم الاثنين، وعلَّل صيامه بأنَّه وُلد فيه، وبُعث فيه، فصيامه – عليه الصَّلاة والسَّلام – له شكرًا علىٰ نعمة ولادته، وعلىٰ نعمة بعثه والإيحاء إليه عليه الصَّلاة والسَّلام.

وكذلك ما ورد من أنَّ الأعمال تُرفع فيه: «**وَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ الْعَمَلُ وَأَنَا صَائِمٌ**»،(٢) فجاءوا وقالوا: هٰذا احتفالٌ، فإذن نقيم الموالد، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ احتفل، فنقول لهم: هٰذا الدَّليل الَّذي أوردتموه إذا قلنا: يحتمل هٰذا المعنىٰ أو يدلُّ عليه؛ فلماذا تركه الصَّحابة؟ لماذا النَّبيُّ ﷺ الَّذي صام فيه لم يفعل هٰذا النَّوع الَّذي هو الاحتفال وإطعام الطَّعام والاجتماع، إذا كان مشروعًا، لماذا لم يُفعَل؟ إذًا هنا يأتي: (فَعَلَيْكُمْ بِالْعَتِيقِ).

وكلَّما حصلت فتنةٌ واختلافٌ؛ انظر ما عليه النَّاس قبل الفتنة – يعني في المسألة في الدِّين عظيمةٌ – انظر ماذا عليه النَّاس قبل الفتنة، تجد أنَّ الأمر يتَّضح لك، وهٰذه قاعدةٌ صحيحةٌ ومُجرَّبةٌ وواضحةٌ من عمل السَّلف.

فالتزام طريقة الصَّحابة –رضوان الله عليهم– والسَّلف الصَّالح، والأمر الأوَّل أنجىٰ، كلَّما كان النَّاس أقرب إلىٰ زمن النُّبوَّة كلَّما كانوا أسلم من البدع والجهل والضَّلالات.

... هٰذه مسألةٌ ثانيةٌ ذكرت لك أنَّه في الهيئات، الهيئة الَّتي فيها اجتماع الهيئة المُضاهية أمَّا الأمور الانفراديَّة هٰذه قد تُنقل وقد لا تُنقل ولهٰذا تجد أنَّ أئمَّة السُّنَّة استدلُّوا في بعض المسائل بعمومات أدلَّة وهي ليس العمل بها شائعًا، مثل مثلًا صيام السِّتِّ من شوَّال دلَّ عليه حديث أبي أيُّوب في مسلمٍ: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالَ ذَاكَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ**»(٣) لكن ننظر إلىٰ أنَّ أبا بكرٍ ما صام والنَّبيُّ ﷺ ما صحَّ أنَّه صام ولا أبو بكرٍ صام ولا عمر صام إلىٰ آخره والإمام مالكٌ كان أنكر صيام السِّتِّ وقال لم أر عليها عمل أهل المدينة عمل النَّاس، هٰذه فضيلةٌ ليست هيئةً يجتمع عليها النَّاس تكون مضاهيةً للمشروع، واضحٌ.

---

(١) «صحيح مسلم» حديث رقم: (١١٦٢) من حديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي برقم (٧٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) «صحيح مسلم» حديث رقم (١١٦٤) من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

لهٰذا نقول في مثل هٰذه: ينظر إلىٰ قول أئمَّة السُّنَّة فإن كانوا استحبُّوه معناه أنَّه ما دخلت في الهيئات، لهٰذا الفرق بين هٰذه الصُّورة والبدعة أنَّ البدعة طريقةٌ في الدِّين مُخترعةٌ، طريقةٌ في الدِّين يعني يُلتزم بها مخترعةٌ يُقصد بالسُّلوك عليها ما يُقصد بالسُّلوك علىٰ الطَّريقة الشَّرعية أو نحو ذلك من تعريف البدعة.

مثلها مثلًا: التَّكبير الجماعيُّ في العشر أو قبل العيد. يستدلُّون له بفعل ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لأنَّه كان إذا أتت العشر دخلا السُّوق فكبَّرا وكبَّر النَّاس بتكبيرهما، هنا قالوا: هٰذا يدلُّ علىٰ أن التَّكبير الجماعيِّ.

هٰذا لا يدلُّ، لأنَّهما ذكَّرا النَّاس فتذكَّر النَّاس لمَّا سمعوا تكبير ابن عمر وتكبير أبي هريرة كبَّروا من باب التَّذكُّر، (كبَّر النَّاس بتكبيرهما)، يعني: يكبِّرون بسبب تكبيرهما، الباء سببيَّةٌ، فإذا جاء واحدٌ يكبِّر في المسجد، والنَّاس يُكبِّرون؛ فهٰذه هيئةٌ اجتماعيَّةٌ، ولو كان ثَمَّ مستمسكٌ، لنفرض أنَّ هٰذا فيه استدلالٌ، لكن هل فُعل في المساجد، هل فعله ابن عمر وأبو هريرة في المسجد، لنفرض – تنزُّلًا – أنَّه فُعل في السُّوق؛ لكن هل فُعل في المسجد بهيئةٍ جماعيَّةٍ؟ فإذن قد يكون لأهل البدع مستمسكٌ من جهة دليلٍ؛ لكن يُنظر هنا إلىٰ عمل السَّلف. إلىٰ عملٍ في الهيئة، أمَّا التَّعبُّدات الانفراديَّة فهٰذه البحث فيها يختلف، يعني الواحد يعمل بعموم دليلٍ في نفسه، هٰذا قد لا تتوافر الدَّواعي علىٰ نقل أنَّ السَّلف عملوها لكنَّ الاجتماع في مسجدٍ الاجتماع علىٰ ذكرٍ هٰذه مظهرٌ.

... الآن في عهد النَّبيِّ ﷺ ألا يوجد مسبوقون في الصَّلاة يوجد من يتمُّ الصَّلاة يوجد أو ما يوجد؟ أكيد يوجد فيه ناسٌ فاتهم ركعةٌ لابدَّ يوجد ومع ذلك كان الجهر بالذِّكر بعد الصَّلاة علىٰ عهده عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام؛ لأنَّ هٰذه رُويت بلفظين: (كنَّا لا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلَّا بالتكبير)، وفيه (كان الجهر بالذِّكر بعد الصَّلوات المكتوبة علىٰ عهد رسول الله ﷺ)[1] وهل هٰذان لفظان مختلفان من ابن عبَّاسٍ أو هما شيءٌ واحدٌ؟

طائفةٌ من العلماء يقولون: هٰذا حديثٌ واحد، وهو كان الجهر بالذِّكر بعد الصَّلاة المكتوبة علىٰ عهد رسول الله ﷺ.

أمَّا من رواه (كنَّا لا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلَّا بالتَّكبير) فهٰذا منقولٌ بالمعنىٰ وهو الأوَّل، وهٰذا استدلُّوا عليه بأدلَّةٍ نقولها لكم إن شاء الله في مكانٍ آخر.

والَّذين أعملوا هٰذا الأمر قالوا هٰذا حديثٌ وهٰذا حديثٌ وهما بمعنًىٰ واحدٍ قالوا: التَّكبير هنا المراد منه جنس الذِّكر لا لفظ التَّكبير؛ يعني ليس معناه الله أكبر الله أكبر الله أكبر بعد السَّلام، وإنَّما هو جنس الذِّكر لأنَّ جنس الذِّكر تكبيرٌ لله وتعظيمٌ لله جلَّ وعلا.

والآخرون قالوا: لا، المقصود هنا بالتَّكبير التَّكبير المعروف، وكانوا يتبادرون إليه بدءًا قبل التَّسبيح والتَّحميد؛ يعني يبدؤون به قبل سبحان الله والحمد لله يقولون: الله أكبر وسبحان الله والحمد لله هٰذا

---

(١) أخرجه البخاري حديث رقم (٨٤١)، ومسلم حديث رقم (٥٨٣).

اختيار الحافظ ابن حجرٍ هو يميل إلىٰ هٰذا ويقول أنَّهم يبدؤون بالله أكبر قبل سبحان الله والحمد لله وهٰذا فيه نظرٌ.

والأولىٰ أن يُحمل الحديثان علىٰ حديثٍ واحدٍ يعني يجعل كلَّها جهرًا بالذِّكر ما يجعل الجهر بالتَّكبير غير الجهر بالذِّكر؛ لأنَّ التَّكبير تعظيمٌ ويُقال للمُكبِّر للذَّاكر مُكبِّرٌ وللمُكبِّر ذاكرٌ.

يؤيِّد هٰذا أنَّ السَّلف –يعني لو قلنا أنَّه فيه تكبيرٌ– ما استمرَّ الجهر بالتَّكبير متَّفقون علىٰ أنَّ البداءة تكون بسبحان الله، بينما العمل بالجهر بالذِّكر الأذكار الَّتي بعد الصَّلاة التَّهليل ونحوها هٰذا جرىٰ عليه العمل في عهد الصَّحابة ومن بعدهم .

الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ كان يرىٰ أنَّ هٰذا للتَّعليم، وهٰذا اتِّجاهٌ من الاتِّجاهات أنَّ هٰذا للتَّعليم ليس للسُّنِّيَّة، وإنَّما النَّبيُّ ﷺ جهر بالذِّكر تعليمًا، وجعلهم يجهرون تعليمًا فلما تعلَّموا انتهىٰ، وهٰذا فيه نظرٌ واستدلَّ بحديث: «**ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَىٰ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ**»[1]، قال في آخره: علَّم الأغنياء ما نقول ففعلوا مثل ما فعلنا، قال: «**ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ**» يعني أنَّ هؤلاء جهروا فأخذوا منهم الأغنياء أخذوه من الفقراء بعد ما علَّمهم النَّبيُّ ﷺ، يعني مسألة التَّعليم أخذها من هٰذه لكنَّ هٰذا فيه نظرٌ.

والصَّواب فيها أنَّ الذِّكر بعد الصَّلاة يعني الأذكار القريبة الَّتي بعد الصَّلاة هٰذه يجهرُ بها، لكن إذا كان بجنبه واحدٌ يتمُّ الصَّلاة قريبٌ منه ورفعه بالصَّوت بالذِّكر يشوِّش عليه يُسرُّ به إذا كان قريبًا، غالبًا ما يتشوَّش الإنسان إلَّا بصوتٍ واضحٍ يعرفه يحدِّده، أمَّا الَّذي يسمِّيه النَّاس الضَّجَّة واللَّجَّة ما تؤثِّر علىٰ خشوعك؛ يعني ما يُميَّز مثل دويِّ النَّحل من دون أن يميَّز هٰذا صوتٌ وهٰذه قراءةٌ ما تشوِّش علىٰ أكثر النَّاس؛ لكنَّ الَّذي يشوِّش عليه الكلام المحدَّد يقول كلامٌ يستوعبه لكنَّ ضجَّة النَّاس غالبًا لا تشوِّش.

---

(١) رواه البخاري (٨٤٣)، ومسلم (٥٩٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[٤] وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنِ ابْنِ عَمْرٍو مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا».[١]

[٥] وَعَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَىٰ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ، وَلَا يَبْقَىٰ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ، مَسَاجِدُهُمْ عَامِرَةٌ وَهِيَ خَرَابٌ مِنَ الْهُدَىٰ، عُلَمَاؤُهُمْ شَرُّ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، مِنْ عِنْدِهِمْ تَخْرُجُ الْفِتْنَةُ، وَفِيهِمْ تَعُودُ» رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ».[٢]

قال رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ: (وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنِ ابْنِ عَمْرٍو مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ صُدُورِ الْعُلَمَاءِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ») هٰذا الحديث فيه التَّخويف من هٰذا الزَّمان الَّذي يُقبض فيه العلم، ونقف عنده وقفاتٍ:

الأولىٰ: أنَّ حقيقة قبض العلم إنَّما هو قبض من يحمله، قال: «وَلَكِنْ بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا...» وهٰذا ممَّا يجعل العبد يفرح كثيرًا بوجود العلماء الَّذين يحملون هدي النَّبيِّ ﷺ، ويحملون العلم بالكتاب والسُّنَّة، لأنَّ ببقائهم بقاء العلم، وبموتهم وعدم وجود من يخلفهم ويحمل العلم؛ هٰذا من علامات نزع العلم والضَّلال والإضلال.

وإذا تبيَّن هٰذا ؛ فالواجب إذن علىٰ طالب العلم، بل علىٰ كلِّ مسلمٍ أن يكون من المعزِّرين والمناصرين والحافِّين بالعلماء، لأنَّ في تأييدهم تأييد الدِّين، ولأنَّ في الأخذ عنهم بقاء العلم وعدم اندراسه وقبضه.

قال: «إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ صُدُورِ الْعُلَمَاءِ»، كيف إذن يُقبض العلم ؟ «وَلَكِن يَقْبِضُه بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ»، بموت العلماء شيئًا فشيئًا، وهٰذا جاء في تفسير قول الله جلَّ وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾[الرَّعد:٤١]، جاء في تفسيرها: أنَّ نقص الأرض من أطرافها بموت العلماء، لأنَّها تبدأ تنقص تنقص حتَّىٰ تصير أرض ضلالٍ، والعياذ بالله.

الوقفة الثَّانية: عند قوله: «حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ»، هٰذه ضُبِطَت بوجهين:

- «حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ»، فتصير «عَالِمٌ»: فاعلًا، وهٰذه هي المشهورة.
- «حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا»، يعني: الله جلَّ وعلا.

والأولىٰ هي المشهورة في الرِّواية.

الثَّالثة: «اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا»، هٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ النَّاس يحتاجون إلىٰ من يؤمُّهم في دينهم، ويُعلِمْهم بالأحكام، فإذا لم يجدوا أحدًا فإنَّهم لا بدَّ أن يتَّخذوا رؤوسًا، وهؤلاء الرُّؤوس أيضًا لا بدَّ أنَّ

---

(١) «صحيح البخاري» حديث رقم: (١٠٠)، و«صحيح مسلم» حديث رقم: (٢٦٧٣).

(٢) «شعب الإيمان» للبيهقي حديث رقم: (١٩٠٨، ١٩٠٩) وسنده ضعيف، فيه علتان: الأولىٰ: ضعف عبد الله بن دكين. الثانية: الانقطاع بين علي بن الحسين وعلي بن أبي طالبٍ.

عندهم علمًا ميَّزهم عن غيرهم، لماذا اتَّخذ فلانًا وفلانًا رؤوسًا؟ لأنَّهم وجدوهم أمثل منهم، وجدوا عندهم خبرًا، وجدوا عندهم علمًا، لكنَّهم في الحقيقة جهَّالٌ، وجهلهم من جهتين:

الجهة الأولىٰ: عدم العلم.

الجهة الثَّانية: عدم العمل.

لأنَّ الَّذي لا يعلم جاهلٌ.

والَّذي يعلم ولا يعمل ولا يُحلِّ الحلال ولا يُحرِّم الحرام ولا يخشىٰ الله جلَّ وعلا فهو مُغترٌّ بالله جلَّ وعلا، وكما جاء في الأثر: كفىٰ بالاغترار بالله جهلًا.

وعدم العمل ممَّن عنده علمٌ؛ يعني عدم تحليل الحلال، وعدم تحريم الحرام وعدم القول بالحقِّ؛ هٰذا يورث أنَّ هٰذا المنتسب للعلم يجترئ علىٰ الأحكام، فيحكم في شرع الله برأيه، أو بحسب ما يراه من المصالح الدُّنيويَّة لمن سأله، أو للوضع، أو نحو ذلك ممَّا لا يكون فيه مراقبةٌ لله جلَّ وعلا.

فهٰذان نوعان من الجهل يوجدان إذا مات العلماء العاملون.

قال: «اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا» في الحقيقة هم جهَّالٌ إمَّا بعدم العلم، أو بترك العمل، لا يحلِّلون الحلال، ولا يحرِّمون الحرام، وليسوا بذوي خشيةٍ من الله جلَّ وعلا، وهٰذا يجعلهم ذوي جراءةٍ وإقدامٍ علىٰ تحريف الشَّرع.

كما حصل في أناسٍ كثيرٍ في زماننا هٰذا ممَّن أحلُّوا بعض المُحرَّمات المشهورة، فهناك من قال مثلًا: إنَّ الرَّجل له أن يستمتع بمن يريد أن يتزوَّجها، يعني قبل الخطبة، هناك من هو منتسبٌ للعلم سُئل فأفتىٰ بهذا.

وهناك من سُئل أيضًا في مسألة معاشرة الرَّجل لزميلته في الجامعة، فقال: من الأشياء الضَّروريَّة الَّتي لا يمكن التَّخلُّص منها، فكون الشَّابِّ يجلس مع زميلته في خلوةٍ وفي الجامعة، ويذهب معها، وربَّما يحصل بينهم أشياء من وسائل المُحرَّم، يعني من مقدِّمات الجماع، يقول: هٰذا من الأشياء الَّتي تعم بها البلوىٰ، وسهَّل فيها.

ومنهم ومنهم ممَّن في الواقع سُئلوا فأفتوا بغير علمٍ فضلُّوا وأضلُّوا.

الوقفة الرَّابعة: أنَّه في آخر الحديث: «فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا» ممَّا يجعل طالب العلم دائمًا في حذرٍ أن يُفتي بغير علم، فإذا أفتىٰ بغير علمٍ؛ فالنَّتيجة: أنَّه يَضِلُّ ويُضِلُّ، والَّذي يَضلُّ ويُضِلُّ هٰذا إثمه عظيمٌ أعظم من إثم من أخذ بالفتوىٰ أعظم من إثم من عمل جهلًا، وارتكب المُحرَّمات بشهوته، «فَأَفْتَىٰ بِغَيْرِ عِلْمٍ»، يعني: تجرَّأ، قال علىٰ الله بلا علمٍ، فضلَّ وأضلَّ، لهٰذا الله جلَّ وعلا جعل القول عليه بلا علمٍ قرينًا للمُحرَّمات الكبيرة، قرينًا للشِّرك بالله جلَّ وعلا، آية الأعراف: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾[الإسراء]، ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا

بِـَٔايَـٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾﴾[الأعراف]، والآيات في هٰذا التَّخويف شديدة.

فالواجب عليك أن لا تتَّخذ رأسًا جاهلًا، لأنَّ النَّاس قد يتَّخذك أهل بيتك رأسًا جاهلًا، وقد يكون أهل قريتك يتَّخذونك رأسًا، يسألونك وأنت تفتيهم بغير علمٍ فتضلَّ وتُضلَّ، لأنَّه ليس عندهم علماء راسخون فيسألون من عندهم فيتَّخذ النَّاس رؤوسًا جهَّالًا، وهٰذه تخوِّف كلَّ طالب علمٍ من أن يفتي بغير علمٍ، لا تُفْتِ إلَّا بحجَّةٍ، ولو ما أفتيت إلَّا في السَّنة إلَّا مرَّةً واحدةً عن الدَّليل وينفع الله بها ولا تأثم، لأنَّه يجب علىٰ من احتاج إلىٰ الفتوىٰ أن يسعىٰ هو، يسأل أهل العلم، وأنت ما يلزمك أن تفتي بغير علمٍ وبغير تثبُّتٍ، لا تعلم الحكم في المسألة تجتهد فيه وأنت لا تعلم، تعلم أنَّ نفسك مُترددَّةٌ وليس عندك علمٌ واضحٌ بهٰذه المسألة.

فالواجب عدم التَّجرُّؤ علىٰ الفتوىٰ، وإجابة السُّؤال بغير علمٍ سواءٌ كان الإنسان إمام مسجدٍ أو كان خطيبًا، مثل ما يحصل لإمام المسجد يأتي من يسأله، أو كان خطيبٌ بعد الخطبة يأتي من يسأله، أو يكون في قريته معروفًا أنَّه ديِّنٌ وطالب علمٍ، وعنده كتبٌ، فيسألونه، وقد يسأله من لا يعرفه أصلًا، وهٰذه أعظم لأنَّه لو سألك من تعرفه وأخطأت أو راجعت نفسك تروح وتبيِّن له، تتَّصل به وتبحث عنه وتُبيِّن له، لكن يسألك أحدٌ بالهاتف يسألك واحدٌ مارٌّ بعد الصَّلاة ونحو ذلك، ويمشي وأنت لا تدري ربَّما هٰذه الفتوىٰ بقيت معه طول عمره ويعلِّم بها عياله وتنتشر، وكثيرٌ من الأشياء والعادات الباطلة إنَّما فشت في النَّاس بقولٍ مرجوحٍ، أو أحيانًا بقولٍ باطلٍ، في بعض البلاد كيف انتشرت البدع؟ كلُّها بأقوالٍ باطلةٍ سُئل علماء فأفتوا بغير علمٍ، هم في الحقيقة عندهم جهلٌ بحقيقة حكم الله ورسوله في هٰذه المسائل فأفتوا بغير علمٍ فضلُّوا وأضلُّوا.

فالواجب الحذر، الحذر الشَّديد من القول علىٰ الله بلا علمٍ، فطالب العلم يتعلَّم، ويعلِّم ويدعو إلىٰ ما تعلَّمه، إذا سُئل يجيب عمَّا يعلمه بدليله، أو ما يعلَم أحدًا من أهل العلم قاله بيقينٍ في هٰذه المسألة، ينجو بإذن الله، لكن إذا هو فكَّر واجتهد بحسب ما عنده من المعلومات وهو ما عرف الفقه بكماله، ولم يصرْ راسخًا في فهم الدَّليل؛ هٰذا ربَّما نشأ عنه ما جاء في هٰذا الحديث قال: «فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»، وقاني الله وإيَّاكم من عِثار اللِّسان والكلام.

الحديث الثَّاني الَّذي (رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ»)، دالٌّ علىٰ هٰذا الأصل، وهو أنَّ النَّاس سيأتيهم زمنٌ يُقبَض فيه العلم الَّذي هو العلم بالكتاب والسُّنَّة، أو العلم بمعنىٰ العمل الصَّالح، فيأتون إلىٰ المساجد وليس فيهم هدًىٰ، وليس فيهم خشيةٌ ويفعلون أمورهم.(١)

والثَّاني: أهل الأهواء، كما قال ﷻ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴿١٤﴾﴾[محمَّد]، أي: لا يستوي هٰذا وهٰذا، من عنده بيِّنةٌ من ربِّه، ومن زُيِّن له سوء عمله واتَّبع هواه في أمره، أو فيما يأمر به.

نكتفي بهٰذا.

---

(١) هنا سقطٌ يسيرٌ من الشَّريط.

الدَّرس الرَّابع والعشرون

١١- بَابُ

التَّشْدِيدُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ لِلْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ

[١] عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ.(١)

هٰذا الحديث فيه التَّحذير الشَّديد من النِّيَّة الفاسدة في طلب العلم، والواجبُ علىٰ طالب العلم أن يُصلح النِّيَّة، لأنَّ طلب العلم عبادةٌ؛ بل من أجلِّ العبادات الواجبة أو النَّفل، وقبولها ونفع الله جلَّ وعلا به:

شرطها الأوَّل أن تكون النِّيَّة صالحةً يطلبه لله جلَّ وعلا، وهٰذا الحديث فيه ذكر أشياء ممَّا يُفسد النِّيَّة في طلب العلم، يطلب العلم للمراءاة أو للمجاراة، يجاري به السُّفهاء، أو يباهي به طلبة العلم والعلماء، يعني: يكون عنده خبرٌ، وعنده تعاريفٌ أو نحو ذلك، هٰذه نيَّةٌ فاسدةٌ. والنِّيَّة الفاسدة كثيرة الأشكال والصُّور.

أمَّا النِّيَّة الصَّالحة الَّتي يتقبَّل الله جلَّ وعلا بها هٰذا التَّعبُّد لطلب العلم، أن ينوي بطلبه للعلم رفع الجهل عن نفسه، الجهل بمراد الله جلَّ وعلا، فالنِّيَّة الصَّالحة أن ينوي رفع الجهل عن نفسه.

سُئل الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ ما النِّيَّة في طلب العلم؟ قال: **أن تنوي رفع الجهل عن نفسك**.

ثمَّ إذا كان هو سيظنُّ أنَّه سيُعلِّم غيره، ويأمل أنَّه يتعلَّم ليكون مُرشِدًا، ليُعلِّم النَّاس أصول الدِّين، ويعلم النَّاس مبانيه العظام، أو يُرشد أو يُعلِّم أو نحو ذلك؛ فإنَّه تكون نيَّةٌ أخرىٰ مع ذلك: أن ينوي رفع الجهل عن نفسه وعن غيره أيضًا، هٰذه نيَّةٌ صالحةٌ، لأنَّ بعض النَّاس ينوي رفع الجهل عن نفسه، ويأتي يتصدَّر، لكن ما ينوي رفع الجهل عن النَّاس، لكن ينوي – والعياذ بالله – أن يتوجَّه النَّاس إليه، وأن يحضروا درسه، وأن يكون مشهورًا، أو أنَّه إذا اشتهر صار النَّاس يُعطونه، أو يُقبلُون عليه، أو نحو ذلك من النِّيَّات الفاسدة، هٰذا مبطِلٌ لأجره – والعياذ بالله – يتعرَّض به لسخط الله جلَّ وعلا.

إذا كانت النِّيَّة للدُّنيا فعمله مردودٌ يكسب بها دنيا، وقد تكون وبالًا عليه، وقد تكون ممَّا يُباح.

مثل: الآن الطَّلب في الكلِّيَّات الشَّرعيَّة، يدرس في كليَّة الشَّريعة، يدرس في كليَّة أصول الدِّين، في كليَّات شرعيَّة يُطلب فيها العلم الشَّرعيّ، ينوي بها الشَّهادة يصير له بها شهادةٌ ويتوظَّف، ليس له همٌّ في أن يعرِف مراد الله جلَّ وعلا منه، ليس له همٌّ أن يعلم معاني الكتاب والسُّنَّة، أن يرفع الجهل عن نفسه بما بَعث الله به نبيَّه عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام، ليس له همٌّ في معرفة العقيدة الصَّحيحة وما يُضادُّها، ليس له مهمَّةٌ في ذلك وإنَّما أتت هٰذه الأشياء تبعًا لكنَّ نيَّته أن يأخذ الشَّهادة ليتوظَّف ويعيش، فهٰذا نيَّته فاسدةٌ، وعمله مردودٌ وغير متقبَّلٍ منه؛ بل يأثم عليه إذا كان طلبه للعلم في الأشياء الَّتي تجب عليه ثمَّ هو ينوي بها الدُّنيا،

(١) «جامع الترمذي» حديث رقم: (٢٦٥٤)، للحديث أربعة شواهد.

هٰذا – والعياذ بالله – مأزورٌ غير مأجورٍ.

وهٰذه من الأمور الَّتي يحتاج فيها المرء أن يصحِّح قصده بين الحين والآخر، أن تكون نيَّته صالحةً، ما ينوي أنه يتوجَّه النَّاس إليه.

ويظهر هٰذا في أشياء، وهي أنَّه أحيانًا تجد المرء تغلبه نفسه علىٰ أن يكون مؤلِّفًا، وفي أن يكون باحثًا، والأشياء الضَّروريَّة من الدِّين ما تعلَّمها، وإذا تعلَّمها ما يستحضرها دائمًا لينفع بها نفسه، وينفع بها غيره، إذن يكون استكثارًا في شيءٍ ليس مرغوبًا فيه. والله المستعان.

فالواجب الحرص علىٰ تصحيح النِّيَّة، والقلب هو مدار العمل علىٰ ما يكون في القلب من صحَّة النِّيَّة، وصحَّة المتابعة والإخلاص لله جلَّ وعلا وعدم الرَّغبة في توجيه أنظار النَّاس إليه، رضوا النَّاس أم لم يرضوا، أثنوا عليه أم لم يُثنوا، المقصود صلاح القلب فيما بين العبد وبين ربِّه، وأن يكون طلبه للعلم لله، يبارك الله جلَّ وعلا فيه.

النَّاس درجاتٌ منهم من يأخذ من العلم كثيرًا، ومنهم من يأخذ العلم قليلًا، والأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام أيضًا درجاتٌ، ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[البقرة:٢٥٣]، فليس أيضًا ضروريًّا أن يكون طلَّاب العلم كلُّهم في مرتبةٍ واحدةٍ، لأنَّ الله جلَّ وعلا هو الَّذي قسَم هٰذا الشَّيء، فلانٌ عالمٌ حافظٌ في كلِّ فنٍّ، وفلانٌ لا؛ وسطٌ، لكن لا يعني هٰذا أن تكون نيَّته فاسدةً، أمَّا أنَّه ينقطع عن العلم يعطي ما عنده، يعلِّم من يستفيد منه، وسيجد من يفيد، وعلماء السَّلف كانوا علىٰ ذلك، فالصَّحابة في العلم ليسوا علىٰ مرتبةٍ واحدةٍ، لكن كلٌّ علَّم بما عنده، وأئمَّة الإسلام وعلماء الدِّين – أيضًا – لم يكونوا علىٰ مرتبةٍ واحدةٍ، لكنَّ النِّيَّة الصَّالحة في أنَّهم يطلبون العلم لله جلَّ وعلا، وينوون رفع الجهل عن أنفسهم وعن من يلونهم، ويستعينون بالله، ويجاهدون بحسب الإمكان، ولا يقولون علىٰ الله جلَّ وعلا بغير علمٍ، هٰذا الأصل، أن تكون النِّيَّة صالحةً، النِّيَّة تكون طيِّبةً، لا يطلبها للدُّنيا، لا للمماراة، ولا للمجاراة، ولا للرِّياء، ثمَّ في نيَّته وفي عمله يعلِّم بحسب ما يَعْلَم، لا يقْفُ ما ليس له به علمٌ، لا يتجرَّأ، لأنَّه ليس لازمًا أن تتكلَّم في كلِّ شيءٍ، علِّمْ بما تعلم، إذا احتيج إليك، مدرِّسٌ في الكلِّيَّة، في الثَّانوية، مدرِّسٌ في المتوسِّط، مدرِّسٌ في الابتدائي، تأتيك أسئلةٌ لا تعلمها؛ ما فيه شيءٌ يقول الواحد: لا أعلم، أو تبحث وتأثم تفيد، أمَّا التَّباهي المراءاة والكلام في كلِّ شيءٍ بعلم وبغير علمٍ هٰذا ليس من سيما من أصلح الله نيَّته.

... ما يُشكل أوَّل ما طلبه هو وزميله، يتنافسون، من يحفظ، وبعدها لما بدأ في العلم عرف أنَّ أول شيء يأخذه في العلم إ«نما الأعمال بالنيات»، إذا قرأ أول «صحيح البخاري»: «إنما الأعمال بالنيات» إذا قرأ «الأربعين النووية» أولها «إنما الأعمال بالنيات» وهكذا ، عرف أنه لابد من تصحيح النية، فهو يطلبه لغير الله، **طلبنا العلم وليس لنا فيه نية ثم جاءت النية بعد.** الأب يقول لأولاده: ادرسوا، لو فهمهم النية بعضهم يفهم، وبعضهم لا يفهم، ثم بعد ذلك إذا عقل المرء جاءت النية، بعد. هٰذا معنىٰ كلام السلف.

[٢] وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾[الزُّخرف]» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ.(١)

هٰذا حديثٌ عظيمٌ – أيضًا – يحتاجه طلَّاب العلم كثيرًا، وهو قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: («مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ ثُمَّ تَلَا ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾»)، والعلم النَّافع يورث صاحبه السَّكينة والطُّمأنينة، والجدل مذمومٌ، بخلاف المجادلة، فالمجادلة غير الجدل.

فالجدل في الشَّريعة مذمومٌ، وهو: المناقشة والمحاورة والكلام فيما لا ينفع في الشَّريعة، أو المقصود به: التَّعالي.

وأصله مأخوذٌ من لفِّ الحبل، جدل الحبل والشَّعر ونحو ذلك، إذا أُدخل بعضه في بعضٍ، يقال: هٰذه جديلةٌ، يعني: مجدولةٌ، يعني: أُدخِل بعضها في بعضٍ ويُسمَّىٰ الحبل أيضًا: جديلًا، لأنَّه مُدخلٌ بعضه في بعضٍ ومُحكمٌ.

كذلك: الكلام إذا تداخل؛ هٰذا يورد كذا وهٰذا يورد كذا، يُسمَّىٰ مجادلةً، ويُسمَّىٰ جدلًا، فإن كان المقصود منه الحقُّ وليس التَّرفُّع والمقصود منه إدراك الصَّواب سُمِّيت المناقشات: مجادلةً، ولهٰذا أوصىٰ الله جلَّ وعلا في القرآن بالمجادلة بالَّتي هي أحسن، أي المحمودة، قال الله جلَّ وعلا: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾[النَّحل:١٢٥]، وقال جلَّ وعلا أيضًا: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[العنكبوت:٤٦]، فأصل المجادلة مأذونٌ بها بآدابها وشروطها.

أمَّا الجدل، فهو يشتبه مع المجادلة في المعنىٰ، لكن في الشَّريعة جاء ذمُّه في قوله تعالىٰ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ﴾ يعني: ما يطلبون الحقَّ، ولا يريدون زوال الشُّبهة؛ وإنَّما الغرض – الكلام دون رغبةٍ في الحقِّ، ولا صيرورةٍ إليه إذا اتَّضح، ولهٰذا قال جلَّ وعلا – بعدها –: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

فقوله ﷺ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ»، يعني: أنَّ الجدل صفة الضَّالِّين، أنَّهم يتحاورون ويتجادلون في أمرٍ لا ينفع، أو في أمرٍ مضرَّته عليهم ظاهرةٌ، أو في أمرٍ لم يُؤذن لهم فيه، في مسائل القدَر، ومسائل الصِّفات، فيما لم يُؤذن لهم فيه، ومثل مسائل الأفلاك، ونحو ذلك، وأشباه هٰذه المسائل.

فإذًا المباحث العلميَّة تكون لغرض معرفة الصَّواب والحقِّ، أمَّا الكلام الَّذي ليس لأجل معرفة الحقِّ إنَّما هو لمناظراتٍ باطلةٍ، أو التَّرفُّع، أو لإظهار ما عند المرء من قُدُراتٍ هٰذه كلُّها مذمومةٌ.

وهٰذا الَّذي نهىٰ عنه النَّبيُّ ﷺ ببيانه هٰذا صار في هٰذه الأمَّة، وإنَّما نشأت الفرق الضَّالَّة من الجدل، تجادلوا في مسائل الدَّليل فيها واضحٌ، ولو وقفوا علىٰ الدَّليل؛ لكان خيرًا لهم وأحسن تأويلًا.

(١) «جامع التِّرمذي» حديث رقم: (٣٢٥٣)، و«سنن ابن ماجه» (٤٨)، و«مسند أحمد» (٢٢١٦٤- الرِّسالة).

وقد ثبت في الصَّحيح أنَّ النَّبيَّ ﷺ خرج علىٰ الصَّحابة يومًا – وهم يتنازعون في القَدَر – فكأنَّما فُقِئ في وجهه حبُّ الرُّمَّان.[١]

ومرَّةً خرج عليهم وهم يتنازعون في القرآن، كلٌّ يورد آيةً علىٰ مراده وهٰذا ضَرْبٌ للقرآن بعضه ببعضٍ، لأنَّ القرآن مؤتلفٌ غير مختلفٍ، فالمُحكم فيه واضحٌ، والمُتشابه يُرَدُّ إلىٰ المُحكم، والمسائل الَّتي يكون فيها سببٌ للخلاف والاختلاف هٰذه قليلةٌ، فغضب عليه الصَّلاة والسَّلام.

فالمقصود: أنَّ الجدل مذمومٌ، والمرء يتباحث مع إخوانه فيما ينفع، أمَّا إذا رأىٰ أنَّ المسألة توجَّهت للانتصار للنَّفس، وهٰذه تراها معك في جلساتك اليوميَّة، تتباحث مع واحدٍ، تلحظ أنَّه اتَّجه النِّقاش لا إلىٰ المسألة، لكن إلىٰ بيان أنَّ قوله صوابٌ، وهٰذا يدافع عن قوله، وأنا أردت كذا، وهكذا.

فالمرء لا يعين الشَّيطان علىٰ نفسه ولا علىٰ أخيه، لأنَّه ربَّما يقول علىٰ الله بلا علمٍ فيأثم، فيسكت، ولو علِم أنَّه هو المصيب، لأنَّ السُّكوت فيه إعانةٌ له ولأخيه علىٰ الخير.

إذا كانت مجادلةً في بحثٍ علميٍّ المراد منه الإيراد والفهم بدون انتصارٍ للنَّفس، أو تأويلٍ للقول، فأحيانًا الإنسان وهو يتكلَّم يغلط ثمَّ يبدأ يبرِّر غلطه، فيحضر أشياء شرعيَّةً من أجل تبرير غلطه، وهو يعرف في داخل نفسه أنَّه مخطئٌ، نسب شيئًا خطأً، أو قال شيئًا خطأً، وهٰذا عرضةٌ لكلِّ واحدٍ أنَّه يقع فيها، ثمَّ يبدأ يبحث عن أشياء تدلِّل له قال النَّبيُّ ﷺ، وهو أصلًا قال الكلمة الأولىٰ غير متثبِّتٍ منها أو قالها غلطًا ثمَّ أحسَّ أنَّها غلطٌ وما يرغب أنَّه يرجع وهٰذا وهو نوعٌ من الجدل المذموم، ولهٰذا يحذر من أنَّ المرء يتكبَّر عن الحقِّ، فإنَّ هٰذا من مواريث الجدل، ويُسبِّب الضَّلال – والعياذ بالله – أعاننا الله وإيَّاكم علىٰ أنفسنا.

المناقشات والجدال والمباحثات تحتاج إلىٰ تُؤدةٍ، ولهٰذا ما أحسن كلمة الإمام مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قيل له: الرَّجل تكون عنده السُّنَّة أيجادل عليها؟ قال: **لا، يُخبر بالسُّنَّة، فإن قُبلت منه، وإلَّا سكت.** لأنَّ السُّنَّة لها نورٌ، وتقع في قلب المخاطب، فلا تظنَّ أنَّك تضعف بل تقع في قلب خصمك، لأنَّ حجَّتك قويَّةٌ، فإذا كانت الحجَّة قويَّةً ولو لم يستسلم لك، لكن هي تقع في قلبه أنَّك كانت حجَّتك قويَّةً، وتنفع ولو بعد حين.

... مثل العناية بالرِّوايات والأسانيد الَّتي ما لها حاجةٌ، هٰذا علم الحديث الَّذي لا يُحتاج إليه، يبحث عن الأسانيد ويروي بالإجازات ويروح شمال ويمين ويسافر وهو ما ختم كتاب التَّوحيد ويمكن ما حفظ القرآن جيِّدًا، كيف تهتم بالأسانيد وشيخك فلانٌ في سوريا وشيخك فلانٌ في المغرب والثَّاني في الهند والثَّالث في اليمن أو هنا في المملكة أو في أيِّ مكانٍ، هٰذه إذا كانت تشغل عن العلم النَّافع فهي تُترك إنَّما إذا جاءت تبعًا هٰذا ممَّا اعتنىٰ به العلماء؛ لكن إذا كانت تشغل عن العلم النَّافع لأنَّها المقصود منها البركة وبقاء الإسناد هٰذا من علم الحديث الَّذي لا ينتفع به الآن، لهٰذا ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما كان له عنايةٌ

(١) أخرجه ابن ماجه من حديث عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ مرفوعا برقم (٨٥).

بالإجازات، وغمزه -الله يغفر لهم جميعا- الحافظ ابن حجر في «الدُّرر» قال: لم يكن عنده عنايةٌ بصنعة الحديث يعني بالرِّوايات وبالأسانيد؛ لأنَّه حافظٌ هو يحفظ «المسند» ويحفظ كتبًا كثيرةً وألَّف «المسند الجامع» يعني اشتغل بما ينفع، أمَّا الأسانيد فهٰذه ما اهتمَّ لها.

كذلك مثل تخريج الموافقات والمدبَّج ونحو ذلك هٰذه ما لنا حاجةٌ فيها، مثلًا حديث ترويه توافق فيه ابن حجرٍ في العلوِّ ووش الفائدة، أو مثلًا نقرأ في البخاريِّ نذكر لك الإسناد إلىٰ البخاريِّ ما الفائدة، مثل هٰذه الأشياء فيها تكثُّرٌ كونها توجد عند طالب العلم عند العالم طيِّب إذا احتاج إليها لكنَّه يتكثَّر لها ويسعىٰ لها تشغله عن العلم النَّافع وعن التَّعليم النَّافع هٰذه من الأشياء الَّتي تركها أولىٰ. ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ يدخل فيه هٰذا، منها التَّكاثر بكتبٍ لا يحتاجها ومنها التَّكاثر بالأولاد يعني فيه أشياءٌ كثيرةٌ، والله المستعان.

[٣] وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَىٰ اللهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.(١)

هٰذا أيضًا من الآداب العظيمة الَّتي أدَّبنا بها النَّبيُّ ﷺ بأعظم تحذيرٍ وهو أنَّ الرَّجل «الْأَلَدُّ الْخَصِمُ» يعني: الَّذي خصومته شديدةٌ، سواءٌ في العلم أم في غيره، وإذا أراد أحدًا فإنَّه يُلادُّه بالكلام حتَّىٰ يُسقطه، وشديد الخصومة في ألفاظه وأقواله ونحو ذلك، فهٰذا مبْغَضٌ عند الله جلَّ وعلا، الَّذي لا يتكلَّم إلَّا بهٰذه الأمور، ألدُّ خصِمٌ، النَّاس له خصومٌ، كلٌّ من خالفه صار خصمًا له، هٰذا – والعياذ بالله – من صفات المذمومين.

ولا تكون عند أحدٍ ممَّن له نيَّةٌ صحيحةٌ في العلم وطلبه، فهٰذا الحديث يحذِّر كلَّ طالب علمٍ من أن يكون كثير الخصومة، عنده لددٌ في أقواله وخصومته ومعاداته للنَّاس إذا اختلفوا معه، بل المرء فيما يختلف فيه النَّاس يكون علىٰ سعةٍ في الصَّدر وسعةٍ في البال، ولا يجعل من كلِّ اختلافٍ سببًا للخصومة، ولا من كلِّ خلافٍ سببًا للعداوة، واللَّدد والتَّطاول.

نكتفي بهذا ..

... فيجب تبيين الحقِّ، والرَّدُّ علىٰ أهل الباطل، لكن ما يكون فيه الخصومة الَّتي فيها انتصارٌ للنَّفس، يعني: الجدل المذموم، لكنَّ المجادلة بالَّتي هي أحسن، هٰذه مطلوبةٌ، بيان الحقِّ بدليله، والرَّدُّ علىٰ الأقوال المخالفة والشُّبه بالأدلَّة الشَّرعيَّة الواضحة من الكتاب والسُّنَّة وأقوال سلف الأمَّة، هٰذا متعيِّنٌ، من الجهاد، أمَّا الانتصار للنفس وصياغة الرُّدود ليظهر قوَّة المرء إنقاص الآخرين؛ هٰذه مقاصد فاسدةٌ.

---

(١) «صحيح البخاري» حديث رقم: (٢٤٥٧)، «صحيح مسلم» حديث رقم: (٢٦٦٨).

الدَّرس الخامس والعشرون

[٤] وعَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِأَرْبَعٍ دَخَلَ النَّارَ - أَوْ نَحْوَ هٰذِهِ الْكَلِمَةِ - لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَوْ لِيَأْخُذَ بِهِ مِنَ الْأُمَرَاءِ. رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ. (١)

[٥] وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ لِقَوْمٍ سَمِعَهُمْ يَتَمَارَوْنَ فِي الدِّينِ: أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ لِلهِ عِبَادًا أَسْكَتَتْهُمْ خَشْيَةُ اللهِ مِنْ غَيْرِ صَمَمٍ وَلَا بَكَمٍ، وَإِنَّهُمْ لَهُمُ الْعُلَمَاءُ وَالْفُصَحَاءُ وَالطُّلَقَاءُ وَالنُّبَلَاءُ. الْعُلَمَاءُ بِأَيَّامِ اللهِ، غَيْرَ أَنَّهُمْ إِذَا تَذَكَّرُوا عَظَمَةَ اللهِ طَاشَتْ عُقُولُهُمْ وَانْكَسَرَتْ قُلُوبُهُمْ، وَانْقَطَعَتْ أَلْسِنَتُهُمْ، حَتَّىٰ إِذَا اسْتَفَاقُوا مِنْ ذَلِكَ تَسَارَعُوا إِلَىٰ اللهِ بِالْأَعْمَالِ الزَّاكِيَةِ، يَعُدُّونَ أَنْفُسَهُمْ مَعَ الْمُفَرِّطِينَ، وَإِنَّهُمْ لَأَكْيَاسٌ أَقْوِيَاءُ، وَمَعَ الضَّالِّينَ وَالْخَطَّائِينَ وَإِنَّهُمْ لَأَبْرَارٌ بُرَءَاءُ، أَلَا إِنَّهُمْ لَا يَسْتَكْثِرُونَ لَهُ الْكَثِيرَ، وَلَا يَرْضَوْنَ لَهُ بِالْقَلِيلِ، وَلَا يُدِلُّونَ عَلَيْهِ بِأَعْمَالِهِمْ حَيْثُ مَا لَقِيتَهُمْ مُهْتَمُّونَ مُشْفِقُونَ، وَجِلُونَ خَائِفُونَ. رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ. (٢)

[٦] قَالَ الْحَسَنُ وَسَمِعَ قَوْمًا يَتَجَادَلُونَ: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مَلُّوا الْعِبَادَةَ، وَخَفَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ، وَقَلَّ وَرَعُهُمْ فَتَكَلَّمُوا. (٣)

الحمد لله وبعد:

هٰذه الأحاديث في آخر «كتاب أصول الإيمان» يبيِّن فيها الإمام المجدِّد الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ما ينبغي لطالب العلم أن يتحلَّىٰ به من الأخلاق والآداب الواجبة والمُستحبَّة، فذكر من الآثار شيئًا كثيرًا، ومنها قول عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِأَرْبَعٍ دَخَلَ النَّارَ - أَوْ نَحْوَ هٰذِهِ الْكَلِمَةِ - لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَوْ لِيَأْخُذَ بِهِ مِنَ الْأُمَرَاءِ) وهٰذه المقاصد كلُّها خلاف النِّيَّة الصَّحيحة والقصد الصَّحيح في طلب العلم، فمن طلب العلم للدُّنيا كان داخلًا في قول الله جلَّ وعلا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[هود]، فالَّذي يعمل العمل الصَّالح لغير الله، أو يريد به الدُّنيا - وهو ممَّا يُراد به وجه الله جلَّ وعلا - فهٰذا متوعَّدٌ بالنَّار، لهٰذا قال هنا - من فهمه للآية وعلمه بالقرآن - قال: (مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِأَرْبَعٍ دَخَلَ النَّارَ)، لا يُقال هٰذا من قبيل المرفوع لأنَّه ممَّا لا يُقال بالاجتهاد، لأنَّ هٰذا يُقال بالاجتهاد، وهو أنَّه أخذه من فهمه للآية، لأنَّ طلب العلم لمباهاة العلماء، يعني ليكون بهيًّا بين العلماء، وليُذكر بين العلماء، فإنَّ هٰذا طلبٌ لغير الله، وكذلك نشر العلم لأجل أن يُنظر إليه، أو لأجل أن تنصرف وجوه النَّاس إليه؛ هٰذه نيَّةٌ فاسدةٌ، إنَّما النِّيَّة الصَّالحة في طلب العلم: أن يكون لله رغبةً فيما عنده، وأن يرفع الجهل بذلك عن نفسه بطلبه للعلم.

---

(١) «سنن الدارمي» حديث رقم (٣٧٣) وفي إسناده مجهول. وله شواهد.

(٢) «الحلية» (١/ ٣٢٥) تحت رقم (١١٨١).

(٣) «الحلية» لأبي نعيم (٢/ ١٥٦) برقم (١٩٠٠).

فهٰذه المقاصد من مقاصد الدُّنيا؛ إذا كان قصده مباهاة العلماء، وأن يُذكر بين العلماء، وأنَّه إذا جلس بين العلماء إذا عنده مسائل، وإذا هو يفهم في العلم؛ هٰذا قصدٌ سيِّئٌ، وليس قصد الخائفين من الله المتقرِّبين إليه بطلبهم للعلم.

كذلك: (أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ) يعني: ليردَّ به علىٰ كلِّ سفيهٍ تكلَّم، أو يكون ذا جدالٍ في المسائل مع كلِّ سفيهٍ ممَّن يُحسن ولا يُحسن، ممَّن يتكلَّمون بغير علمٍ، ويتجرَّأون علىٰ الحقِّ، هؤلاء هم السُّفهاء، فمماراة السُّفهاء خلاف السُّنَّة، إذا كان يقصد أنَّه إذا جاء أحدٌ فإنَّه يُظهر نفسه فيماري هٰذا وهٰذا؛ هٰذا خلاف النِّيَّة الصَّحيحة والقصد الصَّحيح، لأنَّه يطلب العلم لله جلَّ وعلا، إذا احتاج بعد ذلك إلىٰ ردِّ منكرٍ، أو إلىٰ ردِّ قولٍ من الأقوال الباطلة؛ فهٰذا واجبٌ عليه أو مستحبٌّ بحسب الحال، لكن يطلبه ليحصل له ذلك، يطلبه ليتحدَّث في الجرائد، أو ليكون ذا كتاباتٍ، أو ليظهر في الشَّاشات، أو نحو ذلك، ويكون عنده خبرٌ، أو قد يكون طلبه للعلم لمنشئه أصلًا، وقد يكون طلبًا للعلم الزَّائد هو يطلب العلم ليستكثر لا لأجل التَّعبُّد ولكن لأجل أن تنصرف وجوه النَّاس إليه بالزِّيادة وهو غير مريدٍ لوجه الله، أو يريد أن يماري فلانًا وفلانًا ويردَّ ويصير ذا ثقافةٍ وعلمٍ بين النَّاس، وهو في داخله غير متعبِّدٍ لله بذلك، نسأل الله العافية والسَّلامة.

أو ليترزَّق به، يعني ليدخل علىٰ الأمراء، ويُقال هٰذا عنده علمٌ، وكذا، فيُعطىٰ لأجل ذلك، وهٰذا نيَّته، وهٰذه كلُّها مقاصد فاسدةٌ.

ومن أحسن ما يُذكر في هٰذا من مقاصد العلماء المحمودة، ما ذكره أحد تلامذة الحافظ عبد الرَّحمٰن بن أحمد بن رجبٍ زين الدِّين حيث قال: كنَّا مرَّةً في مجلس شيخنا بعد صلاة الصُّبح، وذكر مسألةً من المسائل الفقهيَّة من غرائب المسائل وفصَّل فيها القول، وذكر أقوال العلماء والفقهاء والتَّخريج.. إلىٰ آخر ذلك، ممَّا تعجَّبْنا منه ومن حافظته وحسن استخراجه، قال: ثمَّ دُعينا ذلك اليوم مع شيخنا في مجلسٍ فيه عددٌ من القضاة ومن أكابر العلماء، قال: فذُكرت المسألة، فلم يُحسنوا الكلام عليها، وكان شيخنا ساكتًا وودنا لو أنَّه تكلَّم حتَّىٰ يظهر فضله، ثمَّ لمَّا انصرفنا ذكرنا له سكوته، فقال: هٰذا مجلسٌ يُراد للدُّنيا، ومجلسي معكم يُراد للآخرة.

وهٰذا ظاهرٌ في كثيرٍ من المباحث الَّتي تجري وليس المقصود منها الفائدة في المجالس العامَّة، وفي مخالطة النَّاس لا يكون القصد الفائدة، المقصد المراء، هٰذا يُظهِر علمه وهٰذا يُظهر علمه، وليس المقصود تحقيق المسألة وإفادة الحاضرين وأشباه ذلك ممَّا يوجب السُّكوت.

الأثر الثَّاني قال فيه: (وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ لِقَوْمٍ سَمِعَهُمْ يَتَمَارَوْنَ فِي الدِّينِ: أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ للهِ عِبَادًا أَسْكَتَتْهُمْ خَشْيَةُ اللهِ مِنْ غَيْرِ صَمَمٍ وَلَا بَكَمٍ) وظاهر السِّياق وطول الرِّواية يدلُّ علىٰ ضعفه، يعني: وعدم صحَّته عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ لكنَّه متضمِّنٌ لمعانٍ صحيحةٍ، وهي: أنَّ طالب العلم والعالم أعظم ما يزيِّنه خشية الله جلَّ وعلا، والخوف منه فيما بينه وبين ربِّه، فإنَّ هٰذا سببٌ من أسباب حبِّ الله جلَّ وعلا وأيضًا سببٌ من أسباب ثبات العلم في صدره وانتفاعه بالعلم، لأنَّ هؤلاء إذا تذكَّروا عظمة الله جلَّ وعلا صار

لهم في قلوبهم انكسارٌ وإسراعٌ في مرضاة الله جلَّ جلاله، وهٰذا يظهر في مسائل منها: النُّطق بالحقِّ في وقتٍ يُحتاج فيه إلىٰ النُّطق بالحقِّ في المسائل العظام الَّتي تُحتاج في الدِّين، ويقوم فيها العلماء مقام الأنبياء في التَّذكير بحقِّ الله جلَّ وعلا، وبتوحيده وردِّ الإشراك به وأشباه ذلك من الدَّعوة إلىٰ السُّنَّة وترك البدعة وتحليل الحلال وتحريم الحرام، فإنَّه من تذكَّر عظمة الله جلَّ وعلا وقرَّت في صدره من العلماء هانَ عليه الخلق ولم يأبه بهم، هٰذا صنيع الأئمَّة في الدِّين وذوي المقامات العالية الَّذين شغلت قلوبُهم عظمة الله جلَّ وعلا فلم ينظروا إلىٰ رضىٰ الرَّاضي وإلىٰ سخط السَّاخط، بخلاف من ينظرون إلىٰ أهل الدُّنيا فيتزلَّفون لهم بالأقوال الَّتي يعلمون أنَّها مخالفةٌ للشَّرع أو يعلمون أنَّها مخالفةٌ لما يجب أن يقولوه لهم؛ لكن تزلَّفوا إليهم بهٰذه الأقوال، وهٰذا كثيرٌ جدًّا وحصل من الوقائع المعروفة في الماضي وفي الحاضر، نسأل الله العافية والسَّلامة.

فإذن الواجب علىٰ طالب العلم أن يكون همُّه إصلاح قلبه وإصلاح ما بينه وبين ربِّه وخوف الرَّبِّ جلَّ جلاله لأنَّ هٰذا مدعاةٌ لانتفاعه بعلمه وثباته عليه، والله جلَّ وعلا يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾[النِّساء].

أمَّا الأثر أو الخبر الثَّالث: قال (قَالَ الْحَسَنُ وَسَمِعَ قَوْمًا يَتَجَادَلُونَ: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مَلُّوا الْعِبَادَةَ، وَخَفَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ، وَقَلَّ وَرَعُهُمْ فَتَكَلَّمُوا). المجادلة لا تُحمد -كما ذكرنا لكم سابقًا- إلَّا إذا كانت لبيان الحقِّ، أمَّا المُجادلة للمُغالبة ولإظهار العلم فهٰذا قصدٌ سيِّءٌ، وبعدها يكون قسوةٌ في القلب ولا بدَّ، وتحدث المراء والشَّحناء في النُّفوس.

ولهٰذا ينبغي علىٰ طالب العلم أن لا يشتغل بالمجادلة الَّتي ليس المقصود منها الوصول إلىٰ الحقِّ، فإذا تناقشت مع أحدٍ – حتَّىٰ لو كان من طلبة العلم، أو من إخوانك أو من زملائك – فلا تفتح سبيلًا للشَّيطان، النِّقاش لبيان حكم المسألة لبيان الحقِّ فيها، فإذا تحوَّل النِّقاش إلىٰ مجادلةٍ؛ فخيرهما الَّذي يصمت، لأنَّها ما صارت لبيان الحقِّ، أمَّا إذا كانت لبيان الحقِّ والوصول إليه، ويتباحثون في وجه الاستدلال بالدَّليل إيراد الأدلَّة ونحو ذلك، أمَّا هٰذا ينتصر لرأيه وهٰذا ينتصر لرأيه بقصد المغالبة فخيرهما الَّذي يسكت، ولهٰذا قال الحسن هنا في القوم الَّذين يتجادلون: (هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مَلُّوا الْعِبَادَةَ، وَخَفَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ، وَقَلَّ وَرَعُهُمْ فَتَكَلَّمُوا).

(مَلُّوا الْعِبَادَةَ) أي: العبادة بنشر العلم والعبادات المعروفة، (فأكثروا الكلام)، لأنَّهم ملُّوا الخير، الكلام الَّذي نشأ في عهد الحسن، إمَّا من النِّقاشات في العقيدة، أو ممَّا هو ليس مقصودًا به الحقُّ، وإنَّما المغالبة.

هٰذه آدابٌ مهمَّة لطالب العلم، إذا تركها أصيبت مقاتله ولا بدَّ.

١٢- بَابُ
التَّجَوُّزُ فِي الْقَوْلِ وَتَرْكُ التَّكَلُّفِ وَالتَّنَطُّعِ

[١] وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْحَيَاءُ وَالْعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْبَذَاءُ وَالْبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ النِّفَاقِ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ. (١)

[٢] وَعَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَسَاوِئُكُمْ أَخْلَاقًا الثَّرْثَارُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ». رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ»(٢). وَلِلتِّرْمِذِيِّ نَحْوُهُ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (٣)

[٣] وعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَخْرُجَ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ كَمَا تَأْكُلُ الْبَقَرُ بِأَلْسِنَتِهَا». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ. (٤)

[٤] وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ بِلِسَانِهَا». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ. (٥)

[٥] وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَعَلَّمَ صَرْفَ الْكَلَامِ لِيَسْبِيَ بِهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ أَوِ النَّاسِ لَمْ يَقْبَلِ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ. (٦)

[٦] وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ كَلَامُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَصْلًا يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ،(٧) وَقَالَتْ: كَانَ يُحَدِّثُنَا حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ لَأَحْصَاهُ. (٨) وَقَالَتْ: إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الْحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ. (٩) رَوَىٰ أَبُو دَاوُدَ بَعْضَهُ.

[٧] وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْعَبْدَ يُعْطَىٰ زُهْدًا فِي الدُّنْيَا وَقِلَّةَ مَنْطِقٍ

---

(١) «جامع الترمذي» حديث رقم: (٢٠٢٧).

(٢)«شعب الإيمان» للبيهقي، حديث رقم: (٤٩٦٩)، وإسناده منقطع، مكحول لم يسمع من أبي ثعلبة.

(٣) «جامع الترمذي» حديث رقم: (٢٠١٨). قال الترمذي: حسن صحيح.

(٤) «مسند أحمد» حديث رقم: (١٥٩٧-الرِّسالة) وأورده الألباني في «الصَّحيحة» برقم:(٤٢٠) وقال: جملة القول: أن الحديث بهذه الطرق حسن إن شاء الله أو صحيح، فإن له شاهدا من حديث عبد الله بن عمرو. ولم أجد الحديث في «سنن أبي داود » و«الترمذي».

(٥) «جامع الترمذي» حديث رقم: (٢٨٥٣)، و«سنن أبي داود» حديث رقم: (٥٠٠٥)، قال الترمذي: حسن غريب، أورده الألباني في «الصحيحة» برقم: (٨٨٠).

(٦)«سنن أبي داود» حديث رقم: (٥٠٠٦).

(٧)«سنن أبي داود» حديث رقم: (٤٨٣٩).

(٨) رواه مسلم في «صحيحه» برقم: (٢٤٩٣).

(٩) رواه البخاري برقم: (٣٥٦٨)، ومسلم برقم: (٢٤٩٣).

فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلَقَّىٰ الْحِكْمَةَ». رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ». (١)

[٨] وَعَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا، وَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ جَهْلًا، وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكَمًا، وَإِنَّ مِنَ الْقَوْلِ عِيَالًا». (٢)

[٩] وَعَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ يَوْمًا وَقَامَ رَجُلٌ فَأَكْثَرَ الْقَوْلَ فَقَالَ عَمْرٌو: لَوْ قَصَدَ فِي قَوْلِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَقَدْ رَأَيْتُ أَوْ أُمِرْتُ أَنْ أَتَجَوَّزَ فِي الْقَوْلِ فَإِنَّ الْجَوَازَ هُوَ خَيْرٌ». رَوَاهُمَا أَبُو دَاوُدَ. (٣)

آخِرُهُ، وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَمْدًا كَثِيرًا.

الحمد لله..

هٰذا الباب هو آخر أبواب هٰذا الكتاب في بيان الصِّفات المحمودة في القول وفي تبليغ أصول الدِّين، وفي تبليغ العلم وما ينفع النَّاس، فذكر فيها أحاديث وآثارًا:

منها قوله: (عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْحَيَاءُ وَالْعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْبَذَاءُ وَالْبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ النِّفَاقِ») والشَّاهد منه: أنَّ العِيَّ شعبةٌ من الإيمان، والعِيُّ هو الضَّعف أو عدم التَّمكُّن من الإفصاح عن كلِّ ما يريد، وهٰذا محمودٌ ومن الإيمان باعتبار أنَّ خوفه من الغلط وخوفه من أن يقول علىٰ الله بلا علم؛ جعله يكون كأنَّه ذو عِيٍّ، ينقطع في كلامه ولا يتواصل كلامه لأجل تحرُّزه وتحرُّسه من أن ينطق بشيءٍ يغلَط فيه علىٰ الشَّريعة، أو أن يقول علىٰ الله بلا علم.

فالعيُّ مذمومٌ عند بلغاء العرب وعند خطباء العرب وقد قال شاعرهم:

أعـــذني ربِّـــي مـــن حَصْـــر وعِـــيٍّ ... ومـــن نفـــس أعالجهـــا علاجًـــا

الحصر والعيُّ متقاربةٌ، لكن هنا مدحها – في هٰذا الحديث –لأنَّه في الظَّاهر عيٌّ ولا يسترسل في الكلام كأنَّ معلوماته ليست جيِّدةً، أو كأنَّه ليس وقَّاد الذِّهن ولا سيَّال اللِّسان، لكن في الواقع إنَّما حجزه عن ذلك الخوف أن يقول علىٰ الله بلا علم، لهٰذا صار العِيُّ إيمانًا بهٰذا الاعتبار.

قال: (وَعَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَسَاوِئُكُمْ أَخْلَاقًا الثَّرْثَارُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ».) الشَّاهد منه: أنَّ ممَّن يبغضه رسول الله ﷺ كثير الكلام الثَّرثار.

المتشدِّق: الَّذي يخرج كلامه من شدقه تفاصحًا وتعالمًا باللُّغة ومخارج الحروف.

والمتفيهق: الَّذي إذا تكلَّم فكأنَّه متمكِّنٌ من كلِّ شيءٍ، يفتح فاه ويبالغ في إخراج الصَّوت وإخراج...

وهؤلاء مذمومون، لأنَّ هٰذه صفاتٌ ليست بصفاتٍ محمودةٍ لمن تواضع لله جلَّ وعلا، فأنبياء الله جلَّ

---

(١) «شعب الإيمان» للبيهقي، حديث رقم: (٤٩٨٥) وأورده الألباني في «الضعيفة» برقم: (١٩٢٣).

(٢) «سنن أبي داود» حديث رقم: (٥٠١٢).

(٣) «سنن أبي داود» حديث رقم: (٥٠٠٨).

جلاله كانوا محمودين، وكان منهم الخطيب، ومنهم من يعثَر في كلامه كموسىٰ عليه السَّلام، ومع ذلك لم يمنع ذلك من التَّبليغ، لأنَّ المقصود ما اشتمل عليه الكلام من الحقِّ، والنَّبيُّ ﷺ كان كلامه كلام المتواضع، يقول الكلام - مثل ما جاء في الحديث الَّذي سيأتي - حتَّىٰ لو أنَّ العادَّ أراد أن يعدَّه عدَّه، يكرِّر الكلام حتَّىٰ يفهم ويختصر الكلام، وجُمع له الكلام واختُصر له اختصارًا، لأجل أنَّ كثرة الكلام والثَّرثرة وتفصيل ذلك أنَّه ليس بالمحمود.

وهٰذا كما يدخل في العلم ؛ يدخل في المواعظ، فالعلم الَّذي لا ينفع النَّاس، كثرة الكلام الَّذي لا ينفع النَّاس بل تُظهر فضل المتكلِّم فقط؛ هٰذه مذمومةٌ، لأنها ما دام أنها لا تنفع النَّاس؛ فالأفضل ألَّا تُقال.

قال (رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الإِيمَانِ»)، ومعروفٌ أنَّ هٰذا الحديث له أصلٌ في الصَّحيح بدون هٰذه الزِّيادة.

قال: (وعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَخْرُجَ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ كَمَا يَأْكُلُ الْبَقَرُ بِأَلْسِنَتِهَا». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ.) هٰذا فيه ذمٌّ لهؤلاء، وصفتهم في أنَّهم يأكلون بألسنتهم كما تأكل البقر بألسنتها، يعني أنَّهم إذا تكلَّموا طلبوا الأجر علىٰ كلامهم فيما يقولون، لا يحرِّكون اللِّسان إلَّا بثمنٍ، والأصل في الدِّين وفي العلم وفي تبليغ الدَّعوة أنَّها تكون لله بلا أجرٍ، كما قال جلَّ وعلا لنبيِّه عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾[ص]، فالَّذين يأكلون بألسنتهم، كلَّ ما تكلَّموا لا بدَّ من أجرٍ، لا يبلِّغون دعوةً إلَّا بأجرٍ، ولا يبلِّغون علمًا إلَّا بثمنٍ، ولا يقولون آيةً إلَّا بثمنٍ، إن أُعطوا رضوا، وإن لم يعطوا إذا هم يسخطون، هؤلاء مذمومون لأجل نيَّتهم وعدم رعايتهم للحقِّ في وجوب التَّعبُّد بذلك إذا كان عندهم علمٌ، وذُمُّوا في هٰذا الحديث وشُبِّهوا بالبقر الَّتي تلوك بألسنتها وتأكل بألسنتها.

أمَّا قوله: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ»، هٰذا يفيد الذَّمَّ، لكنَّ لفظ «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ» نبَّهناكم عليه فيما مضىٰ، أنَّه في الأحاديث لا تقتضي مدحًا ولا ذمًّا، فقد يكون ما أخبر به النَّبيُّ ﷺ أنَّه لا تقوم السَّاعة حتَّىٰ يحصل كذا، قد يكون مباحًا، وقد يكون مكروهًا ن وقد يكون مُحرَّمًا، فلفظ «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ» ليس من الألفاظ الَّتي يُستفاد منها الحكم التَّكليفيُّ؛ بل قد يكون هٰذا، وقد يكون هٰذا، بحسب الفعل في نفسه.

مثلًا: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا**»،[1] هٰذا ليس فيه ذمٌّ لهٰذا الفعل ولا مدحٌ له، ولا يُستفاد منه الكراهة... إلخ، بل بحسب الحال.

«**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَتَبَاهَىٰ النَّاسُ بِالْمَسَاجِدِ**»،[2] ما نستفيد من قوله: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ**» إباحة التَّباهي أو كراهة التَّباهي، أو حرمة التَّباهي، وإنَّما نستفيده بدليلٍ خارجٍ، نستفيد حكم المباهاة والتَّباهي بدليلٍ خارجٍ، التَّباهي بالمساجد مكروهٌ أو مُحرَّمٌ بحسب الحال.

(١) سبق تخريجه (ص٤٠).

(٢) رواه ابو داود (٤٤٩)، والنسائي (٦٨٩)، وابن ماجه (٧٣٩) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهكذا في أمثلةٍ كثيرةٍ، قد يكون كفرًا «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ حَوْلَ ذِي الْخَلَصَةِ**»،[1] هٰذا كفرٌ وشركٌ.

فإذًا قول النَّبيِّ ﷺ في الأحاديث «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ**»، لا يُستفاد منه المدح ولا الذَّمُّ، ولا يُستفاد منه الإباحة أو الكراهة أو التَّحريم أو الوجوب أو نحو ذلك ، يعني: أيُّ حكمٍ تكليفيٍّ، وإنَّما هٰذا وصفٌ كاشفٌ لشرطٍ من أشراط السَّاعة الصُّغرىٰ.

وفي المعنىٰ الأحاديث التَّالية وهو قوله: (وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللهَ يَبْغَضُ الْبَلِيغَ مِنْ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ بِلِسَانِهَا».

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَعَلَّمَ صَرْفَ الْكَلَامِ لِيَسْبِيَ بِهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ أَوْ النَّاسِ لَمْ يَقْبَلِ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا».) يعني الَّذي يتعلَّم حسن الكلام والمنطق والخطابة، وكيف يحاضر، وكيف يلقي العلم، ولا يقصد نشر الحقِّ ولا تعبيد النَّاس لربِّ العالمين، وإنَّما مقصده أن يلتفت النَّاس إليه ويُعجبوا به، ويكون له شأنٌ، ويكسب المال، هٰذا – أعوذ بالله – مقصدٌ من أسوأ المقاصد، ولهٰذا قال هنا في عقوبته: «**لَمْ يَقْبَلِ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا**»، لأجل بشاعة جرمه في أنَّه ما نشر الحقَّ إلَّا لأجل أن يسبي به قلوب الرِّجال، يُثنىٰ عليه، ما هٰذا الخطيب! المحاضر، والشَّيخ، والمُدرِّس، وهٰذا راعي المنطق، ويتعلَّم الأمثلة والأدلَّة ويتحفَّظها، ويتحفَّظ أيضًا القصص والحكايات، وليس قصده من ذلك التَّأثير علىٰ قلوب النَّاس، ونفع النَّاس وتعبيدهم لله ؛ إنَّما القصد أن يلتفت النَّاس إليه، هٰذا من المذمومين والعياذ بالله.

(وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ كَلَامُ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَلَامًا فَصْلًا يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ، وَقَالَتْ: كَانَ يُحَدِّثُ حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ لَأَحْصَاهُ. وَقَالَتْ: إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الْحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ.) سرد الحديث مدعاةٌ للإكثار، والتَّأنِّي سببٌ للإقلال، ولهٰذا كان التَّأنِّي محمودًا، وكان السَّرد مكروهًا، والنَّبيُّ ﷺ كان يتأنَّىٰ، ونتيجة تأنِّيه عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام أنَّ كلامه كان معدودًا يُفهم يحصيه العادُّ ويستوعبه ويفهمه ويحفظه.

والثَّاني: أنَّ كثرة الكلام تجعل بعض الكلام يُنسي بعضه بعضًا، ويذهب هٰذا بذاك.

لهٰذا كانت عائشة رضي الله عنها تقول لعبيد بن عميرٍ: يا عبيد بن عميرٍ! إذا وعظت فأوجز، فإنَّ كثير الكلام يُنسي بعضه بعضًا. يعني: فإنَّ الكلام الكثير يُنسي بعضه بعضًا، وهٰذا نشاهده في الخطب، خطب الجمعة إذا طالت؛ تجد أنَّك مسكت الموضوع، لكن بعد ذلك، إذا طالت الخطبة دخل بعضها في بعضٍ، حتَّىٰ لو أردت أن تنقلها لم تحسن نقلها، إيش تكلَّم عنه الخطيب، تريد أن تنقل شيئًا بأدلَّته، بوضوحه، ما تستطيع أن تنقل خطبة الجمعة، وهي من مقاصد خطبة الجمعة عظة النَّاس، المرء ينقلها إلىٰ أهل بيته، ينقلها إلىٰ من يستفيد.

فإذا كثُر الكلام أنسىٰ بعضه بعضًا، لهٰذا عليه الصَّلاة والسَّلام كان كلامه قليلًا ليُحفظ، ولأنَّه أوتي

---

(١) رواه البخاري برقم: (٧١١٦)، ومسلم برقم: (٢٩٠٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

جوامع الكلم، ويحصل هٰذا بالتعَوُّد، الَّذي يتعوَّد علىٰ قلَّة الكلام؛ يحصل له ذلك، ويكون أنفع له، لأنَّه يتعلَّم الكلمات المؤثِّرة، حتَّىٰ يؤثِّر في عقله وفهمه، يعني بعد ذلك، إذ قرأ العلم يذهب علىٰ المفيد، ما يهتمُّ بالتَّفاصيل الَّتي لا تنفعه.

ومن العلماء الَّذين أدركنا وكانت فيهم هٰذه الصِّفة سماحة الشَّيخ محمَّد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ، كان كلامه قليلًا يُحفظ ويسيرًا، وكذلك الشَّيخ العلَّامة عبد الرَّزاق عفيفي رَحِمَهُ اللَّهُ، كان أيضًا كلامه قليلًا يُحفظ.

هٰذه من الصِّفات الطَّبيعيَّة الَّتي تكون في الإنسان، وربَّما كانت بالدُّربة، لهٰذا دلَّ قول عائشة: (لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الْحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ)، أنَّ سرد الحديث من الطَّبائع الَّتي يتجاوز الله جلَّ وعلا عنها، لأنَّها من طبيعة الإنسان، طبيعته أنَّه يسرع في الكلام، طبيعته أنَّ كلامه فيه سرعةٌ، فيه سردٌ، وآخر طبيعته التَّأنِّي، لكن من طبيعته التَّأنِّي محمودٌ وممدوحٌ، لشبهه برسول الله ﷺ، أو لاقتدائه برسول الله ﷺ.

الحديث التَّالي: (وَعَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا، وَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ جَهْلًا، وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حُكْمًا، وَإِنَّ مِنَ الْقَوْلِ عِيَالًا».) الشَّاهد منه قوله: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا... وَإِنَّ مِنَ الْقَوْلِ عِيَالًا».

«إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا» يعني: أنَّ تقليل الكلام بجوامعه وبيانه المفيد يسحر القلوب، ويفعل فيها فعل السِّحر، وهٰذا فيه – علىٰ الصَّحيح – فيه مدحٌ للبيان الَّذي معه تقليل الكلام.

ومن أهل العلم من حمل قوله –عليه الصَّلاة والسَّلام–: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا» علىٰ الذَّمِّ، وهٰذا متَّجهٌ إذا كان البيان يقلب الحقَّ، ولحسن بيانه يظنُّ الظَّانُّ أنَّه مصيبٌ، وهو في الواقع مخالفٌ للحقِّ، فهٰذا يكون مذمومًا.

أمَّا قوله: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا»، فيما يكون البيان مؤثِّرًا في النُّفوس مع قلَّةٍ في الكلام وبلاغةٍ وإيجازٍ، كما كان عليه حال النَّبيِّ ﷺ، فإنَّ الكلام يَسْبِي القلوب.

السِّحر يُفعل، والإنسان بالسِّحر يُسْبَىٰ قلبه، فيُحبُّ من لم يكن يحبُّه، ويتعلَّق بمن لم يكن يتعلَّق به لأجل تأثير السِّحر علىٰ قلبه بغير إرادته، وكذلك البيان والكلام فإنَّه يُؤثِّر في النُّفوس بحيث يتعلَّق قلب النَّاس بهٰذا لأجل كلامه وبيانه، ففعله في النُّفوس فِعْل السِّحر في القلوب، وهٰذا إذا كان لنصرة الحقِّ وبيانه والتَّحبيب فيه والتَّعبُّد لله جلَّ وعلا؛ فهو محمودٌ، والنَّبيُّ ﷺ كان بيانه معلِّقًا للقلوب به – عليه الصَّلاة والسَّلام.

ثمَّ ذمَّ القول الَّذي ليس فيه فائدةٌ فقال: «وَإِنَّ مِنَ الْقَوْلِ عِيَالًا»، يعني أنَّ من القول ما لا يُستفاد منه، وما لا فائدة فيه.

والحديث الأخير قال: (وَعَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ يَوْمًا وَقَامَ رَجُلٌ فَأَكْثَرَ الْقَوْلَ فَقَالَ عَمْرٌو: لَوْ قَصَدَ فِي قَوْلِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُ)، (لَوْ قَصَدَ فِي قَوْلِهِ)، القصد في القول يعني أن يصل إلىٰ المقصود بأقصر عبارةٍ، يكون مقتصدًا في القول، يعني مقلِّلًا الكلام واصلًا إلىٰ مقصوده بأقصر عبارةٍ.

(خَيْرًا لَهُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَقَدْ رَأَيْتُ أَوْ أُمِرْتُ أَنْ أَتَجَوَّزَ فِي الْقَوْلِ فَإِنَّ الْجَوَازَ هُوَ

خَيْرٌ».) يعني أن يقلِّل الكلام؛ لأنَّ تقليل الكلام -كما ذكرت- لك مدعاةٌ لحفظه ومدعاة للتَّواضع ومدعاةٌ لخيرٍ كثيرٍ، لهٰذا قال: «فَإِنَّ الْجَوَازَ هُوَ خَيْرٌ».

وهٰذا ختام كتاب أصول الإيمان.

أسأل الله جلَّ وعلا أن ينفعني وإيَّاكم به وأن يجزي عنَّا وعن المسلمين خير الجزاء الإمام الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، فإنَّ كتبه ومؤلَّفاته كانت امتثالًا لهٰذه الوصايا الأخيرة، كانت قليلة الكلام فيها فوائد قليلةٌ، لم يكن يحبُّ أن يكثر التَّآليف الَّتي لا ينتفع منها إلَّا القلَّة، والتَّآليف موجودةٌ، والكتب الكبيرة موجودةٌ، فاشتغل رَحِمَهُ اللَّهُ بالتَّصنيف الَّذي ينفع النَّاس وينشر الدَّعوة، ويثبت الخير، مقتديًا بهٰذه الخلال الكريمة، والخصال الجميلة الَّتي أُمر بها المؤمنون، رَحِمَهُ اللَّهُ رحمةً واسعةً.

ثمَّ نصلِّي ونسلِّم علىٰ خيرة خلق الله الرَّحمة المهداة، محمَّد بن عبد الله عليه الصَّلاة والسَّلام، فهو الَّذي هدىٰ الله جلَّ وعلا به العباد إلىٰ الخير العظيم، فأنقذهم الله به من الغُمَّة والضَّلالة والكفر والرَّدىٰ إلىٰ النُّور والإيمان وسعة الصُّدور وانشراح القلب، فله – عليه الصَّلاة والسَّلام – أعظم الفضل وأعظم المنَّة علىٰ من اتَّبعه.

اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم عليه وآته الوسيلة والفضيلة، وابعثه اللَّهمَّ مقامًا محمودًا الَّذي وعدته.

اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم علىٰ محمَّدٍ كلَّما صلَّىٰ عليه المصلُّون، وكلَّما غفل عن الصَّلاة عليه الغافلون.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

نكتفي بهٰذا إن شاء الله ونلقاكم فيما نستقبل برحمة الله وفضله إن شاء الله.

... يتعلَّق بالمخلوقات لأنَّ أصل علم المخلوقات من علوم الفلسفة؛ ووش الفلسفة؟ هي طلب معرفة حقائق الأشياء، هٰذا ووش حقيقته؟ فلسفةٌ، صنعة الطيَّارة فلسفةٌ، صنعة المكيِّف فلسفةٌ، لذلك العلماء الطبيعيُّون وعلماء الآلة إلىٰ آخره في الأصل فلاسفةٌ؛ لأنَّهم طلبوا حقيقة هٰذا، واضحٌ، لهٰذا درج كثيرٌ من المؤلِّفين علىٰ أنَّه إذا ألَّف في أشياء تتعلَّق بالمخلوقات أو المصنوعات أن يذكروا شيئًا من الفلسفة لأنَّها هي المدخل لذلك والفلسفة تعرف أنَّها خمسة أقسام أو ستَّةٌ منها..

... طول الخطبة نسبيَّةً، ما يطول الخطبة ساعةً، ساعةٌ إلَّا ربعٌ، ساعةٌ إلَّا ربعٌ طويلةٌ؛ لأنَّك لو قرأت أكثر ما تقرأ في الصَّلاة ما يوافق السُّنَّة إيش؟ تقرأ الجمعة والمنافقين لأنَّ السُّنَّة في صلاة الجمعة أن يقرأ بالجمعة والمنافقين، هٰذا واحدٌ، والثَّاني سبِّح والغاشية، والثَّالث الجمعة الأولىٰ والغاشية الثَّانية، هٰذه الثَّالثة الواردة علىٰ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام، لو جمعت الجمعة والمنافقين الَّتي هي أطول هٰذه بالقراءة المترتِّلة تكون ربع ساعةٍ، الخطبة الَّتي تصير ساعةً إلَّا ربع طيِّب ما تصير .. خطب الجمعة ينبغي أن تكون مختصرةً، ولذلك لمَّا شاع في غير هٰذه البلاد لمَّا شاع تطويل الخطبة تأخَّر النَّاس في الحضور للصَّلاة، عندنا سابقًا إذا جاء قبل الصَّلاة بساعةٍ هٰذا نصف المسجد مليان أنا أدركته، السَّاعة التِّسع الصَّفُّ الأوَّل ما تجد مكانًا، قبل الصَّلاة بساعتين ونصف الصَّفُّ الأوَّل ما تجد مكانًا، لكن الخطبة قصيرةٌ، طيِّب الَّذي يأتي مبكِّرًا يحتبس يحتاج إلىٰ شرابٍ يحتاج إلىٰ بيت الماء، فإذا كان عارفًا أنَّ

الخطبة نصف ساعةٍ، ساعةٌ إلَّا ربع، يتأخَّر، لهٰذا تطويل الخطب أنشأ تأخيرًا، هٰذا شيءٌ طبيعيٌّ حصل في المجتمعات غيرنا ثمَّ الآن، لكن تأتي تنظر الَّذين يدخلون المسجد بعد دخول الخطيب أكثر ممَّن يدخلون قبل دخول الخطيب، يعني أنا أنظر أدخل وما في المسجد إلَّا الثُّلث أبدأ أخطب يأتي الثُّلثين خلاص يكمل المسجد، لأنَّهم تعوَّدوا أنَّ الخطيب يطيل، لكن لو الخطبة قصيرةٌ خلاص تفوته الصَّلاة، تجدونها عشر دقائق ربع ساعةٍ هٰذا المقصود؛ لكنَّ أكثر من ذلك يكون عادةً له دائمًا خطبه نصف ساعةٍ، ساعةٌ إلَّا ربع، هٰذا مخالفٌ للسُّنَّة لكن مثلًا موضوعٌ مرَّةً حصل لمناسبةٍ أو لغرضٍ أو الموضوع اقتضاه هٰذا العارض لا حكم له، لكن يكون هديه دائمًا أنَّه يطوِّل هٰذا له آثارٌ سلبيَّةٌ كثيرةٌ، ولا يحفظ النَّاس تقول له إيش قال؛ لأنَّها طويلةٌ راح أوَّلها، أمَّا لو كانت محدودةً يحفظها، موضوعٌ واحدٌ نبَّهكم عليه خلاص.

... الشِّرك والكفر؟ نعم فيه فرقٌ، الشِّرك والكفر بينهما فرقٌ؛ بل بينهما فروقٌ، حقيقة الشِّرك غير حقيقة الكفر.

حقيقة الشِّرك هو اتِّخاذ النِّدِّ مع الله جلَّ وعلا.

أمَّا الكفر فحقيقته جحد ما أنزل الله جلَّ وعلا أو بعض ما أنزل الله جلَّ وعلا فأنزل الله جلَّ وعلا توحيد الرُّبوبيَّة إذا حجد الرُّبوبيَّة هٰذا كفرٌ لكن لا يُقال مشركٌ، أنكر نبوَّة النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام هٰذا يقال له إيش؟ كافرٌ لا يُقال: مشركٌ، أنكر البعث، كافرٌ، أنكر الملائكة، كافرٌ لا يقال مشركٌ، وهكذا في أمثاله.

لهٰذا في القرآن سمَّىٰ الله جلَّ وعلا الوثنيِّين أو وصف الوثنيِّين عُبَّاد الأصنام بالمشركين، ووصف الكتابيِّين الَّذين أنكروا نبوَّة محمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام بالكفَّار مع حصول الشِّرك والكفر منها من الطَّائفتين تجد ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾[البيِّنة]، يصير الَّذين كفروا لهم شأنٌ والمشركين لهم شأنٌ آخر يعني من جهة الوصف، وفيه فروقٌ تتعلَّق بالتَّقاسيم، تقاسيم الكفر غير تقاسيم الشِّرك.

... المقصود العلم الَّذي يتعبَّد به؛ العلم الشَّرعيُّ، أمَّا يتعلَّم فكَّ بابٍ عشان يترزَّق منه هٰذا مالها علاقة، ويُثاب عليه ليس علىٰ التَّعلُّم، يُثاب علىٰ ما ينتج عن تعلُّمه، إذا كان يريد به كفاية نفسه وأهله بعمل يده يُثاب، إذا كان يريد به نفع الإسلام من جهةٍ ثانيةٍ يُثاب هٰذه ناحيةٌ ثانيةٌ، لكنَّ نفس تعلُّم الصَّنعات المباحة، التَّعلُّم في ذاته هٰذا لا يوصف بثوابٍ لأنَّه من المباحات؛ لكنَّ العلم الشَّرعيَّ.

... ما عبِّد وما حمِّد هٰذا ما فيه، لكنَّ عبد الله وعبد الرَّحمٰن هٰذا رواه مسلمٌ في الصَّحيح «**أَصْدَقُ الْأَسْمَاءِ حَارِثٌ وَهَمَّامٌ وَخَيْرُ الْأَسْمَاءِ عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمٰنِ**»، أمَّا أفضل الأسماء ما عبِّد وما حمِّد ما فيه حديثٌ. طبعًا أفضل الأسماء قد يعترض لفضل الاسم ما يجعله مفضولًا، واضحٌ، هٰذا النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام ما سمَّىٰ عبد الله ولا سمَّىٰ عبد الرَّحمٰن، ما سمَّىٰ عبد الله لأجل أنَّه اسم أبيه، ولا سمَّىٰ عبد الرَّحمٰن لأنَّه اعترض له أن يسمِّي ابنه باسم إمام الموحِّدين، هو إبراهيم الخليل عليه السَّلام ، قال: «**أَتَانِي اللَّيْلَةَ غُلَامٌ وَإِنِّي سَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ**»، يعني قد يعترض للفضل ما يجعله في بعض الحالات

مفضولًا، ليش أفضل الأسماء عبد الله وعبد الرَّحمٰن؟ لأنَّ لفظ الجلالة الله إليه ترجع الأسماء الحسنىٰ في التَّعبُّد والتَّألُّه والرَّحمٰن ما من شيءٍ إلَّا وهو من رحمة الله صار فيها الاعتراف والذُّلُّ بالرُّبوبيَّة والألوهيَّة.

... البدع غير ما ليس له أصلٌ، البدع أشدُّ، واضحٌ، البدعة عملٌ ملتزمٌ يضاهىٰ به العمل الشَّرعيُّ.

لكن يفعل النَّاس شيئًا تقول هل هو مشروعٌ؟ تقول ما له أصلٌ، ليس له أصلٌ، قد لا يكون بدعةً، قد لا يكون مُحرَّمًا يكون من المأذون به، لأنَّ قوله هل هو مشروعٌ؟ قال: لا ليس له أصلٌ، يقابل بأنَّه مشروعٌ:

فقد يكون بدعةً مثلًا لأنَّ البدع لا أصل لها في الشَّرع.

وقد يكون من الأعمال المُطلقة يكون ما لها أصلٌ؛ لكن يجوز العمل بها.

وقد يكون لها أصلٌ لا من جهة النَّصِّ لكن من جهة الدَّليل من جهة المصالح المُرسلة ونحو ذلك.

يعني مثل الأذان الأوَّل في الجمعة لمَّا أُحدث يصحُّ أن تقول: ليس له أصلٌ، يعني قصدك الأصل من فعل النَّبيِّ ﷺ، لكن هل يكون بدعةً، لا لأنَّه من قبيل المصالح المُرسلة.

فإذن البدعة حكمٌ واضحٌ، كلُّ بدعةٍ ضلالةٌ والبدعة مُحرَّمةٌ، إلىٰ آخره، أمَّا ليس له أصلٌ تحتمل.

هٰذا في الفقه الأحكام.

أمَّا في الحديث ليس له أصلٌ لها تفسيرٌ ثاني.

... فروض الكفايات الَّتي هي الصِّناعات هل يؤجر عليها بالنِّيَّة أم بالعمل؟ تحتاج نظر، ليس ما نقول بالنِّيَّة؟ لأنَّ المُكلَّف لا يستحضر أنَّ هٰذه فيها نيَّةٌ، واضحٌ، تحتاج إلىٰ نظرٍ.

... العلماء لهم فيها عدَّة أقوالٍ ولعلَّ الأقرب أنَّهم قومٌ يتمكَّنوا من العمل أو قوم أنَّ سيِّئاتهم أذهبت حسناتهم في الميزان فصاروا لم يعملوا خيرًا قطُّ، يعني لم يعملوا خيرًا قطُّ يُثابون عليه، لأنَّ السَّيِّئات قابلت الحسنات. أو عليهم حقوقٌ فأعطيت حسناتهم ما فيه عندهم خيرٌ، ما قدَّموا خيرًا قطُّ يخرجون به من النَّار.

والمشهور هو الأوَّل أنَّه أناسٌ لم يعملوا خيرًا قطُّ يعني لم يأتهم الوسع، مثل الصَّحابيِّ الَّذي دخل الجنَّة ما سجد لله سجدةً أسلم وقُتل .

طبعًا هم يذكرون حادثة الصَّحابيِّ ونحوه لكن فيها نظرٌ لأنَّ أصل جهاده عملٌ، هل يُقصد بالعمل هنا الأركان، الحديث هٰذا مع أحاديث البطاقة من الأحاديث المُشكلة أو الَّتي تحتاج إلىٰ توجيهٍ عند أهل السُّنَّة الَّذين يقولون أنَّ العمل ركنٌ واضحٌ، والأقرب هو الَّذي ذكرت لك من الأوجه الثَّلاثة أنَّه يُقال: «لم يعملوا خيرًا قطُّ» ما تمكَّنوا، أسلم وما عمل وهٰذا يحصل كثيرًا واحدٌ يسلم ويموت.

«لم يعملوا خيرًا قطُّ» ينجون به من النَّار لأجل ذهاب الحسنات والسَّيِّئات «لم يعملوا خيرًا قطُّ» ينجون به من النَّار لأجل ذهاب حسناتهم إلىٰ غيرهم لاعتدائهم وغيره وأشباهها.

وهٰذه تنتبه لها دائمًا إذا صار عندك مشكلٌ، عندك نصوصٌ مُتشابهةٌ، فالمُتشابه تحمله علىٰ المُحكم ترتاح، المُحكم إيش؟ أنَّ العمل ركنٌ هٰذا أدلَّةٌ عليه كثيرةٌ جدًّا ما الَّذي نتركه من أجل الحديث يمكن أن

يحمل علىٰ عدَّة أوجهٍ ليس نصًّا في المسألة أنَّ العمل ليس ركنًا، هٰذا أتىٰ كخبرٍ آخر في بيان ما يحصل يوم القيامة، يخرجوا «ولم يعملوا خيرًا قطُّ» ليس معنىٰ ذلك أنَّ العمل ليس ركنًا، إذا صار كذلك فيصير متشابهًا، يعني يحتاج إلىٰ فهمٍ فتوجِّهه إلىٰ ما يوافق المُحكمات، هٰذا صنيع شرَّاح الحديث، العلماء إذا جاءوا يشرحون الحديث كيف هٰذا معناه كذا ويُحمل علىٰ كذا؟ لأنَّ عنده أصلًا وعنده هٰذا، فإمَّا أن يفسِّر هٰذا بظاهره إذا كان غير معارضٍ هٰذه المُحكمات، إذا كان فيه معارضةٌ تجده يحمله علىٰ ما يوافق المُحكم إذا كان متشابهًا. يعني كلُّ عمل العلماء علىٰ هٰذا.

... يعني العمل الآن الَّذي يُشترط للإيمان هو جنس العمل واضحٌ؟ هو جنس العمل بالاتِّفاق أو الصَّلاة عند من قال بكفر تاركها، إذا عمل عملًا تقرَّب به إلىٰ الله جلَّ وعلا خلاص عندهم صحَّ إيمانه، عمل أي عملٍ، واحدٌ عند من لا يقول بكفر تارك الصَّلاة يقولون: هٰذا لا صلَّىٰ ولا صام ولا زكَّىٰ ولا حجَّ ولكنَّه برَّ والديه تقرُّبًا إلىٰ الله يقولون: هٰذا عملٌ صار إيمانه تبعه عملٌ الَّذي هو عملٌ بدنيٌّ تقرَّب به إلىٰ الله.

والَّذين يقولون بتكفير تارك الصَّلاة يقولون: لا لازم الصَّلاة واضحٌ؟ هٰذه أقلُّ الأعمال يعني هو لو أتىٰ بعمل غيرها ما يصحُّ إيمانه، أيضًا هناك من يقول لابدَّ من الأركان الخمسة هٰذا قولٌ لبعض أئمَّة الحديث أنَّه هي الأركان يعني أنَّ من ما صلَّىٰ ولا زكَّىٰ ولا صام ولا حجَّ، كيف يصير مسلمًا.

لكنَّ الجميع متَّفقون علىٰ أنَّ العمل ركنٌ، فكيف يوجَّه هٰذا الحديث؟ يقول زائدٌ علىٰ قدر الإيمان، الإيمان الَّذي هم كلٌّ علىٰ حسب ما وجَّه له.

وفَّقكم الله، سبحانك الله وبحمدك.